
الهيئة العامة لقصور الثقافة
ناثانيل هوثورن
كتاب العجائب
ترجمة: د. سهير القلماوى
سلسلة
آفاق
عالمية
95

كتـــاب العجائـــب

تأليف:

ناثانيل هوثورن

ترجمة:

د. سهير القلماوى

تصدير:

د. ماهر شفيق فريد



سلسلة
آفاق عالمية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• كتاب العجائب
• ترجمة:
د. سهير القلماوى
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2010م
256ص، 5ر13 x 5ر19 سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• المراجعة اللغوية: سوزان عبد العال
أشرف عبد الفتاح
• رقم الإيداع: ٢٤٢٧٤/ ٢٠١٠
• الترقيم الدولى: 978-977-704-404-2
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

95

سلسلة شهرية تعنى بنشر الأعمال المترجمة إلى اللغة العربية فى الأدب والنقد والفكر من مختلف اللغات

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

كتـــاب العجائـــب

تصدير

حول «كتاب العجائب» للروائى الأمريكى ناثانيل هوثورن

الأسطورة - بعامة - هى ديانة الإنسان البدائى وفلسفته وعلمه: ديانته لأنها تمثل أولى محاولاته الاتصال بقوة علوية تدير شئونه، وفلسفته لأنها تحمل آثار تفكيره فى الوجود: أصله ونظامه وغايته، وعلمه لأنها محاولة لتفسير ظواهر الطبيعة وعناصر الكون.

والأسطورة الإغريقية - بخاصة - تراث إنسانى خالد، ونبع ثر لا يغيض ، وهى أول مجلى للعبقرية اليونانية ، بل المعجزة اليونانية (لا أتفق هنا مع بعض المفكرين أو أساتذة الفلسفة المصريين الذين يحاولون الطعن فى مفهوم «المعجزة اليونانية»، من هؤلاء المفكرين والأساتذة الذين أكن لهم أعمق التقدير: الأستاذ عباس محمود العقاد صاحب رسالة «الثقافة العربية» أسبق من ثقافة اليونان والعبريين، والدكتور فؤاد زكريا، وكذلك أساتذة آخرون مثل الدكتور مصطفى النشار والدكتور حسن طلب. فاليونان - عندى - هم سادة

الفكر القديم، وأى فلسفات أو علوم مشرقية، فرعونية أو عربية أو فارسية أو هندية أو صينية أو غير ذلك - لا ترقى إلى مقامهم).

لقد صدرت الأساطير الإغريقية عن خيال خصب يقيم الصلات بين الأرض والسماء، وتتفاعل فيه الآلهة والبشر، ومن ثم كانت مصدرا لكثير من المذاهب الفلسفية والكشوف العلمية ومئات - بل آلاف - الإبداعات الفنية في حقول الأدب والموسيقي وفنون الأداء والعرض والتشكيل، وبحق كتب أحد أساتذة الكلاسيات من المصريين:

«إن دراسة الأساطير الإغريقية لا تقل عن دراسة التاريخ أهمية لفهم معتقدات هؤلاء الإغريق وأفكارهم ومشاعرهم التى عبروا عنها فى كتاباتهم وفنونهم التشكيلية، لأن أساطيرهم ممتزجة بكل ألوان حياتهم الخاصة والعامة، وذلك بصورة بعيدة كل البعد عن مستوى خبراتنا ، ومن ثم فسيكون من الصعب علينا دون دراسة هذه الأساطير - إن لم يكن من المستحيل - فهم الكثير من فنون الغرب وآدابه وطرق تفكيره، بل وكذلك فنون وآداب أجزاء أخرى من العالم خلال آلاف السنين منذ نشأت الحضارة الكلاسية حتى الآن» (د. إبراهيم سكر، الأساطير الإغريقية، مجلة تراث الإنسانية ٥ أغسطس ١٩٦٧).

وقد كان الأديب الأمريكي ناثانيل هوثورن (١٨٠٤ - ١٨٦٤) من أبرع من قدموا الأسطورة الإغريقية إلى قارئ القرن التاسع عشر بأسلوب سهل المتناول ، قريب المأتى ، وذلك فى كتابه المسمى« كتاب العجائب للبنات والأولاد» (١٨٥١) وقد صدرت ترجمته العربية، مع

مقدمة، بقلم الدكتورة سهير القلماوى عن مكتبة الأنجلو المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر فى مايو ١٩٦٤.

كان هوثورن - الذى حظى بتقدير معاصريه مثل إدجار آلان بو، وهرمان ملثيل - كاتبا أخلاقيا ومؤلف أمثولات رمزية، شهر أكثر ما شهر بروايته المسماة «الحرف القرمزى»(١٨٥٠) وهى بحث فى طبيعة المذهب التطهرى (البيوريتانى) الأمريكى وضمير نيو إنجلند وقضايا الخطيئة والثواب والتجدد الروحى، على أنه لم يخل من جانب أقل قتامة، وأكثر إشراقا ، يتمثل فى كتاباته للناشئة والأطفال.

والأساطير التى يتضمنها «كتاب العجائب» يرويها للأولاد الصغار طالب جامعى يدعى يوستيس برايت، وكان جل اعتماد هوثورن فى إعادة رواية هذه الأساطير على «المعجم الكلاسيكى» لتشارلز آنثون (نيويورك ، الناشر : هاربر وإخوته ١٨٤١) وقد صدر الكتاب بلوحات من ريشة ولتركرين، وهو واحد من أبرز رسامى كتب الأطفال فى أواخر القرن التاسع عشر ، ولوحاته ملونة، أقرب إلى مدرسة ما قبل رفاييل فى فن التصوير.

ويشرح جورج بارسونز لاثروب فى مقدمة (١٨٨٣) كتبها لـ «كتاب العجائب» فى إحدى طبعاته ظروف تأليف الكتاب ودوافع هوثورن إلى إنشائه فيقول : لقد ظل هوثورن دائما شديد الاهتمام بحياة الأطفال وميالا إلى الكتابة لهم، وبعد زواجه وإنجابه ولدا وبنتا (أنجب بنتا أخرى فيما بعد) حرص على تسجيل ما يقولانه ويفعلانه، وكان يجلس فى الغرفة التى يلعبان فيها مسجلا - فى صبر - كل ما يصدر عنهما.

وأثناء إقامته فى لنوكس ، وبعد نشر كتابه المسمى « البيت ذو الجمالونات السبعة» كتب فى رسالة إلى چيمز ت. فيلدز بتاريخ ٢٣ مايو ١٨٥١:

«إنى أنوى أن أكتب ـ خلال الأسابيع الستة أو الشهرين القادمين ـ كتاب قصص مؤلف من أساطير كلاسية . ستكون موضوعات هى: قصة ميداس ولمسته الذهبية ، پاندورا ، مغامرة هرقل بحثا عن التفاحة الذهبية، بيليزفون والشيميرا، بوكيس وفليمون، پرسيوس وميدوزا، وهذا ـ فيما أظن ـ كاف لصنع مجلد، وعلى سبيل التأطير، سأقدم طالبا جامعيا شابا يروى هذه القصص لأبناء عمومته وإخوته وأخواته، أثناء عطلاته، أحيانا فى الغابات والوديان الصغيرة، وإذا لم أكن مخطئا خطأ كبيرا، فستفى هذه القصص القديمة ـ على نحو يدعو للإعجاب ـ بغرضى ـ وسأرمى إلى أن أستبدل بها نغمة قوطية أو رومانسية إلى حد ما، أو أى نغمة تروقنى ، بدلا من البرود الكلاسى المنفر كلمس الرخام».

ولم يستعرض تأليف الكتاب منه زمنا فقد أنجزه بسرعة، كتب المخطوط على ورق أزرق نحيل أقرب إلى أن يكون كبير القطع، وعلى كلا جانبى الورقة، ولم يشطب أو يمح إلا أقل القليل، إذ كان من الواضح أن النص جاهز فى ذهنه، وقد نجح الكتاب لدى صدوره أدبيا وماليا على السواء، وسرعان ما ترجم إلى الألمانية ونشر هناك.

وقد ذكر هوثورن فى مقدمة الكتاب أنه لم يقصد قصدا إلى النزول بنوعية كتابته إلى مستوى الصغار ، فهو يؤمن بأنهم ـ على محدودية خبراتهم بالحياة ـ يملكون من الذكاء الفطرى والإحساس

الصادق ما يجعلهم قادرين على تذوق هذه القصص، إذ لا تناقض بين العمق والبساطة؛ يقول هوثورن عن نفسه:

«لم يحس المؤلف وهو يقوم بهذا العمل الممتع... أنه مضطر إلى أن ينزل عن المستوى ليكون فى متناول فهم الصغار ، لقد ترك لموضوعه فى أغلب الأحيان حرية التحليق كلما كانت فيه طاقة على هذا التحليق، وكلما أحس من نفسه أنه قادر على أن يحلق معه، دون مشقة أو عنت. والصغار يتمتعون بحاسة قوية، لا يقدرها الناس حق قدرها، وهذه الحاسة تمكنهم من أن يتذوقوا كل ما هو رفيع، أو عميق من الخيال والعواطف».

وإذا تحولنا إلى ما يقوله النقاد عن «كتاب العجائب» فسنجد أن الروائى الأمريكى مولداً الإنجليزى جنسية هنرى جيمز فى كتابه (١٨٧٩) عن هوثورن يصف الكتاب بأنه سحر، وأن المثل الأعلى للسعادة عند الكثير من الأطفال الأمريكيين هو أن يرقدواعلى سجادة وأن ينسوا أنفسهم مع الكتاب، ففى صفحاته يتعرفون لأول مرة على أبطال الأساطير اليونانية وبطلاتها، ويجدون شيئا من نوعية قصص الأطفال الخيالية التى ينقلها هوثورن.

وفى رسالة دكتوراه غير منشورة عنوانها «العلم والخيال فى كتب الأطفال الأنجلو- أمريكيين (١٧٦٠ - ١٨٥٥) عند توماس داى وماريا إدجورث وناثانيل هوثورن» مقدمة إلى كلية وليم دمارى فى ٢٠٠٥ بإشراف رتشاردس لاورى نقرأ أن «كتاب العجائب» ليس مجرد دروس أخلاقية صيغت فى قالب قصصى وإنما هو فانتازيا تعليمية ترمى إلى إضرام نار الخلق والإبداع لدى قرائه من الأطفال،

وتحاول الربط بين الماضى الكلاسى، وقد أضفيت عليه صبغة رومانسية ـ من ناحية والعالم الصناعى البازغ من ناحية أخرى.

وثمة رسالة دكتوراه أخرى مقدمة من كرستال دون ماكية إلى «جامعة تكساس للنساء» فى ٢٠٠٥،تحت إشراف فيليس براچز، عنوانها «التقنية السردية من حيث هى إستراتيجية بلاغية فى أعمال مختارة للأطفال من تأليف ناثانيل هوثورن» ، هنا تذهب الباحثة إلى أن إستراتيجيات هوثورن القصصية فعالة على عدة مستويات ، ولكنها تبلغ ذروتها فى «كتاب العجائب» . وإذ كان أول كاتب أمريكى يعيد رواية الأساطير الكلاسية للأطفال فقد حرص على تنقيح هذه الأساطير (مزيلا مثلا مشاهد الفظاظة وأفعال القسوة الوحشية) بما يجعلها ـ فى آن ـ شائقة لجمهوره من الأطفال ومقبولة أخلاقيا وتربويا من جمهور الكبار فى القرن التاسع عشر.

وفاعلية هذه الصياغة الجديدة لأساطير قديمة راجعة إلى حد كبير إلى موهبة هوثورن الأدبية، وأسلوبه الموحى الذى يجمع بين الصلابة والمرونة، وفى هذا تقول الدكتورة سهير القلماوى فى مقدمة ترجمتها :

«استطاع الكاتب القدير ناثانيل هوثورن ، أبو القصة الأمريكية كما يلقب ، أن يشيع فى هذه الأساطير اليونانية القديمة حيوية وحياة نابضة بالقيم الإنسانية الخالدة على مر العصور، وأسلوب هوثورن ـ وقد كان يعكف شهورا طويلة فى عزلة تامة ليجوده ـ يوحى بأنه منحوت من صخر . ولكن فيه جلال الصخر وجماله وبه استطاع فعلا أن يدمغ جو هذه الأساطير كله بقدرة سحرية على التأثر بالجمال والاستمتاع به.»

هذا نموذج من أولى قصص الكتاب ، قصة «رأس الوحش» يصف فيه هوثورن الجورجونات الثلاث بشعورهن الأفعوانية ووجوههن الدميمة وأجنحتهن الواسعة وأعينهن المحدقة التى كان بوسعها أن تحيل من تنظر إليه إلى حجر يقول:

إنه من أعسر العسر أن يتخيل المرء مدى بشاعة هؤلاء الشقيقات الثلاث، فلقد كان لكل منهن بدل جدائل الشعر مئات من الأفاعى الكبيرة الطويلة الحية على رؤوسهن، أفاع تفيض بالحركة وتتلوى وتتماوج وتخرج ألسنتها ذات الإبر المسمومة الحادة، وكانت أسنان الوحوش أنيابا طويلة فظيعة، وأما الأيادى فمن النحاس وأما أجسادها فمكسوة بقشور إن لم تكن من الصلب أو الحديد فلاشك أنها كانت من معدن لا يقل صلابة ولا يمكن أن يخترق بحال من الأحوال، وصدقونى أيها الصغار أنه كانت لها أجنحة عظيمة، كل ريشة فى هذه الأجنحة صافية لامعة براقة من الذهب الأحمر».

ومن الواضح أن بلاغة الوصف هنا تعتمد على حيوية التفاصيل العينية، والرصد الدقيق لأعضاء الجسم على نحو محسوس، وهى خاصة مميزة لأسلوب هوثورن بعامة، ولهذا الكتاب بخاصة.

وفى مقالة عنوانها «هوثورن والأسلوب القوطى» بمجلة «ذانيو إنجلند كوارترلى» (السنة ٣٤، العدد ١، مارس ١٩٦١) يذكر كاتب المقالة موريس تشارلى أن هوثورن يعمد إلى إضفاء الطابع القوطى على الأسطورة الكلاسية وذلك شعورا منه بأن الفن الكلاسى - وإن كان كاملا - أقرب إلى الصرح الرخامى البارد الذى يحتاج إلى أن تنفخ فيه الأجواء القوطية انفعالا وحياة.

وتوجه مقالة عنوانها «الأسير برغبته : الغواية السردية وأيديولوجيا الحب فى كتاب هوثورن: كتاب العجائب للبنات والأولاد» من قلم لسلى جنزبرج (مجلة «أمريكان لترتشار» السنة ٦٥، العدد ٢، يونيه ١٩٩٣) أنظارنا إلى أن الكتاب وثيق الصلة بالثقافة التى ولد فى ظلها، فقد كتب فى فترة تعالت فيها أصوات المنادين بإلغاء نظام الرق والراغبين إلى أن تنال المرأة حقوقها، وهى تطورات هددت النظام الاجتماعى القائم بأن يتزعزع ومن ثم عمد هوثورن ، فى إعادة روايته للأسطورة القديمة، إلى تقديم أيديولوجيا توهم بأن الأمور مستتبة فى خمسينيات القرن التاسع عشر الجياشة، وهى فترة برز فيها شبح التشذر وتفكك الوحدة.

ويجدر بالقارئ الكريم إذا أراد الإحاطة بخلفية الأساطير التى يقدمها هوثورن هنا وروايتها المختلفة أن يرجع إلى مراجع من قبيل «الأساطير اليونانية » للشاعر والروائى والناقد الإنجليزى روبرت جريفز (سلسلة كتب بليكان ، فى جزءين) وثمة ، فى اللغة العربية، كتاب «أساطير اليونان» للدكتور محمد صقر خفاجة والدكتور عبد اللطيف أحمد على، وفى فترة أحدث «أساطير إغريقية» للدكتور عبد المعطى شعراوى(الهيئة المصرية العامة للكتاب، فى ثلاثة أجزاء) أما من أراد المزيد من تناول هوثورن القصصى للأسطورة الإغريقية، وتقديمها للناشئة والأطفال فله أن يرجع إلى كتاب هوثورن «قصص تانجلوود للبنات والأولاد: وهو كتاب عجائب ثان» (١٨٥٣) حيث يروى قصص ثيسيوس والمينوتور، والمارد أنتيوس والأقزام، وأسنان التين ، وقصركيركى، وبروسر بينا وحب الرمان ، وقصة چيسون

والجرة الذهبية (للكتاب ترجمة عربية بقلم أستاذ الأدب الإنجليزى الراحل الدكتور شوقى السكرى، ومراجعة الدكتورة سهير القلماوى ، مكتبة الأنجلو المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، أبريل ١٩٦٣) فالكتابان يتكاملان ويتعاونان على إغناء خيال القارئ وتوسعة مداركه وإقامة الصلة بينه وبين أصول حضارة عظيمة جمعت بين الفلسفة والفن والأدب والنظم السياسية والعلم والأسطورة على نحو غير مسبوق ، وفى ثراء عقلى وروحى ووجدانى مازلنا ننهل من ينابيعه حتى اليوم.

ماهر شفيق فريد

ناثانيل هوثورن فى اللغة العربية
ببليوجرافيا مختارة

قصص لهوثورن مترجمة إلى اللغة العربية

ـ الشارة القرمزية، ترجمة جاذبية صدقى، مقدمة د. خليل صابات، ومقدمة: نيوتن آرفن، مؤسسة سجل العرب ١٩٨٦.

ـ الحرف القرمزى، ترجمة وتقديم عبد الباقى بركات، المركز القومى للترجمة ٢٠٠٩.

(ثمة ترجمة ثالثة أقدم عهدا بكثير وأفضل من هاتين الترجمتين، انحدرت إلى من مكتبة والدىَّ الراحلين، ولكنها للأسف ممزقة الغلاف والصفحات الأولى والصفحات الأخيرة ومن ثم لا أدرى اسم المترجم ولا الناشر ولا تاريخ أو مكان النشر).

ـ كتاب العجائب، ترجمة: سهير القلماوى، مكتبة الأنجلو المصرية، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، مايو ١٩٦٤.

ـ قصة تانجلوود، ترجمة د. شوقى السكرى، مراجعة د. سهير

القلماوى، مكتبة الأنجلو المصرية، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، أبريل ١٩٦٣ (الغلاف الخلفى: هذا الكتاب بقلم حسن جلال العروسى).

- من كتاب : الحرف القرمزى ، فى كتاب محمود مسعود: روائع الفكر العالمى، كتاب الهلال مارس ١٩٧٩.

- السيدة بولفروج فى كتاب: عشر قصص لكتاب مختلفين، ترجمة وتقديم سعد حسين سعد، مؤسسة سجل العرب ١٩٨٤.

- «قريبى الحاكم» و«التجربة» فى كتاب : قائد الشعب وقصص أخرى لكتاب مختلفين، ترجمة عمر القبانى : دار الكرنك للنشر، د. ت.

- الرأس ذو الريشة ، ترجمة د. رشا الجديدى، مجلة العربى (الكويت) يونيو ٢٠٠٦.

- تجربة الدكتور هيدجر، مراد الطحاوى، مجلة الهلال يناير ١٩٨٣.

- دفن روجر مالفن فى كتاب : مختارات من القصص الإنجليزى ، ترجمة إبراهيم عبد القادر المازنى، سلسلة الألف كتاب (٣٧١) د. ت.

كتب مترجمة بها مادة عن هوثورن:

- ويليس ويجر، الأدب الأمريكى، أو رؤية عالمية، ترجمة د. نظمى لوقا، دار المعارف ١٩٧٦.

- ماركوس كنليف، أدب الولايات المتحدة الأمريكية، ترجمة سامى فهمى القليوبى، مراجعة، د. لويس مرقص، مؤسسة سجل العرب ١٩٦٥.

- ليون هوارد، الأدب فى التراث الأمريكى، ترجمة سامى فهمى

القليوبى، مراجعة، د، لويس مرقص، مؤسسة سجل العرب ١٩٦٥.

- ليون هوارد: الأدب فى التراث الأمريكى، ترجمة سميرة مصطفى أحمد، دار المعارف ١٩٨٨.

- هرمان ملفل، هوثورن وطحالبه فى كتابه: روائع المقال، تحرير هيوستون بيترسون، ترجمة يونس شاهين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥.

- ريتشارد هارتر فوجل، نثنائيل هوثورن: البيت ذو الأسقف السبعة المائلة، فى كتاب: معالم الثقافة الأمريكية، تحرير هنيج كوهن، ترجمة د. نبيل راغب، دار المعارف ١٩٨٠.

- ڤان ويك بروكس وأوتو بيتمان، التراث الأدبى الأمريكى، ترجمة سالم خليل، المؤسسة الأهلية للطباعة والنشر، بيروت ، د. ت.

- مالكولم كاولى، فصول فى الأدب والنقد، بيت متعدد النوافذ، ترجمة محمد بر الدين خليل، الناشر: كتابى ١٩٨١ (مقالة «هوثورن فى عزلة»).

كتابات عربية عن هوثورن

- أحمد أمين وزكى نجيب محمود ، قصة الأدب فى العالم، الجزء الثالث، القسم الأول، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سبتمبر ٢٠٠٢.

- د. رمسيس عوض، اليهود فى الأدب الأمريكى، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠١.

- د. فردوس البهنساوى: الواقعية الفلسفية لحركة الإنسان فى المجتمع عند محمود تيمور وهوثورن، مجلة عالم القصة يوليو- ديسمبر ١٩٨٣ (أعيد طبعها فى كتابها : فى المسرح الحديث

ودراسات أخرى، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٥)

- المحرر(حلمى مراد) قرأت وشاهدت لك فى الكتب والمسارح والحياة، كتابى ، أغسطس ١٩٥٧.

- د. أنجيل بطرس سمعان، المجلات الغربية: مجلة المجلة ، فبراير ١٩٦٥ (تخطئ الكاتبة فتترجم عنوان رواية هوثورن The Scarlet Letter إلى «الخطاب القرمزى» وهو خطأ فى حق رواية من الكلاسيات لا يليق بأستاذة للرواية الإنجليزية والأمريكية).

- د، عادل عطا إلياس ، من الأدب العالمى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨ (عرض لأقصوصة هوثورن «الوحمة»)

- حسب الله يحيى ، كتاب العجائب، مجلة التراث الشعبى(بغداد) العدد الفصلى الأول ١٩٨٥.

ماهر شفيق فريد

تقديم

يقول المؤلف «ناثانيل هوثورن» مرة فى المقدمة، ومرة على لسان الطالب الذى يقص هذه الأساطير ويرمز به المؤلف إلى نفسه، إن هذه الأساطير ليست ملكا لزمان بعينه أو لقوم دون سواهم، إنها ملك للعالم كله، وللزمان كله، ولا يملك اليونان وحدهم الحق فيها..

بهذا الاعتقاد أخذ ناثانيل هوثورن الأساطير اليونانية القديمة المعروفة وصاغها صياغة جديدة تلائم عصره ووطنه ولغته، وهو يهدف بذلك إلى أن يكسوها كساء جديدا لتحمل موازين العصر وقيمه الخلقية والروحية ولتكون مادة حية متجددة يقرؤها الشباب ويستمتع بها، ولقد اتخذ لهذه الأساطير إطارا التزمه فى هذا الجزء الأول وهو «كتاب العجائب» ولم يلتزمه فى الجزء الثانى وهو «قص تانجلوود»(١). وهذا الإطار يجعل الحديث يدور قبل القصة وبعدها بين طالب وزمرة من الأطفال الصبية أبناء العمومة والأقارب ويعكس

الجو الواقعى الجديد ويتقلب مع فصول السنة صيفا وشتاء، ربيعا وخريفا، أما فى الخلاء مع الطبيعة أو فى المكتب حول المدفأة أو فى غرفة اللعب أو على قمة الجبل أو على عتبة الدار. وبهذا ننتقل من الجو الواقعى إلى جو الأسطورة ثم نعود مرة أخرى إلى الجو الواقعى من جديد، مما يضفى على الأساطير مسحة جديدة تقربها إلينا وتنعش جوها الأسطورى البعيد الجاف أحيانا بكثير من روائح الحاضر الحى..

وفى داخل الأسطورة نرى ملاحظات القاص كثيرا ما تتجه نحو الواقع لتذكرنا به، وتذيب الكثير من ثلوجه، كما يقولون، وهذه الملاحظات قد تكون واضحة تشير إلى بعض صور الطبيعة من حولنا، وتفوق المؤلف فى استخراج عبير الطبيعة وألوانها أمر معروف، وأحيانا كثيرة تكون هذه اللفتة إلى الواقع عن طريق استخراج العظة أو التعليق من الناحية النفسية أو الخلقية، اقرأ مثلا فى قصة «الجرة المسحورة» كيف يصف إخفاء الله للقرية وأهلها لأنهم لا يعرفون «معنى الإنسانية ولا يستشعرون الرحمة ولا الحب..» فأحال الله بلدتهم إلى بحيرة كما كانت فى قديم الزمان، إذ يقول المسافر الغريب صاحب القوة الخارقة: «إن حياتهم لا فائدة منها ولا جمال فيها، إنهم لم يقوموا بأى جهد لإسعاد الغير أو تخفيف البلاء عنه ولم يشعروا أبدا بالعواطف الطيبة التى يمكن أن تتبادل بين إنسان وإنسان، هذه العواطف التى تجعل عبء الحياة خفيفا. ولذلك فإن البحيرة العتيقة التى كانت هناك من زمان مددت نفسها، ووسعت مساحتها لتستطيع مرة أخرى أن تعكس صورة السماء على الأرض».

واقرأ أيضا فى قصة «اللمسة الذهبية» كيف يضغط على فكرة أن الذهب أو المال لا يجلب السعادة، فيجعل صفرة الذهب بغيضة كل البغض فى عينى «ميداس» الذى عاش حياته يعبد الذهب . لقد جعلته الأسطورة يشتاق إلى جرعة أو إلى كسرة خبز، بل جعلته يتحرق إلى أن يرى دبيب الحياة يدب فى جسم ابنته الحبيبة.

وهو مستعد فى سبيل ذلك أن يتنازل إلى الأبد عن كنوز الأرض كلها بل عن كل ما يمكن أن تكومه له لمسته الذهبية من كنوز وكنوز.

يقول له الغريب الذى منحه اللمسة الذهبية الملعونة يوم كان يتطلع إليها فى حرقة ولهفة، بعد أن اقتنع الملك ميداس أن هناك فى الحياة ما هو أثمن من كنوز الذهب مهما بلغت: «إنك تبدو وكأنك مازلت قادراً على أن تفهم أن الأشياء العادية جدا التى هى فى متناول يد أى إنسان أغلى من كل ثراء يلهث الناس فى سبيله، ويشقون من أجل الحصول عليه».

كذلك يشير المؤلف إلى قيمة الشعر ودور الشاعر فى الحياة فى أسطورة «شيميرا الوحش» حيث جعل «بللروفون» وجواده المجنح فى موضع الشبه بالصبى الشاعر الصغير وخياله المجنح. فالصبى الشاعر الصغير مؤمن بالحياة وبالخيال، ولذلك كان هو سبب الأمل والإيمان اللذين أوصلا الطبل آخر الأمر إلى الانتصار على الشر، ودور الصبى الصغير هو دور الشاعر فى الحياة، هو دوره فى الحفاظ على شعلة الإيمان ونور الأمل وسط دياجير الظلام..

بكل هذا، وبغيره، استطاع الكاتب القدير ناثانيل هوثورن، أبو القصة الأمريكية كما يلقب، أن يشيع فى هذه الأساطير اليونانية

القديمة حيوية وحياة نابضة بالقيم الإنسانية الخالدة على مر العصور، وأسلوب هوثورن - وقد كان يعكف شهورا طويلة فى عزلة تامة ليجوده - يوحى بأنه منحوت من صخر، ولكن فيه جلال الصخر وجماله وبه استطاع فعلا أن يدمغ جو هذه الأساطير كله بقدرة سحرية على التأثر بالجمال والاستمتاع به. إن أى وصف لأى منظر من مناظر الطبيعة أو لأى منظر من مناظر الصراع بين الإنسان وقوى الشر ليدل أقوى دلالة على قدرة فائقة بارعة على نحت الصورة نحتا ممتازا وعلى تسليط الأضواء والظلال والعبير والأنسام عليها بل والأصوات أيضا فإذا هى نابضة حية لها طعم ولون ورائحة ونغم وإن كانت منحوتة من صخر، إن هوثورن بهذا الأسلوب استطاع أن ينقل الرواية الأمريكية من دنيا التقريرات الصحفية إلى دنيا الفن الرفيع، إنه هو الذى أنشأ الرواية الأدبية لأول مرة وكانت فى زمانه كتلة فجة من الأحداث تروى بأسلوب تلقائى عفوى، إنه هو الذى أوجد لها بناء وأسلوبا وأداة رفيعة لتنفذ إلى القلب وتؤثر فى النفس كما يفعل الشعر الجميل، وبفضله انتقلت الرواية من مرتبة التسلية إلى مرتبة الفن، من مرتبة المتعة الرخيصة العابرة إلى جلال الفن وجماله وخلوده.

وفى رواية هذه الأساطير أعمل أسلوبه هذا الجليل الجميل ليعكس به الضوء والعبير والظل واللون والنغم فإذا هى تفعم حيوية فياضة، وإذا هى تتزيا بزى جديد فعلا وتكسب كما أراد لها أن تكسب قراء جددا من الشباب المتأثر بروعتها، إنها حكايات صراع الإنسان مع قوى الشر فى الحياة، حكايات هينة لينة تلعب فيها

الخوارق دورها ولا شك، ولكنها كأساطير الدنيا كلها تغلب الخير وتفعم الناس أملا بالحياة واستبشارا بها، إنها حكايات صراع ولكنها فى الواقع حكايات انتصارات بفضل الإيمان والشجاعة وعدم التسليم بالأمر الواقع فى موضوع الشر أبدا، إنها انتصارات بفضل حب الإنسان لأخيه الإنسان وبفضل طبيعة الخير المتأصلة فى الإنسان رغم الظروف القاسية التى تغير من هذه الطبيعة... وهؤلاء الأبطال الطيبون، أبطال الخوارق، وأبطال الصراع الواقعى، وأبطال الخير الهادئ الوديع، إنهم جميعا قريبون إلى قلوبنا، لأن فى كل منهم قطعة من نفوسنا وصورة من ضعفنا وصورة مكبرة لما نريد لأنفسنا أن تكون، فيهم طموحنا وإيماننا، وفيهم أيضا ضعفنا وبعض عيوبنا، لذلك نحبهم ونعطف عليهم ونتابع سيرتهم فى لهفة وشوق ونحوطهم دائما بخوفنا عليهم من أى شر يصيبهم.

ولقد كان هدفى من ترجمة هذه الأساطير يتضمن أغراضا عدة وسأكتفى بالوقوف عند اثنين منها فحسب، أما الأول فهو أن الأساطير مادة طيبة لأبنائنا من الأطفال أو الصبية، لها جاذبيتها ولها أثرها فى تكوينهم الخلقى وما أقل ما يجد صغارنا ما يقرؤونه فى سنهم باللغة العربية، وأما الثانى فهو أنها كانت وما زالت إلى اليوم مادة ضخمة يعتمد عليها أدباء الغرب كثيرا جدا فى تأليفهم، يشيرون إلى أحداثها وأبطالها ويتخذون من بعضها رموزا لفلسفاتهم الحديثة وآرائهم الجديدة بل إنهم ما زالوا يعتمدون على أساطير منها كاملة وككل إلى اليوم، إن عصورا أدبية بأكملها فى الآداب الغربية، كالعصر الكلاسى، مثلا، لا يمكن أن تفهم دون

معرفة هذه الأساطير، وقراءاتنا لهذا الآداب، بحكم طبائع الأشياء، مستمرة وستستمر، وفائدتنا منها محققة ولا محل للجدال فيها سواء قرأناها بلغاتها الأصلية أم مترجمة.

وبعد.. فإني أرجو ألا أكون بأسلوبي القاصر (الذى يبدو أشد قصورا إذا ما قيس بأسلوب هوثورن قد شوهت هذا الأثر الفنى الرفيع، فلقد جهدت ، علم الله، ألا أترجم وأترجم بدقة فحسب وإنما جهدت قدر المستطاع أن يرتفع أسلوب الترجمة ولو درجة إلى آفاق أسلوب الأصل دون أن يفقد شيئا من الدقة ولا من الوضوح ، وكانت بساطة أسلوب الأصل ، التى تخدع لأول وهلة، مزلقا كبيرا من مزالق الترجمة، لأن هذه البساطة هى ثمرة عبقرية الفنان التى تتجلى فى إخفاء جهد النحت والصبر والصنعة الدقيقة بغلائل من اليسر الهين المحبب إلى النفس، لقد جهدت ألا أنزلق فى هذه المزالق وحرصت على رونق الفن ودقة الصنعة دون أن أتخلى عن رواء البساطة أو جمالها، أقول، لقد جهدت ، ولكن الله وحده هو الموفق مهما جهد العبد.

د. سهير القلماوى

(١) نشرت الترجمة العربية لهذا الجزء مكتبة الأنجلو المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين فى أبريل سنة ١٩٦٣.

مقدمة

إن المؤلف، منذ زمن بعيد، كان يرى أن الأساطير القديمة الكلاسية يمكن أن تصبح من أمتع ما يقرأ الأطفال لو أنها صيغت صياغة جديدة، وفى هذا الكتاب الصغير قدم المؤلف لقرائه شيئا منها بعد أن وضع هذه الغاية نصب عينيه، وكان لا بد له من حرية واسعة ليحقق هذه الفكرة. ولكن لابد لكل من يحاول أن يصهر هذه الأساطير فى أتون فكره من أن يلاحظ أنها خالية إلى حد عجيب من كل عنصر من عناصر المعاصرة، فهى لا ترتبط أبدا بأحوال بعينها أو أوضاع خاصة فى زمان معين، وكل التغييرات الكفيلة بأن تغير معالم أى شىء سواها لا يمكن أن تغير من حقيقتها هى شيئا. إنها ستظل أبدا كما هى.

لذلك لا يحس من يحاول أن يصهرها، أو يصوغها من جديد، أنه مضطر لأن يدافع عن نفسه، لأنه فى محاولته إخراجها إخراجا جديدا قد انتهك حرمة قداستها أو غير من شكلها الذى دمغته بها عراقة ألفين

أو ثلاثة آلاف من السنين، ذلك أنه في الواقع لا يمكن لأى عصر من العصور أن يدعى الحق فى أنه هو وحده عصر هذه الأساطير الخالدة، إنها تبدو وكأنها لم تؤلف تأليفا فى يوم من الأيام، والأمر الذى لا ريب فيه أنها لا يمكن أن تموت ما دام الإنسان حيا، وبما أنه لا يمكن لها أن تبلى فإن موضوعاتها أصبحت ملكا مباحا لكل عصر، وكل عصر يمكن أن يكسوها الكساء الملائم لزمانه وعاداته وعواطفه، وأن يصبغها بصبغته ويضفى عليها ما شاء من موازينه الخلقية وقيمه الروحية، وهى فى هذه الصورة التى تخرج عليها فى هذا الكتاب قد تكون فقدت كثيرا من طابعها الكلاسى القديم، ولكن المؤلف على كل حال لم يكن حريصا على الاحتفاظ لها بهذا الطابع القديم، إنها قد تكون تزيت بزى قوطى أو رومانسى أو ما يكون من الأزياء.

ولم يحس المؤلف وهو يقوم بهذا العمل الممتع ـ وكان العمل ممتعا حقا خليقا بالطقس الدافئ وجديرا بأن يكون ألطف ما كلف المؤلف به نفسه من أعمال ـ أنه مضطر إلى أن ينزل عن المستوى ليكون فى متناول فهم الصغار، لقد ترك لموضوعه فى أغلب الأحيان حرية التحليق كلما كانت فيه طاقة على هذا التحليق، وكلما أحس من نفسه أنه قادر على أن يحلق معه، دون مشقة أو عنت، والصغار يتمتعون بحاسة قوية، لا يقدرها الناس حق قدرها، وهذه الحاسة تمكنهم من أن يتذوقوا كل ما هو رفيع أو عميق من الخيال والعواطف، مادام هذا الخيال وهذه العواطف بسيطة فى رفعتها سهلة فى عمقها ، إنه هو التعقيد والتكلف الذى يحيرهم ويستعصى عليهم.

لينوكس فى ١٥ يولية ١٨٥١ .

عتبة تانجلوود
(مقدمة قصة رأس الوحش)

في صباح يوم جميل من أيام الخريف تجمعت على عتبة بيت ريفى، كان يعرف باسم «تانجلوود»، طائفة مرحة من الأولاد الصغار وقد وقف بينهم شاب فارع الطول. وكانوا قد استعدوا لرحلة استكشافية للبحث عن ثمار الجوز، ولكنهم كانوا ينتظرون بفارغ الصبر انقشاع الضباب من على منحدرات التلال وانبعاث دفء الصيف الحار من الشمس ليتدفق على الحقول والمراعى متخللا ثنايا الغابة المتعددة الألوان، وكان الأمل كبيرا فى أن يكون اليوم من أجمل الأيام التى تبهج العالم الهادئ الجميل... ولكن رغم هذا الأمل كان ضباب الصباح ما زال يملأ الوادى طولا وعرضا. وكان البيت يطل على ربوة، منحدرة فى رفق، من ربى الوادى، وامتد البخار الأبيض إلى أقل من مائة متر أمام البيت فأخفى كل شىء وراءه إلا بضعة رءوس من أعالى الشجر، حمراء أو صفراء، برزت

مطلة من هنا أو هناك وقد كستها أشعة الشمس المبكرة بهاء كما كست أعالى الضباب وسطحه المنبسط حولها، وعلى مسافة أربعة أميال أو خمسة ارتفعت قمة جبل «مونمونت» وكأنما هى تسبح على متن سحابة، وفى نفس الاتجاه وعلى بعد خمسة عشر ميلا أو نحوها أطلت قبة «تاكونيك» العليا زرقاء غائمة، غير واضحة، لا تكاد تتميز وكأنما هى البحر الغائم الذى يعلو بخاره عليها حتى ليكاد يطويها فيه، أما التلال القريبة التى امتدت على حدود الوادى فقد كانت نصف غارقة فى الضباب... وكانت منقطة بأكاليل من السحب صغيرة تعلوها من كل اتجاه حتى قممها، لقد كان الصبح بوجه عام ملبدا بالسحب والغيوم لا تكاد ترى فيه الأرض الصلدة الواضحة، فبدا العالم وكأنه عالم الرؤى والخيال لا عالم الواقع الملموس.

أما الأطفال الذين ذكروا فى صدر هذا الحديث والذين قد أترعوا بكل ما يمكن أن يترعوا به من حيوية ونشاط فقد أخذوا يتدفقون من عتبة بيت تانجلوود مبتعدين عنه يعدون نحو الممرات الحصباء أو يندفعون نحو بساط الحشائش المنداة الممتدة أمام البيت. ولا أستطيع أن أقرر كم كان عدد هؤلاء الصغار، إنهم كانوا لا يقلون عن تسعة ولا يزيدون على اثنى عشر من كل صنف وحجم وسن ونوع ، صبية وبنات ، وكانوا جميعا إخوة وأخوات أو أبناء عم ومعهم قلة من الأصدقاء الصغار الذين دعاهم السيد «برنجل» وزوجه ليستمتعوا بالجو البهيج فى هذه الأيام مع أبنائهما فى تانجلوود، وإنى لأخشى أن أسميهم بأسمائهم أو بأسماء يمكن أن يسمى بها الأطفال عادة، لأنى أعلم علم اليقين أن هذا هو ما يقع فيه

بعض المؤلفين من المشكلات إذا ما هم سموا شخصيات مؤلفاتهم بأسماء حقيقية.

لذلك ارتأيت أن أسميهم بأسماء هذه الزهور: زهرة الربيع، وزهرة الفجر، والخنشار، والهندباء البرى، والسنبل، والبرسيم، وزهرة التوت، وزهرة الفتنة، وزهرة الليمون، والزهرة اللبنية، وشجرة الموز، وشقائق النعمان ، بالرغم من أن هذه الأسماء تليق بطائفة من الجن أكثر مما تليق بأطفال من سكان هذه الأرض.

ولم يكن من المعقول أن آباء هؤلاء الأطفال أو أمهاتهم أو أعمامهم أو أخوالهم أو أجدادهم يمكن أن يسمحوا لهم بأن يهيموا هكذا فى الغابات دون رقابة كبير مسئول يعتمد عليه، كلا وألف كلا، ولعلك تذكر أيها القارئ أنى حدثتك عن شاب فارع القامة كان يقف بين هؤلاء الأطفال، وهذا الشاب كان يدعى «يوستيس برايت» وهذا هو اسمه الحقيقى وأنا أعرفك باسمه الحقيقى لأنه يفخر كل الفخر بأنه هو الراوى لهذه القصص التى نقصها عليك فى هذا الكتاب، وكان هذا الشاب طالبا فى كلية «ويليامز» فى هذه الأيام التى نقص عليك خبرها، وكان فيما أعلم قد وصل إلى هذه السن الوقور - سن الثامنة عشرة - بحيث إنه شعر كأنما هو جد لهؤلاء الصبية: جد لزهرة الفجر والهندباء والتوت والليمون والزهرة اللبنية وغيرهم ممن كانوا أقل وأقل من نصف سنه الوقور أو ثلثها . وكان اضطراب فى نظره (من هذا النوع الذى يرى بعض الطلاب اليوم أنه لا بد لهم منه ليثبتوا به أنهم جادون فى المذاكرة) قد منعه من أن يذهب إلى الكلية فتأخر أسبوعا أو أسبوعين بعد بدء الفصل الدراسى، أما أنا فإنى

لم أصادف إلا نادرا عينين تنبئان بأنهما يمكن أن تريا إلى أبعد وبأوضح مما ترى عينا يوستيس برايت.

وكان هذا الطالب المثقف نحيفا باهت اللون كسائر الطلبة الأمريكيين، ولكنه في مظهره كان سليم البنية نشطا، وكأنما هو قد ركب لحذائيه جناحين فيكاد يطير وهو يسير لفرط نشاطه وخفته. ولكنه لما كان مشغوفا بالتجوال بين الحقول وعبر الجداول فقد لبس لهذه الرحلة حذائين ملائمين لها، وارتدى قميصا من نسيج رفيع رقيق، ووضع على رأسه غطاء من قماش وحجب عينيه بنظارة خضراء ليضفي على مظهره نوعا من الوقار في الواقع ، لا ليقي عينيه وهج الشمس كما ادعى، وعلى كل حال كان من الأفضل له ألا يلبسها لأن زهرة التوب، العفريتة الصغيرة، انزلقت خلفه وهو جالس على درج العتبة وخطفت النظارة من على أنفه ثم ركبتها فوق أنفها هي، وبما أن الطالب قد نسى أن يستردها منها فقد سقطت النظارة على العشب وظلت مستقرة هناك حتى مطلع الربيع التالي.

ولا بد لكم من أن تعرفوا أن يوستيس قد نال صيتا ذائعا بين الأطفال وشهر بأنه قصاص ماهر لقصص مشوقة، وبالرغم من أنه كان يتظاهر أحيانا بأنه قد ضاق ذرعا بكثرة إلحاحهم ليزيدهم ثم يزيدهم من هذه القصص فإني أشك في أنه كان يفضل أي شيء آخر على أن يقص على الأطفال هذه الحكايات، ولا شك أنك كنت ستلمح في يسر البريق يلمع في عينيه عندما طلب إليه أكثر هؤلاء الصغار - البرسيم والخنشار وزهرة الفتنة وشقائق النعمان - أن يقص عليهم قصة من قصصه ليقطعوا بها الوقت أثناء الانتظار حتى يزول الضباب.

وقالت زهرة الربيع وهى صبية ذكية لها من العمر اثنتا عشرة سنة ضاحكة العينين مرفوعة أرنبة الأنف نوعا ما: «نعم يا بن العم لا شك أن الصباح هو أفضل وقت لقص القصص التى تمتحن بها صبرنا وتبلو بها قدرتنا على الإنصات، ذلك أننا سنكون أقل تعرضا لجرح إحساساتك إذا ما نحن نمنا عندما تصل إلى أحرج المواقف وأكثرها إثارة للانتباه على نحو ما نمت أنا وزهرة الفتنة مساء أمس».

فصاحت زهرة الفتنة وهى طفلة فى السادسة: «كلا لم أنم أيتها الشقية، إن كل ما فعلته هو أنى أغمضت عينى لأتخيل المنظر الذى كان يصفه لنا ابن العم، إن الإنصات إلى قصصه لذة فى المساء لأننا نحلم بها فى نومنا وهو مشوق أيضا فى الصباح لأنه يتيح لنا فرصة أن نحلم بها ونحن أيقاظ، لذلك آمل أن يقص علينا قصة منها فى الحال».

فأجاب يوستيس: «شكرا لك يا صغيرتى، لا شك أنه لا بد لى أن أقص عليك أحسن القصص التى أذكرها لدفاعك المجيد عنى أمام زهرة الربيع العفريتة... ولكنى، يا صغارى، قصصت عليكم كثيرا جدا من القصص الخرافية حتى أنى أشك فى أن هناك قصة واحدة منها لم تسمعوها مرتين على أقل تقدير، وإنى لأخشى، فى حقيقة الأمر، أن تناموا إذا ما أعدت إحداها على مسامعكم مرة أخرى».

فصاح الجميع «لا ، لا ، لا ، إن حبنا للقصة يزداد إذا ما أعيد قصها علينا مرتين أو ثلاثا».

والواقع أن هناك حقيقة لا شك فيها بالنسبة للأطفال ، وهى أن

القصة إذا تكررت تركت أثرا واضحا فى إيقاظ اللذة عند سماعها مرة أخرى، ولكن يوستيس برايت رفض هذا العرض لخصوبة منابع قصصه، ولم يشأ أن ينتهز هذه الفرصة التى كان غيره من القصاص الشيوخ يغتنمها دون تردد.

وقال للصغار: «لو أن رجلا فى مثل تعليمى، ولا أقول فى مثل خيالى المبتكر الخصب، لا يستطيع أن يقص على مثلكم كل يوم قصة جديدة عاما بعد عام لكان الأمر مؤسفا للغاية، سأحكى لكم قصة من قصص الأطفال التى قصت لتسلية جدتنا الكبرى الأرض عندما كانت طفلة تمرح فى ملابس الأطفال، إن هناك مئات من هذه القصص وإنى لأعجب كثيرا كيف أن هذه القصص لم تطبع فى كتب جميلة مصورة للأولاد وللبنات الصغار أمثالكم، بل الأعجب من هذا أن بعض كبار العلماء ذوى اللحى المغبرة الشعثاء يتأملون فى حيرة ويتساءلون عن الأسباب التى من أجلها ألفت هذه القصص».

وصاح الأطفال دفعة واحدة: «حسنا يا ابن العم لا تتكلم كثيرا عن قصصك ولكن ابدأ بواحدة منها».

فقال يوستيس برايت: «اجلسوا إذن جميعا فى صمت عميق، كصمت الفئران الحذرة، لأنى إذا سمعت أية حركة أو أية مقاطعة سواء أكانت من زهرة الربيع أو من غيرها فإنى لن أنطق بكلمة واحدة وسأبلع فى جوفى كل ما لم أسرده من القصة بعد ذلك، والآن هل يعرف أحد منكم ما هو الوحش؟».

فقالت زهرة الربيع: «أنا أعرف».

فنهرها يوستيس قائلا: «إذن أقفلى فمك» إنه كان يفضل لو أنها

لم تكن تعرف شيئا عن الموضوع، ثم أضاف قائلا: «اقفلوا جميعا أفواهكم وسأقص عليكم قصة طريفة عن «رأس الوحش».

وهكذا بدأ قصته كما ترون ذلك فى الصفحات التالية حكيما غزير العلم رفيعه، مشيرا فى احترام وافر إلى الأستاذ «آنثون» ولكن كثيرا ما كان يغفل مصادر القصة الوثيقة وأصولها الكلاسية المعروفة عندما كان خياله الخصب الجرىء فى جموحه يفرض عليه ألا يخضع لأى اعتبار.

رأس الوحش

كان «پرسيوس» ابنا «لدانيا» .وكانت دانيا ابنة ملك. ولما كان پرسيوس صبيا صغيرا جدا وضعه بعض الأشرار هو وأمه فى صندوق وتركوا الصندوق يطفو على صفحة ماء البحر، وهبت الريح الطيبة فدفعت الصندوق بعيدا عن الشاطئ، فتقاذفته الأمواج المضطربة صاعدة به هابطة، وكانت دانيا تضم ولدها إلى صدرها خشية أن تنقض عليهما موجة عاتية فتخفيهما فى زبدها الفائر الثائر. ولم ينقلب بهما الصندوق ولم يغرق، بل استمر يطفو على صفحة الأمواج حتى بدأ الليل يرخى سدوله، وإذا الصندوق يقترب من جزيرة قربا شديدا حتى علق بشباك صياد من الصيادين ، فجذبه الصياد إلى رمال الشاطئ سليما غير مقلوب. وكانت الجزيرة هى جزيرة «سريفوس» التى يحكمها ملك يعرف باسم «پوليدكنيس».وكان الملك والصياد أخوين.

وأنه ليسعدنى أن أقرر أن هذا الصياد كان رجلا مستقيم الخلق رحيما عطوفا، فعطف على دانيا وولدها عطفا كبيرا، واستمر على هذا العطف عليهما والبر بهما حتى شب پرسيوس وأصبح شابا وسيما موفور القوة جم الحيوية ماهرا فى القتال حاذقا لاستعمال آلات النزال ، وكان ملك الجزيرة قد رأى ، منذ زمان بعيد، الأم وابنها اللذين وصلا إلى مملكته داخل صندوق عائم على الأمواج، ولما لم يكن عطوفا طيب القلب كأخيه الصياد ، بل لما لم يكن إلا شريرا قاسيا فقد عزم على أن يرسل پرسيوس فى مهمة خطرة من المحتمل أن يقتل فيها ليتسنى له أن يؤذى دانيا إيذاء كبيرا، وانقضت فترة طويلة والملك الشرير يفكر فيما هو أخطر ما يمكن أن يقوم به هذا الشاب من مغامرة، ولما توصل أخيرا إلى تحديد هذه المغامرة الخطرة، التى تورد الشاب مورد التهلكة ، أرسل فى طلب پرسيوس.

ودخل الشاب القصر فوجد الملك جالسا على عرشه، وقال له الملك مبتسما فى مكر وخبث: «يا پرسيوس إنك كبرت حتى صرت شابا عظيما ولقد نلت أنت وأمك كل العطف منى ومن أخى الصياد الطيب، وأظن أنه لا يضيرك فى شىء أن تسعى فى أن ترد إلينا بعض الدين».

فأجابه پرسيوس: «عفوا يا صاحب الجلالة إنى مستعد كل الاستعداد لأن أخاطر بحياتى لأقدم لكما ما تطلبان منى».

فاستمر الملك فى حديثه وابتسامة خبيثة تعلو شفتيه وهو يقول: «إذن فإنى أعرض عليك القيام بمغامرة صغيرة، ولما كنت شابا

شجاعا مقداما فإنك لا شك سترى أنه من حسن طالعك أن تتاح لك هذه الفرصة النادرة لتظهر شخصيتك الممتازة، لا شك أنك تعلم يا صديقى پرسيوس أنى أفكر فى الزواج من الأميرة الجميلة «هيوداميا» وقد جرت العادة فى مثل هذه الظروف أن تقدم للعروس هدية جميلة غريبة نادرة، وأعترف لك فى إخلاص أنى كنت حائرا كيف أصل إلى هدية تروق فى عينىّ أميرة لها مثل هذا الذوق الرفيع، ولكنى أغبط نفسى لأنى فى نفس هذا الصباح وصلت إلى تحديد هذه الهدية التى أعيانى التفكير فى تحديدها».

وصاح پرسيوس فى حماسة قائلا: وهل فى وسعى أن أساعدك ، يا مولاى، على الوصول إلى هذه الهدية والحصول عليها!».

فأجابه الملك پوليدكتيس بغاية الرقة وفرط الأدب «نعم تستطيع أن تساعدنى لو أنك بلغت من الشجاعة ما أظنك قد بلغت منها. لقد قر قرارى على أن تكون هدية العرس للأميرة الجميلة هى رأس الوحش «ميدوسا» ذا الجدائل الأفعوانية، وإنى لمعتمد عليك يا عزيزى پرسيوس فى أن تحضره إلى، ولما كنت قد عزمت على الإسراع فى الزواج من الأميرة فإن سروى سيكون أعظم ، وبلا شك، لو أنك أسرعت فى البحث عن رأس الميدوسا».

فأجابه پرسيوس: «سأرحل غدا صباحا، فأردف الملك: «أرجوك أن تفعل أيها الفارس الشجاع، وإنى لأرجوك، أن تضرب رأس الوحش ضربة باترة واحدة عند قطعه حتى لا يفسد منظره، بل عليك أن تحضر لى الرأس على خير حال حتى يروق فى نظر الأميرة الجميلة هيوداميا ذات الذوق الرفيع الممتاز».

وغادر پرسيوس القصر، وما كاد يبتعد قليلا حتى انفجر پوليدكتيس ضاحكا، لقد تفجر الملك الشرير سرورا عندما رأى كيف وقع الشاب فى الفخ الذى نصبه له، وانتشر الخبر فى سرعة فى كل مكان، وتناقل الناس الخبر أن پرسيوس قد أخذ على عاتقه أن يقطع رأس الميدوسا ذا الجدائل الأفعوانية، وانشرحت نفوس سكان الجزيرة فقد كانوا كلهم أشرارا كالملك نفسه، وما كان يمكن لشىء أن يسرهم كما يسرهم نزول بلاء عظيم بدانيا وبابنها وفى الواقع لم يكن فى الجزيرة التعسة «سريفوس» إلا رجل واحد طيب، هو الصياد، وكان الناس أثناء سير پرسيوس أمامهم يسخرون منه ويتغامزون عليه ويشيرون إليه صائحين: «ياله من بطل، ستلدغه أفاعى ميدوسا لدغة أى لدغة» ثم يضحكون عليه بصوت عال.

وفى هذا الزمان كانت توجد وحوش ثلاثة هى أغرب وأفظع ما وجد على ظهر البسيطة منذ خلق الله هذا العالم، بل إنها أفظع ما يمكن أن يرى البشر فى ماضيهم أو حاضرهم، بل أفظع ما يمكن أن يروا فى المستقبل أيضا، ولست أدرى على وجه التحديد ماذا أسمى هذا النوع البشع من المخلوقات، لقد كن ثلاث أخوات شقيقات يحملن بعض الشبه البعيد من النساء، ولكنهن كن فى الواقع نوعا من الوحوش الشريرة المخيفة، وإنه من أعسر العسر أن يتخيل المرء مدى بشاعة هؤلاء الشقيقات الثلاث، فلقد كان لكل منهن بدل جدائل الشعر مئات من الأفاعى الكبيرة الطويلة الحية على رؤوسهن ، أفا ع تفيض بالحركة وتتلوى وتتماوج وتخرج ألسنتها ذات الإبر المسمومة الحادة. وكانت أسنان الوحوش أنيابا طويلة فظيعة، وأما الأيادى

فمن النحاس، وأما أجسادها فمكسوة بقشور إن لم تكن من الصلب أو الحديد فلا شك أنها كانت من معدن لا يقل صلابة ولا يمكن أن يخترق بحال من الأحوال، وصدقونى أيها الصغار أنه كانت لها أجنحة عظيمة، كل ريشة فى هذه الأجنحة صافية لامعة براقة من الذهب الأحمر، فإذا طارت الوحوش وانعكست أشعة الشمس على هذه الأجنحة كان منظرها أخاذا خلابا.

ولكن الناس إذا لمحوا تلألؤ أجنحتها البراق فى السماء لم يكونوا يقفون ليتطلعوا إليها أو يتمتعوا بمنظرها الخلاب، وإنما كانوا يفرون راكضين ليختفوا عنها فى أسرع وقت، ولعلكم تظنون أنهم كانوا يركضون خوفا من لدغ الأفاعى التى كانت تحتل رؤوسها وتقوم مقام الشعر، أو خوفا من أنيابها البشعة أو مخالبها الحادة التى يمكن أن تمزق أجساد الناس تمزيقا، إن هذه فى الواقع كانت بعض الأخطار المخيفة التى كانت تحملها معها ولكنها لم تكن أعظم هذه الأخطار، بل لعلها كانت أسهلها من حيث إمكان إتقائها، ذلك أن أبشع ما فى أمر هذه الوحوش هو أنه إذا ثبت أى كائن حى نظره فى وجه أى منها فإنه يتحول فى الحال من كائن حى إلى حجر أصم بارد صلد.

ومن هنا نرى فى وضوح كم ذا كانت خطرة تلك المغامرة التى دبرها الملك لهذا الشاب الطيب الخير بل إن پرسيوس عندما قلب الأمر بينه وبين نفسه لم ير أمامه إلا فرصة ضئيلة جدا فى أن يعود سالما من هذه المهمة، وكان الاحتمال الأكبر هو أن يتحول إلى تمثال جامد من الحجر، لا أن يعود ومعه رأس الميدوسا ذو الجدائل

الأفعوانية ، فالذى لا شك فيه أنه إلى جانب هذه الصعاب كلها التى ذكرت كانت هناك صعوبة خليقة بأن تحير لب رجل كبير السن إذا ما فكر فى التغلب عليها، فكيف بالشاب الصغير پرسيوس، ذلك أنه كان عليه أن يحارب هذا الوحش ذا الأجنحة الذهبية والجسد المغطى بالقشور الحديدية والأنياب الطويلة الحادة والمخالب الصلبة والجدائل الأفعوانية ويقتله دون أن يرفع نظره مرة واحدة إلى العدو الذى ينازله، وإلا فإنه من المحتمل أن يصبح ذراعه حجرا جامدا فى اللحظة التى يرفعه ليضرب به الضربة القاضية، بل إنه ليظل هكذا مرفوعا متحجرا على مدى القرون والأجيال حتى يبلى على مر الزمن وتذروه الرياح الهوج من كثرة ما تمر عليه ، وإنه لمصير بائس محزن لشاب متفتح للحياة، يريد أن يقوم بمهام جسام ويستمتع بقسط وافر من السعادة فى هذا العالم المبهج الجميل.

وأسلمته هذه الأفكار إلى اليأس فلم يجرؤ على أن يقص على أمه شيئا فى شأن المهمة التى أخذها على عاتقه، ولهذا فقد لبس درعه وامتشق حسامه وترك أطراف الجزيرة وتوغل فى قلبها ، حتى جلس فى مكان قصى ولكنه لم يستطع أن يحبس دموعه طويلا فسالت مدرارا على خديه.

ولما غمره الحزن سمع صوتا قريبا منه يقول له: «يا پرسيوس لم كل هذا الحزن، ورفع پرسيوس رأسه من بين يديه اللتين كانتا تخفيان وجهه وإذا به يرى فى هذا المكان المنعزل، الذى ظن أنه وحيد فيه، إنسانا عجيبا، وكان الإنسان شابا سريع الحركة ذكى الفؤاد ماكرا بل داهية فى مظهره، وكان على كتفيه معطف وعلى

رأسه طاقية عجيبة الشكل، وفى يده عصا ملتوية التواء غريبا، بينما تدلى على جنبه سيف قصير معوج، وكان جسمه كثير الحركة خفيفها كمن اعتاد القيام بتمرينات بدنية، وكان يبدو مستعدا للجرى وللقفز، ولكن الأهم من كل هذا أن الغريب كان يبدو باسما مقدرا للظروف مستعدا للمساعدة، وبالرغم من ظهور شىء من المكر فيما كان يقدم عليه من عمل غير أن پرسيوس لم يملك إلا أن يحس أن روحه المعنوية تنتعش لمجرد التطلع إليه، ولما كان پرسيوس فى الحقيقة شابا شجاعا فقد أخجله خجلا عظيما أن يفاجئه أى إنسان وهو دامع العينين كالتلميذ الخجول الصغير. ومهما يكن من أمر فقد لا يكون هناك محل لكل هذا اليأس. وكفكف پرسيوس دمع عينيه وأجاب الغريب فى حماسة وقد أخذت نظرة كلها شجاعة تطل من عينيه وهو يقول: «لست فى الواقع حزينا إلى هذا الحد ، ولكنى أفكر فى المغامرة التى أخذت على عاتقى أن أقوم بها، ولا شىء غير هذا». فأجابه الغريب: «طبعا... حدثنى إذن عنها كلها فقد أستطيع أن أقدم لك خدمة، كما ساعدت غيرك من الشبان الطيبين فى مغامرات كانت تبدو عسيرة صعبة أول الأمر، قد تكون سمعت عنى من قبل، فأنا أسمى بأسماء عديدة ولكن اسم «الزئبقى» يلائمنى أكثر من أى اسم آخر، حدثنى عن همومك لنقلب الأمر على كل وجه ونعرف ماذا يمكن أن نعمله».

وأثرت كلمات الغريب وحركاته فى پرسيوس أثر السحر، وبثت فيه روحا مختلفة عما كانت عليه روحه من قبل، فعزم على أن يعرض على الزئبقى كل مشاكله، ذلك أن أحواله لا يمكن أن تسير إلى أسوأ

مما هى عليه الآن، وهذا الصديق قد يقدم له من النصح ما يمكن أن يفيد.

وعرض مشكلته فى كلمات قليلة واضحة على الغريب، شرح كيف أن الملك پوليدكتيس طلب رأس الميدوسا ذا الجدائل الأفعوانية هدية عرس للأميرة الجميلة هيوداميا وكيف أنه أخذ على عاتقه مهمة إحضاره، ثم شرح له مدى خوفه من أن يتحول إلى حجر.

فأجابه الزئبقى: «هذا أمر يثير الألم ولا شك، وإن كنت أرى أنك قد تكون جميلا جدا فى صورة تمثال من المرمر تمر عليه الأجيال قبل أن ينال الزمن منه ويفتته، وعلى كل حال فبين أن تكون تمثالا جميلا لعدة قرون وبين أن تكون شابا حيا لسنوات معدودات فإنك لا شك تفضل أن تكون شابا حيا لسنوات معدودات».

فصاح پرسيوس وقد عادت الدموع تملأ عينيه من جديد: «قطعا، هذا فضلا عن أنى لا أتصور ماذا سيحل بأمى الحنون إذا ما تحول ابنها وقرة عينها إلى صخرة صلدة جامدة».

فأجابه الزئبقى بصوت يبعث الشجاعة فى سامعه: «حسنا، حسنا ، أرجو ألا تسوء المسألة إلى هذا الحد، والذى لا شك فيه أنه إذا كان هناك أحد يستطيع أن يساعدك فإنى أنا بعينه هو هذا الرجل ، وسنعمل أنا و أختى ما فى وسعنا لنخرجك من هذه المغامرة سالما مهما بدا لك الآن منها من مخاطر بشعة».

فكرر عليه پرسيوس : «أختك؟».

فأجابه الغريب: «نعم أختى، وأؤكد لك أنها امرأة طيبة حكيمة، أما أنا فإن ذهنى كثيرا ما يكون منتبها لكل ما حوله من تفصيلات

كما هى حالى الآن معك، فإذا أظهرت شجاعتك، وحرصت على نفسك واتبعت نصحنا فإنه لا داعى للخوف بعد ذلك من أن تتحول إلى تمثال حجرى الآن، وعليك أولا أن تصقل درعك صقلا لتكون براقة لامعة تستطيع أن ترى صورتك معكوسة عليها كما تعكسها المرآة المجلوة».

وخيل إلى پرسيوس أن هذه بداية شاذة للمغامرة الكبيرة، ذلك أنه كان يظن أن الأفضل أن تكون الدرع متينة لتقيه حوافر الوحش الصلبة لا أن تكون لامعة كالمرآة لتنعكس عليها صورته، ولكنه آخر الأمر سلم بأنه لا بد أن تكون معلومات الزئبقى خيرا من معلوماته، وبناء على ذلك أخذ ينظف الدرع بنشاط وإقبال وحسن طوية حتى أن الدرع بدأت تلمع بسرعة وتتلألأ كما يتلألأ القمر فى كبد السماء يوم يكتمل بدرا، ونظر إليه الزئبقى مبتسما وهو يهزّ رأسه علامة الموافقة على ما يعمله، ثم خلع سيفه القصير المعوج وطوق بحمالته پرسيوس بعد أن نزع سيفه الآخر الذى كان يلبسه.

وقال الغريب: «ليس كسيفى هذا سيف يفى بغرضك ولسلاحه حد بتار يقطع الحديد والنحاس بنفس السهولة التى يقطع بها فروع الشجر، ولنبدأ الآن ، إن أول ما يجب أن تقوم به هو أن تبحث عن ثلاث سيدات رماديات يستطعن أن يخبرننا عن مكان الحوريات».

وصاح پرسيوس وقد تصور أن هذه عقبة جديدة تضاف إلى عقبات الطريق نحو المغامرة: «السيدات الرماديات الثلاث ، ومن يكن بربك هؤلاء السيدات، إنى لم أسمع بهن من قبل» فضحك الزئبقى وهو يجيبه بقوله: «إنهن ثلاث عجائز فى غاية العجب، لهن عين

واحدة وسن واحدة، وعليك أن تعثر عليهن ساعة الغسق أو على ضوء النجوم لأنهن لا يظهرن فى ضوء الشمس أو ضوء القمر أبدا.

فقال پرسيوس: «ولماذا ترغب إلى فى أن أضيع وقتى فى البحث عن هؤلاء النسوة، ألا يكون من الأفضل أن نتجه فورا إلى البحث عن الوحش الفظيع».

فقال الصديق: «كلا، هناك أمور كثيرة عديدة عليك أن تقوم بها قبل أن تبدأ طريقك إلى الوحش ، فليس عليك الآن إلا أن تبدأ بالبحث عن هؤلاء العجائز، وتأكد أنه عندما نعثر عليهن ونقابلهن فإن الوحوش تكون منا على مسافة غير بعيدة، تعال إذن ولنبدأ فى البحث».

وما كاد الأمر يصل بپرسيوس إلى هذا الحد حتى كان قد بدأ يثق بحكمة صديقه كل الثقة فلم يعد يبدى أى اعتراض آخر.

وعلى ذلك أعلن استعداده لأن يبدأ المغامرة فورا . ومن ثم بدأ الرحلة معا وأخذا يمشيان بخطى واسعة نشطة حتى أن پرسيوس أحس أنه من العسير عليه أن يلاحق صديقه الزئبقى الرشيق الخفيف، ومر برأسه خاطر غريب وهو أن حذاء الزئبقى مجهز بجناحين يساعدانه على السرعة العظيمة فى السير، وعندما كان پرسيوس يختلس إليه النظر من طرف العين كان يرى أجنحة على جانبى رأسه بالرغم من أنه لو نظر إليه فى الوجه متمعنا لم يكن ليرى أى شىء من هذا وكل ما كان يراه هو هذه الطاقية عجيبة الشكل، وعلى كل حال فلقد كانت العصا المعوجة معينا كبيرا للزئبقى فى السير السريع حتى أن پرسيوس وهو الشاب النشط قد أخذ يلهث من السرعة التى كان الغريب يسيره بها.

وأخيرا قال الزئبقى (بالرغم مما هو عليه من خبث ومكر) بعد أن تأكد من أن پرسيوس وجد الصعوبة كل الصعوبة فى أن يلحق به: «خذ هذه العصا لأنك تحتاج إليها أكثر منى، أليس فى جزيرة سريفوس من هو خير منك سيرا؟».

فأجاب پرسيوس وهو يرمق قدم صاحبه فى مكر: «لا شك أنى أستطيع أن أسير سيرا أفضل لو كان لى حذاء بجناحين» فأجابه الزئبقى: «سنحاول أن يكون لديك زوج من هذا النوع من الأحذية».

وساعدت العصا پرسيوس على أن يسير بسرعة فلم يعد يشعر بأى تعب حتى خيل إليه أن العصا كائن حى يبعث فيه شيئا من روحه.

وسار پرسيوس مع صاحبه مرتاحين يتحدثان فى جو من الصداقة والمودة وقص الزئبقى عليه كثيرا من أخبار مغامراته الطريفة السابقة وكيف كانت سرعة بديهته تسعفه فى كثير من المآزق حتى أحس پرسيوس بعظمة صديقه، لقد كان الزئبقى يعرف الكثير من أخبار هذا العالم، ولا شك أن أمثال هؤلاء الأصدقاء يسحرون الشباب ويخلبون لبهم، وأنصت إليه پرسيوس بكل انتباه يريد أن يشحذ قريحته بمثل هذه المعلومات القيمة، وتذكر پرسيوس آخر الأمر أن الزئبقى كان قد حدثه عن أخت له ستساعده فى المغامرة التى سيقوم بها فسأله قائلا: وأين أختك وهل سنقابلها عما قريب؟».

فأجابه رفيقه: « كل شىء فى حينه، ولكن يجب أن تعرف أن أختى هذه تختلف عنى كل الاختلاف، فهى امرأة وقور حذرة قل أن تبتسم، بل هى لا تضحك أبدا... والقاعدة عندها ألا تتفوه بكلمة إلا

إذا كان هناك أمر مهم يستدعى ذلك، كما أنها لا يمكن أن تنصت لحديث إلا إذا كان جادا مهما» فصاح پرسيوس: «يا الله ! إنى أخشى أنى لن أنطق أمامها بحرف».

ولكن الزئبقى استمر فى حديثه يقول: «إنها امرأة عظيمة ما فى ذلك شك، متقنة لكل المهارات العلمية والفنية بارعة فيها، لقد بلغت من الحكمة مبلغا استحقت من أجله أن تسمى الحكمة المجسمة ، أما أنا فأرى أنها جامدة لا روح فيها ، وأعتقد أنك لن تجدها رفيق سفر جذابا مشوقا مثلما تجدنى، ولكن بالرغم من كل هذا فإن لها مميزاتها التى ستجدها نافعة لك عندما تتقابل مع الوحوش».

وما كادا يصلان إلى هذا الحد من الحديث حتى كان الظلام قد بدأ يرخى أستاره وكانا قد شارفا قفرا موحشا تكثر فيه الأشجار الكثيفة، وغمر المكان سكون موحش حتى ليخيل للمرء أن الحياة لم تمر بهذا المكان ، فلم يسكنه أبدا أحد فيما يبدو، بل لم يمر به أحد، وفى الغسق المغبر والظلمة تتكاثف من دقيقة إلى أخرى بدا كل شىء خرابا موحشا، وتلفت پرسيوس حول نفسه فى شىء من اليأس وسأل الزئبقى عما إذا كان لايزال أمامهما مسافات كثيرة لا بد أن تقطع.

ولكن الزئبقى أجاب فى همس: «صه! لا تحدث أى صوت فإن هذا هو الزمن المناسب للقاء الثلاث السيدات الرماديات، انتبه حتى لا يرينك قبل أن تراهن أنت، لأنه بالرغم من أن للثلاث عينا واحدة يبصرن بها هن الثلاث فإنها عين حادة النظر حتى أنها لتقوم مقام ست أعين عادية».

وتساءل پرسيوس: «وماذا على أن أعمل؟»

وشرح له الزئبقى كيف تدبر السيدات أمرهن فى شأن هذه العين الواحدة، وكيف تستعيرها الواحدة من الأخرى فيما يبدو وكأنما هو منظار فإذا احتفظت إحداهن بالعين فترة ما عادت فخلعتها من محجر العين وأعطتها لأختها التى عليها الدور أن تلبسها، وهذه بدورها تلصقها بسرعة فى محجرها لتتمتع بالنظر إلى منظر العالم من حولها، وبهذا يبدو واضحا أنها هى واحدة منهن ليس غير، التى تستطيع أن ترى، بينما تكون الأختان الأخريان فى ظلام دامس ، يضاف إلى ذلك أيضا أنه أثناء تناول العين من يد أحداهن للأخرى تمر لحظة لا ترى فيها أية واحدة منهن شيئا، لقد سمعت عن أشياء عجيبة كثيرة فى حياتى وشاهدت أيضا عجائب أخرى كثيرة ولكن كل هذا لا يمكن أن يقارن فيما يبدو، بهذه العجيبة الفذة - ثلاث نسوة رماديات يبصرن جميعا بعين واحدة يتداولنها بينهن.

كان هذا هو ما فكر فيه پرسيوس ، ولقد بلغت به الدهشة من هذا الحديث إلى حد أنه تصور أن رفيقه إنما يمزح معه وأنه ليس هناك فى الواقع شىء من قبيل هؤلاء العجائز فى هذا العالم الذى نعيش فيه.

والتفت إليه الزئبقى وقال: ستعرف فى الحال إذا ماكنت أقص عليك الحقيقة أم لا، صه ، لا تقل شيئا فهاهن قد حضرن».

وتفرس پرسيوس فى ظلام الليل فبدا له أن هناك ، بما لا يحتمل الريب، ثلاث نسوة رماديات على مسافة غير بعيدة من حيث يقف. ولما كان الضوء ضعيفا فإنه لم يستطع أن يميز أشكالهن ، وكل ما

استطاع أن يميزه هو أن لهن شعرا رماديا طويلا، ولما اقتربن منه استطاع أن يتبين أن لاثنتين منهن فى منتصف الجبين محجرا فارغا، بينما توجد فى محجر العين الواحدة فى وسط جبين الثالثة عين كبيرة جدا براقة أخاذة تلمع ببريق كبريق الماسة الضخمة فى خاتم ثمين، وبدت العين نفاذة الرؤية فلم يشك پريوس فى أنها تستطيع أن ترى فى الظلام الدامس مثلما ترى فى وضح النهار، إنها ترى وكأنما عيون ثلاثة من الناس قد أذيبت واجتمعت بكل قوة أبصارها النافذة في هذه العين الواحدة.

وهكذا استطاعت هؤلاء العجائز الثلاث أن يسرن فى الحياة براحة ويسر وكأنهن يرين كلهن فى نفس الوقت معا، وكانت تلك التى تصادف أن وجدت العين فى جبهتها هى التى تقود أختيها من يديهما وهى تدقق النظر فيما حولها طوال الوقت، حتى أن پرسيوس خشى أن تراه هو والزئبقى حيث يختبئان فى الأشجار الكثيفة المتعانقة، ولكم كان مخيفا حقا أن يحس الإنسان نفسه قريبا من عين حادة كتلك العين.

لكن قبل أن تصل الأخوات إلى الأشجار المتكاثفة التى اختبأ فيها پرسيوس والزئبقى قالت إحداهن: «يا أخت! يا أخت» يا عفريتة الغربان» لقد استأثرت بالعين وقتا طويلا وآن لى أن آخذها واستعملها فلقد جاء دورى».

فأجابتها صاحبة العين: «دعينى أحتفظ بها يا أختى يا «كابوس» لأنى أظن أنى لمحت شيئا خلف هذه الأشجار الكثيفة».

قدمت الكابوس بتذمر: « وماذا فى هذا، ألا أستطيع بالعين أن

أرى مثلك ما بداخل الشجر الكثيف وما وراءه بكل سهولة، إن العين لى مثل ما هى لك. وإنى لأعرف كيف أستعملها مثلما تعرفين وأقدر فائدتها مثلما تقدرين بل ربما أكثر منك ولهذا فأنا مصرة كل الإصرار على أن ألبسها فورا».

وهنا تدخلت الأخت الثالثة وكان اسمها «الفزع الأكبر» لتبدى تذمرها زاعمة أن الدور دورها لتلبس هى العين، وأن أختيها تودان الاستئثار بالعين من دونها، ولإنهاء هذا الشجار مدت عفريتة الغربان يدها ونزعت العين من على جبهتها وأمسكت بها فى يدها وصاحت قائلة:

«فلتأخذها أى منكما ولتنهيا هذه المشاجرة السخيفة أما أنا فإنه يسعدنى ولا شك أن أظل فى ظلام دامس، هيا خذا العين بسرعة وإلا أعدتها مرة أخرى إلى جبهتى».

وتلبية لهذه الدعوة تقدمت الأختان تتلمسان الطريق لتخطفا العين من اليد الممدودة بغاية السرعة. ولكنهما ـ لأنهما لا تريان شيئا ـ لم تستطيعا أن تعثرا على يد الأخت الممدودة إليهما. وبنزع العين من جبهتها أصبحت «عفريتة الغربان» هى الأخرى فى نفس الظلام الدامس، ولم تر الطريق لأن تضع العين فى يد أى من أختيها . وهكذا، يا أصدقائى الأذكياء، ترون كيف وقعت العجائز الثلاث الطيبات فى حيرة وارتباك، فبالرغم من أن العين كانت تتلألأ كالنجمة فى الظلام وهى فى يد «عفريتة الغربان» فإن السيدات الرماديات الثلاث لم يستطعن أن يلمحن نورها، وغرقت كل منهن فى الظلام الدامس نتيجة رغبتها الجامحة فى أن تستأثر بالعين والرؤية.

وكان منظرهن وهن يتلمسن الطريق فى الظلام بحثا عن العين ، وكل منهن تلوم الأخرى، يثير الضحك، حتى أن الزئبقى لم يستطع أن يكتم ضحكه فضحك بصوت عال ثم همس فى أذن پرسيوس قائلا:

«لقد حانت فرصتك هيا أسرع أسرع قبل أن تظفر إحداهن بالعين وتضعها فى جبينها ، اهجم على هؤلاء العجائز واخطفها من يد «عفريتة الغربان».

وفى لمح البصر بينما كن يلمن بعضهن البعض قفز پرسيوس من بين فروع الشجر الكثيفة، واستحوذ على الغنيمة، وأصبح هو سيد الموقف، وتلألأت العين العجيبة فى يده ولمعت ببريق عظيم ونظرت إليه وكأنما هى تعرفه كل المعرفة، بل إنها كادت تعبر عن هذه المعرفة بغمزة من العين لولا أن ليس لها جفن ليؤدى هذا الغرض، ولم تعرف السيدات الرماديات ماذا حدث فلقد تصورت كل منهن أن العين عند أختها، ومن ثم دب الشجار بينهن مرة أخرى. ورغب پرسيوس فى ألا تستمر مضايقتهن إلى أبعد مما سارت إليه ورأى أنه من الأصوب أن يشرح الأمر لهن فقال:

«سيداتى العزيزات أرجو ألا تغضب كل منكن من أختيها فلو كان هناك من يستحق الغضب عليه فإنما أنا هو الذى يستحقه، لأنى أنا الملوم فى كل هذا، ذلك أنى أنا الذى ينعم بشرف حيازة العين البراقة العجيبة فى يدى».

فصاحت الثلاث فى نفس واحد:

«أنت، أنت، أنت عندك عيننا، ومن تكون يا هذا؟» وتملكهن خوف

شديد لسماع صوت غريب، وزاد من خوفهن أن عينهن أصبحت لدى شخص لا يعرفنه وقلن: «يا لله! ماذا نفعل يا أخوات، ماذا نفعل وقد أصبحنا كلنا فى الظلام، أعطنا عيننا. أعطنا عيننا الوحيدة الغالية. إن لديك عينين اثنتين فأعطنا عيننا التى لا نملك سواها»

وهمس الزئبقى فى أذن پرسيوس قائلا:

«قل لهن إنك على أتم استعداد لأن ترد العين إليهن إذا أرشدنك إلى مكان الحوريات اللائى عندهن الخف الطائر والجراب المسحور وطاقية الإخفاء».

وهنا التفت پرسيوس مخاطبا السيدات الرماديات ليقول: «سيداتى الطيبات العزيزات المدهشات، ليس هناك ما يدعو إلى الخوف، سترد إليكن العين سليمة صحيحة تلمع كعادتها متى تفضلتن بإرشادى إلى مكان الحوريات».

فصاحت عفريتة الغربان: «الحوريات، بالله عليكن يا أخواتى أية حوريات يعنى، إن الحور كثيرات فيما يقول الناس. منهن من خصصن بالصيد فى الغابات، ومنهن من خصصن ببطن الشجر، ومنهن من يسكن هادئات في نافورات الماء، إننا لا نعرف من أمرهن شيئا ، وما نحن إلا ثلاث نسوة بائسات عجائز يهمن على وجوههن مغرب كل شمس، ولم تكن لنا إلا عين واحدة نقتسمها ثلاثتنا وقد سرقتها أنت منا، فأعدها إلينا أيها الغريب الطيب، ردها بالله عليك إلينا».

وكان هذا الحديث يدور والسيدات الثلاث يتحسسن الظلام بأيد ممدودة يحاولن جهدهن أن يمسكن بپرسيوس ، ولكنه كان فى غاية

الحذر منهن ولم يقترب منهن بحال من الأحوال، وقال پرسيوس - (الذى علمته أمه أن يكون مهذبا دائما وفى كل الأحوال) - مخاطبا السيدات:

«أيتها السيدات المحترمات، إنى أمسك بالعين فى يدى وسأظل قابضا عليها محتفظا بها محافظا عليها حتى تقررن أن تقلن لى أين أجد هذه الحوريات، أعنى الحوريات اللائى يملكن الجراب المسحور والخف الطائر وماذا... أيضا... وطاقية الإخفاء».

فصحن وقد دهشن أيما دهشة: «رحماك يارب، عم يتحدث هذا الشاب؟ يقول : زوج من الأخفاف طائر، سيرتفع كعبه إلى أعلى من رأسه لو بلغ به السخف أن ينتعل هذا الخف، وطاقية الإخفاء ترى كيف تخفى الطاقية لابسها إلا إذا كانت كبيرة جدا بحيث يختفى تحتها، وأخيرا جراب مسحور، أى مخترع يكون هذا يا ترى، لا ، لا أيها الغريب الطيب، إننا لا نستطيع أن ندلك على شىء فى أمر هذه الأشياء العظيمة، إن لك عينين ، أما نحن فكل ما لنا عين واحدة، لنا نحن الثلاث، إنك تستطيع بعينيك أن تعثر على هذه الأشياء العجيبة أكثر مما تستطيع ثلاث مخلوقات بائسات عجائز فاقدات للنظر مثلنا».

ولما سمعهن پرسيوس يتكلمن على هذا النحو بدأ يعتقد أن العجائز الرماديات فعلا لا يعرفن شيئا عن هذا الأمر، ولقد ساءه أن يكون سببا فى إزعاجهن كل هذا الإزعاج، فكان على وشك أن يعيد إليهن العين وأن يطلب إليهن المغفرة على ما أساء من أدب، وعلى اختطافه العين، عندما أمسك الزئبقى بيده ومنعه فى عنف وهو يقول

له: «لا تدعهن يضحكن منك، إنهن الوحيدات فى العالم كله اللائى يستطعن أن يرشدنك إلى مكان الحوريات، وإذا لم تحصل على هذه المعلومات فإنك لن تستطيع بحال أن تنجز مهمة قطع رأس الميدوسا ذى الجدائل الأفعوانية، تمسك بالعين وتشبث بموقفك وسترى أن كل شىء سيسير على ما يرام».

ولقد تبين فيما بعد أن الزئبقى كان على حق فيما ذهب إليه، إنها أشياء قليلة جدا تلك التى يمكن أن نقدرها كما نقدر نعمة البصر . ولقد كانت السيدات الرماديات يقدرن هذه العين الواحدة تقديرهن لست أعين، وهى العيون التى كان يجب أن تكون لهن. ولما لم يجدن أية حيلة أخرى لاسترجاع العين من پرسيوس فقد أرشدنه آخر الأمر إلى كل ما يريد أن يعرف، وما كدن يفعلن ذلك حتى أسرع پرسيوس بكل احترام إلى وضع العين فى محجر من المحاجر الخالية فى جباههن ثم شكرهن على ظرفهن وسار عنهن مودعا، وما كاد الشاب يبتعد عنهن قليلا حتى بدأن الشجار من جديد ذلك أن پرسيوس وضع العين فى جبهة «عفريتة الغربان» وكانت قد استنفذت دورها فى الرؤية عندما بدأت متاعبهن مع پرسيوس ، فلم يكن لها الحق فى أن تعود العين إليها.

وأغلب الظن أن هؤلاء السيدات الرماديات كن قد اعتدن أن يعكرن صفو الصحبة بمثل هذا الشجار بينهن، وهذا مما يؤسف له ، لأنه قد كتب عليهن أن يتلازمن، وقد قدر لهن أن يكن دائما متلازمات لا شىء يمكن أن يفرق بينهن، والواقع، أنى كقاعدة عامة، أنصح الناس جميعا إخوة وأخوات كبارا وصغارا أن ينموا طاقة تحمل

الآخرين فى نفوسهم، وخاصة إذا حدث أنهم لا يملكون إلا عينا واحدة لهن جميعا فلا يصرون مثلا على أن ينظروا بها كلهم فى وقت واحد.

وبينما كانت العجائز مشتبكات فى شجارهن ، كان پرسيوس والزئبقى يسرعان فى طريقهما إلى الحوريات، وقد أمدتهما العجائز بالتفصيلات الوافية بحيث إنهما لم يبذلا جهدا كبيرا ولا وقتا طويلا فى سبيل الوصول إليهن. وبدت الحوريات مخلوقات تختلف كل الاختلاف عن السيدات الرماديات، فبدل أن يكن عجائز كن شابات جميلات، وبدل أن تكون لهن عين واحدة يقتسمنها كانت لكل منهن عينان براقتان نظرت بهما بكل عطف إلى پرسيوس ، وكن فيما يبدو، يعرفن الزئبقى، ولما قص عليهم المغامرة التى قام بها پرسيوس لم يترددن فى إعطائه الأشياء الثمينة التى كانت عندهن، فأخرجن أول الأمر شيئا بدا وكأنه حافظة نقود صغيرة من جلد الغزال مطرزة تطريزا فريدا، ورجونه أن يحافظ عليها كل المحافظة وكان هذا هو الجراب المسحور، ثم جاءت الحوريات بزوج من الأحذية فى كعب كل منها جناحان.

وقال الزئبقى: «ألبسهما يا پرسيوس وستجد نفسك فيما بقى لك من الرحلة أخف ما يمكن أن تكون».

وشرع پرسيوس فى لبس حذاء بينما وضع الثانى على الأرض إلى جانبه، وفجأة نشر الحذاء جناحيه ورفرف فوق الأرض وكاد يطير بعيدا لولا أن الزئبقى قفز عاليا، لحسن الحظ، وأمسك به طائرا فى الهواء.

وقال الزئبقى وهو يعطى الحذاء لپرسيوس : «كن أكثر حذرا. إنه يخيف العصافير هناك فى علاها أن ترى حذاء يطير فيما بينها».

وعندما أتم پرسيوس لبس الحذائين العجيبين أصبح خفيفا إلى حد أنه ارتفع عن الأرض، وخطوة ثم خطوتان وإذا به يقفز فى الهواء من فوق رأس الزئبقى ورءوس الحوريات حتى أصبح عسيرا عليه أن ينزل على الأرض مرة أخرى.

إن الأحذية المجنحة وكل هذه المخترعات الطائرة قلما تكون سهلة الاستعمال أول الأمر قبل أن يعتادها الإنسان، وضحك الزئبقى من حركات زميله اللا إرادية وقال له إنه يجب ألا يسرع هكذا فى تهور، إذ عليه أن ينتظر قليلا حتى ينال طاقية الإخفاء.

وكانت الطاقية المزدانة بباقة قيمة من الريش عند الحوريات اللطيفات، وكانت معدة كل الإعداد لأن يضعها پرسيوس على رأسه، ولكن حدث فجأة حادث هو أعجب من كل ما رويت لكم من أحداث إلى الآن، فلقد وقف پرسيوس قبيل أن يلبس الطاقية شابا وسيما تنسدل على رأسه خصل من الشعر ذهبية، وتتوهج بالصحة وجناته الوردية، ويتدلى إلى جانبه السيف الأعوج وتبرق على ذراعه الدرع اللامعة فبدا للعين صورة صنعت من الشجاعة والخفة والشفافية والضوء الباهر، ولكن عندما نزلت الطاقية على جبينه الناصع لم يعد يرى من پرسيوس شيئا، لقد تلاشى هواء فارغا، حتى طاقية الإخفاء اختفت هى الأخرى.

وتساءل الزئبقى: «أين أنت يا پرسيوس؟» وأجاب پرسيوس فى هدوء بالرغم من أن صوته كان يبدو آتيا من الفضاء الشفاف

الصافى قائلا: « هنا بكل تأكيد، إننى حيث كنت منذ لحظة، ألا ترانى؟».

وقال صديقه: «كلا لا أراك، ما فى ذلك شك، إنك مختف تحت طاقية الإخفاء، ولكن ما دمت لا أراك أنا فإن الوحش أيضا لن يراك، اتبعنى وسنمتحن مهارتك فى استعمال الحذاء المجنح».

ونشرت طاقية الزئبقى أثناء كلامه جناحيها وكادت تقتلع رأسه من بين كتفيه ولكن سرعان ما رفع جسمه كله بخفة فى الهواء وتبعه پرسيوس ، ولما ارتفعا بضع مئات من الأقدام بدأ الشاب يشعر بلذة لأنه استطاع أن يطير كالعصفور ولأنه ترك الأرض الكئيبة من تحته.

وزحف الليل البهيم ونظر پرسيوس إلى أعلى فرأى القمر مستديرا مضيئا براقا كالفضة، وخيل إليه أنه لا يتمنى شيئا أكثر من أن يطير إلى هذه العلياء ليقضى بقية أيامه فيها، ولكنه نظر مرة أخرى تحته فرأى الأرض ببحارها وبحيراتها وسلاسل أنهارها الفضية ، وقمم جبالها الثلجية، وانفساح مزارعها الواسعة، وامتداد غاباتها المتكاثفة، ومدنها ذات الرخام الأبيض، والقمر الذى ينشر ضوءه ويشع أحلامه فوق المنظر كله، حتى لقد بدت الأرض وكأنها فى جمالها هى القمر، أو كأنها النجم الوضاء بين النجوم، وكان من جملة ما رأى، جزيرة سريفوس حيث كانت أمه الحبيبة. وكثيرا ما كان يقترب هو والزئبقى من سحابة تبدو لهما وكأنها مصنوعة من شعر من الفضة، بالرغم من أنهما إذا غرقا فيها كانا يشعران بالبرد ويبتلان برذاذ رمادى، ولكن سفرهما كان سريعا إلى حد أنهما خرجا من السحابة إلى ضوء القمر فى أقل من غمضة عين، وفى مرة

طار نسر عاليا فى عنان السماء وكاد يخترق فى مروقه پرسيوس لأنه لم يكن يرى، وأجمل هذه المناظر كلها وأبهاها كانت مجموعة من الشهب التى تضىء فجأة وكأنما هى حريق اندلع فى السماء يجعل ضوء القمر نفسه باهتا فى دائرة من مائة ميل حولها.

وفى أثناء طيران الصديقين أحس پرسيوس أنه يسمع حفيف ملابس قريبة منه، وكان مصدر الصوت فيما يبدو إلى جانب پرسيوس أى الجانب المقابل حيث كان الزئبقى يرى رأى العين ولم يكن يرى سواه.

فسأل پرسيوس: «ملابس من هذه التى تصدر هذا الحفيف بالقرب منى فى الفضاء».

فأجابه الزئبقى: «إنها ملابس أختى، فهى ستأتى معنا كما قلت لك، إننا عاجزون عن أن نأتى أى عمل دون مساعدة أختى تلك. فأنت لا يمكن أن تتصور مدى حكمتها ، ولها عينان فى الوقت نفسه تستطيع بهما أن تراك فى هذه اللحظة بكل وضوح وكأنما أنت لست مختفيا عن الأنظار، وأستطيع أن أؤكد لك أنها هى أول من سيكتشف الوحوش».

وهنا كانا قد وصلا فى هذه الرحلة الممتعة عبر الفضاء فوق المحيط الكبير، وكانا يطيران فوقه ومن تحتهما ، وكأنما هو غور سحيق، أخذت الأمواج تتقاذف بعضها بعضا فى اضطراب وهياج فى المحيط، أو تدحرج الزبد الأبيض الفائر على طول الشاطئ ، ثم أرغت وأزبدت على سفح صخرة عاتية فى زئير كأنه الرعد فى هذا العالم السفلى، ولكن الزئير الصاخب تحول إلى همس رقيق رقة

صوت الطفل الناعس قبل أن يصل إلى آذان پرسيوس، وهنا تكلم صوت فى الفضاء بالقرب منه، وكان الصوت صوت امرأة ولم يكن الصوت مما يمكن أن ينعت بالجمال أو الحلاوة ولكنه كان هادئا وقورا:

«يا پرسيوس ، ها هى ذى الوحوش»

وصاح پرسيوس فى لهفة: «أين هى؟ إنى لا أراها» فأجابه الصوت: «على ساحل هذه الجزيرة التى ترى تحتك، أنك إذا أسقطت حصاة من يدك الآن فستنزل فى وسطهم بالضبط».

وقال الزئبقى لپرسيوس: «ألم أقل لك إنها ستكون هى أول من يكتشفها لنا، ها هى ذى الوحوش هناك».

ونظر پرسيوس تحته مباشرة، على ارتفاع يصل إلى ألفين أو ثلاثة آلاف من الأقدام، فلاحت له جزيرة صغيرة يتدفق زبد البحر على سواحلها الصخرية إلا من ناحية واحدة من نواحيها، حيث بدا الساحل مكسوا برمل أبيض بياض الثلوج وأخذ ينزل نحوها، وحدق النظر على طائفة من الأشياء اللامعة البراقة عند قدمى الهاوية المنحدرة من صخرة سوداء، ثم ماذا؟ ها هى ذى الوحوش المخيفة تغط فى النوم، ذلك أن صخب البحر وتلاطم أمواجه وقصف الرعد الذى يصم الآذان كان لازما فيما يبدو لتهدئة أعصاب هذه المخلوقات المتوحشة حتى تستسلم للنوم، وانعكس شعاع القمر على قشر السمك الذى بدا وكأنه الصلب، كما تلألأ ضوء القمر على الأجنحة الذهبية التى تراخت فى كسل على الرمال، أما المخالب النحاسية البشعة فقد كانت ممددة ممسكة ببقايا الصخور التى كانت

تتلاطم عليها الأمواج، وهكذا نامت تلك الوحوش الضارية وهى تحلم بأنها تمزق إنسانا بائسا إربا إربا. وأما الأفاعى التى كانت تشكل جدائل شعر الوحوش فقد كانت بدورها نائمة، وإن يكن بعضها يتلوى من حين لآخر ثم يخرج لسانه ويرسل فحيحا كريها ناعسا، ثم يستسلم ويستكين مع إخوته من سائر الأفاعى.

لقد كانت الوحوش أشبه ما تكون بحشرة فظيعة هائلة، أشبه بخنفس ضخم هائل أجنحته ذهبية، أو ببعض الزواحف الهائمة المروعة، أو نحو ذلك، كانت بشعة وجميلة فى الوقت نفسه، ولكنها أكبر من أية حشرة ألف مرة أو مليون مرة، ومع كل هذه البشاعة المخيفة فإن شيئا إنسانيا كان يلوح فيها، ومن حسن حظ پرسيوس أن وجوهها كانت مختفية كل الاختفاء حسب الوضع الذى كانت فيه، ذلك أنه لو كان قد نظر إليها لسقط بثقله من الهواء تمثالا فاقدا للوعى.

وهمس الزئبقى وهو يحوم حول پرسيوس: «الآن، حان الوقت لتقوم بالعمل، أسرع فلو أستيقظت واحدة منها فإن الفرصة تكون قد فاتت منا».

وسأل پرسيوس وهو يخرج سيفه من غمده ويهبط نحو الجزيرة قليلا: «أيها يجب أن أطعنها ؟ أنها ثلاثة والثلاثة تشبه بعضها بعضا شبها قويا ولثلاثتها هذه الجدائل الأفعوانية، أيها إذن هى الميدوسا؟».

ولا بد لنا من أن نذكر أن الميدوسا هى الوحش الوحيد الذى كان مطلوبا من پرسيوس أن يقطع رأسه، أما الوحشان الآخران فإنه لو

كان معه أحد سيف وأبتره لما أمكنه رغم هذا أن يلحق بأى منهما ضررا ولو استمر فى حز رقبتيهما ساعات وساعات.

وقال الصوت الهادئ الذى كان قد حادثه من قبل: «احترس! إن واحدة منها تتحرك فى نومها وهى على وشك أن تنقلب ، إنها الميدوسا نفسها فلا تنظر إليها، إنك إن نظرت تحولت حجرا أصم فى الحال، انظر إلى صورة وجهها وجسدها المنعكسة فى مرآة درعك اللامعة».

وفهم پرسيوس فى الحال إلام كان يرمى الزئبقى عندما ألح عليه أن يلمع درعه، فلقد استطاع الآن أن يرى على صفحتها وجه الوحش منعكسا فى أمانة ووضوح، ها هو ذا الوجه بكل بشاعته يبدو منعكسا على الدرع اللامعة، ونور القمر يسقط عليه فيزيده بشاعة على بشاعته، أما الأفاعى السامة المؤذية بطبيعتها فإنه لا يمكنها أن تنام أو تستكين كل الاستكانة، فهى لذلك تتلوى على الجبهة، لقد كان الوجه وحشيا مخيفا تتركز فيه بشاعة لم تر، بل لم تتصور من قبل، ومع هذا كان فيه شىء من الجمال، الجمال الشاذ الغريب المخيف الوحشى، وكانت العينان مغمضتين والوحش لا يزال فى سبات عميق، ولكن اضطرابا ما أخذ يبدو على ملامحها وكأنما كانت منزعجة من حلم مخيف، فقرضت بأنيابها البيضاء وحفرت فى الرمال نابشة بمخالبها النحاسية.

وشعرت الأفاعى فيما يبدو بما كان الميدوسا يحلم به فزاد تململها فأخذت تتشابك فى عقد مهرجلة وتتلوى فى توحش رافعة مئات الرؤوس وهى تصدر فحيحها دون أن تفتح عينيها.

وهمس الزئبقى وقد بدأ عليه القلق:

«والآن، الآن أسرع نحو الوحش» وقال الصوت الجميل الوقور الذى كان إلى جانب پرسيوس: «اهدأ وانظر فى درعك جيدا وأنت تطير هابطا واحترس ثم احترس ، حتى لا تخطئ الهدف».

وهبط پرسيوس فى حذر شديد وعيناه مركزتان على وجه الميدوسا المنعكس على صفحة درعه، وكلما اقترب منه بدا الوجه ذو الأفاعى والجسد المعدنى أشد بشاعة وأعظم نكرا، وأخيرا وجد نفسه يحوم حول الوحش على بعد ذراع منه فرفع سيفه وفى نفس الوقت رفعت كل أفعى من الأفاعى التى تغطى الرأس رأسها إلى أعلى فى تحد ظاهر، وفتح الوحش عينيه، ولكنه أفاق بعد فوات الأوان، لقد كان السيف السباق بتارا ونزلت ضربته كالبرق مسددة بدقة نحو الهدف فانفصل الرأس الشرير عن الجسد البشع.

وصاح الزئبقى: «لقد أتيت العجب، أسرع وضع الرأس فى جرابك المسحور» والمدهش حقا أن الجراب الصغير المطرز الذى كان معلقا فى رقبته والذى لم يكن أكبر حجما من كيس للنقود انتفخ فجأة وأصبح يسع رأس الميدوسا، وفى لمح البصر اختطف الرأس بكل أفاعيه التى تتلوى حوله وقذف به داخل الجراب.

وقال الصوت الهادئ: «لقد أنجزت المهمة والآن طر بسرعة لأن الوحوش الأخرى ستقوم بكل ما فى وسعها للانتقام لموت الميدوسا».

إن الهرب السريع فعلا كان ضرورة قصوى، ذلك أن پرسيوس لم يتم العمل فى هدوء كما يبدو، لأن حركة السيف وفحيح الأفاعى وسقوط رأس الميدوسا على الرمال، كل ذلك كان كفيلا بأن يوقظ

سائر الوحوش، لقد أخذتا تفرك عينيها لحظة بمخالبها النحاسية فى كسل، بينما رفعت الأفاعى رؤوسها فى دهشة تحاول أن ترد شرا لا تدرى ماذا هو وتتحسس ما حولها فى خبث يقطر السم الزعاف.

وعندما رأت الوحوش جسد الميدوسا دون رأس، وأجنحتها الذهبية نصف المطوية ملقاة فى اضطراب على الرمال، صرخت صراخا طبق الآفاق ، وكان صوتها مزعجا إلى أبعد حد وهى تصيح وتعول ، أما الأفاعى فقد أصدرت مئات الأصوات دفعة واحدة وإذا أفاعى الميدوسا ترد عليها من داخل الجراب المسحور.

وما أفاقت الوحوش نهائيا من نومها حتى انطلقت طائرة فى الفضاء ملوحة بمخالبها النحاسية قارضة على أنيابها البشعة ضاربة بشدة بأجنحتها الضخمة حتى تساقط بعض ريشها الذهبى من عنف الضرب وسقط على الشاطئ ، وقد يكون بعض هذا الريش الذهبى لا يزال مبعثرا هناك إلى يومنا هذا، لقد هبت الوحوش كما قلت لكم وأخذت تحدق النظر فيما حولها مؤملة أن تحول مخلوقا حيا إلى حجر جامد، ولو كان پرسيوس نظر إلى وجهها أو وقع بين مخالبها لاستحال على أمه أن تقبله مرة أخرى، لقد حرص أن يدير عينيه وجهة أخرى، ولما كان لابسا طاقية الإخفاء فإن الوحوش لم تدر فى أى اتجاه تتعقبه، ولم يدخر پرسيوس وسعا فى أن يستخدم الحذاء المجنح فطار بسرعة ميلا أو أكثر إلى أعلى، ومن هذا العلو الذى لا يكاد يسمع منه صرخات هذه المخلوقات البشعة إلا قليلا اتخذ طريقا مستقيما نحو الجزيرة، جزيرة سريفوس ، ليقدم رأس الميدوسا إلى ملكها پوليدكتيس.

ولكم صادف پرسيوس فى رحلة العودة إلى وطنه من طرائف وعجائب، ولكن وقتى لا يتسع لأن أقص عليكم أخبارها كلها. فلقد قتل وحشا ضاريا من وحوش البحر كان على وشك أن يلتهم صبية جميلة. وحول غولا مروعا إلى جبل من الصخر بمجرد أن أراه رأس الميدوسا، وإذا كنتم تشكون فى صحة هذا الخبر الأخير فما عليكم إلا أن تزوروا أفريقيا لتروا هذا الجبل الصخرى الذى لا يزال يحمل اسم هذا الغول العملاق العتيد.

وأخيرا وصل پرسيوس الشجاع إلى وطنه حيث توقع أن يقابل أمه الحبيبة، ولكن الملك الشرير الجبار أثناء غيابه فى رحلته كان قد أساء إلى الأم الحبيبة «دانيا» حتى اضطرت إلى أن تلجأ إلى معبد قديم أحسن سدنته الطاعنون فى السن معاملتها.

ولعل سدنة هذا المعبد والصياد ذا القلب الرحيم الذى عطف على دانيا وپرسيوس الصغير يوم وجدهما فى الصندوق العائم هم فيما يبدو الوحيدون الأخيار الذين يعملون بالحق فى هذه الجزيرة كلها، أما سائر سكان الجزيرة ، والملك على رأسهم، فقد كانوا أشرارا يعاملون الناس بالباطل إلى حد أنهم يستحقون فعلا ما قد قدر لهم أن يلاقوه مما سأحدثكم بخبره الآن.

ولقد توجه پرسيوس إلى القصر مباشرة لما لم يجد أمه فى البيت، ودخل على الملك، ولم يسر الملك أبدا لرؤيته، فقد كان يقدر فى عقله المفعم بالشر أن الوحوش لا شك ستقطع الشاب المسكين إربا وتفترسه افتراسا فلا يعترض طريقه بعد اليوم، أما وقد رآه الآن أمامه عائدا بالسلامة فقد اضطر على كل حال أن يظهر له أنه

منشرح كما اضطر إلى أن يسأله كيف نجح فى هذه المهمة.

وسأله الملك: «هل أنجزت ما وعدت به؟ وهل أحضرت رأس الميدوسا الأفعواني؟ إذا كنت لم تفعل فإنك ستدفع الثمن غاليا جدا، لأنى لا بد أن أحصل على هدية العرس التى سأقدمها للأميرة هيوداميا الجميلة، ولا شيء سيحوز رضاها مثل رأس الميدوسا».

فأجابه پرسيوس فى هدوء، وكأن ما أتاه ليس عملا خارقا بالنسبة لشاب مثله: «نعم لقد أحضرت رأس الوحش بجدائله الأفعوانية، وكل ما طلبت أنجزت».

فقال الملك: «أرنى الرأس فإنى أقدر أنه منظر عجيب حقا إذا صدق الرحالة فيما قالوه عنه».

فأجابه پرسيوس: «إنك لعلى صواب يا صاحب الجلالة، إذ إنه من المؤكد أن من يثبت نظره على رأس الميدوسا لن يرفع بصره عنه قط، وإنى لأقترح إذا وجدتم جلالتكم ذلك مناسبا، أن تعلنوا عن يوم عطلة عامة وتدعوا فيه الرعية كلها لرؤية هذه الأعجوبة، ذلك أن قليلا منهم من رأى رأس وحش قبل اليوم، وأكبر ظنى أنه لن يرى غير هذا الرأس فى حياته».

وكان الملك يعلم حق العلم أن شعبه إن هو إلا شرذمة من الأفاقين الأشرار الولوعين بمشاهدة مثل هذه المناظر على عادة العاطلين الذين لا عمل لهم فى الحياة، فعمل الملك بنصيحة الشاب وأرسل رسله والمنادين فى أنحاء الجزيرة كلها يقفون فى مفارق الطرق ويطلقون المزمار بأعلى صوته منادين الناس ليأتوا إلى ساحة القصر، ولهذا جاء عدد ضخم من هؤلاء الأفاقين الذين ما كانوا

يتمنون شيئا، لسوء طويتهم، إلا أن يروا پرسيوس مصابا بالضر عندما يلاقى الميدوسا، فإذا كان فى الجزيرة قوم هم خير من هؤلاء - وأرجو أن يكون فى الجزيرة بعض منهم على الأقل - فإنهم مكثوا فى بيوتهم مشغولين بشئونهم يراعون أبناءهم ويعنون بهم.

أما كثرة السكان فقد كانت فى أغلب الأحيان تهرع بأقصى سرعة إلى القصر ، وها هى ذى اليوم تدفع بعضها بعضا حتى يصلوا إلى أقرب مكان من الشرفة حيث وقف پرسيوس وبيده محفظة النقود المطرزة.

وعلى منصة عالية على مرأى من الشرفة جلس الملك الجبار پوليدكتيس بين مستشاريه الأشرار والندماء المتملقين وهم حوله فى نصف دائرة، وركز الجميع أنظارهم يحملقون فى پرسيوس، والملك والمستشارين والندماء والشعب.

وصاح الجمهور: «أرنا الرأس، أرنا الرأس» وفى صراخهم قسوة ووحشية وكأنما هو يريدون أن يمزقوا پرسيوس ويقطعوه إربا إذا ما امتنع عن أن يريهم ما يريدون أن يروا، ومرة أخرى صاحوا: «نريد أن نرى رأس الميدوسا وجدائله الأفعوانية».

وانتاب الشاب پرسيوس شعور بالألم وبالشفقة وقال: «أيها الملك، أيها الشعب الكبير، إنى متردد فى أن أريكم رأس الوحش».

وصاح الشعب فى توحش يفوق الوصف: «أيها الشقى الجبان! إنه ليضحك منا وليس معه رأس وحش، أرنا الرأس إذا كان معك، وإلا فإنا سنلعب الكرة برأسك أنت».

وهمس مستشارو الملك الأشرار فى أذنه بنصائح خبيثة، ودمدموا

برأيهم الذى اتفقوا عليه، وهو أن پرسيوس قد أظهر بعمله هذا عدم الاحترام لصاحب الجلالة سيدهم ولوح الملك العظيم بيده وأمره بصوت حازم وقور عميق أن يظهر الرأس وإلا تعرض للخطر كل الخطر ، قال الملك:

«أرنى الرأس وإلا قطعت رأسك أنت»

وتنهد پرسيوس، وكرر الملك:

«أرنى إياه فى الحال وإلا قتلت»

وصاح پرسيوس صيحة كهبة النفير:

«انظر إليه إذن»

ورفع الرأس فى الهواء فجأة، وفى طرفة عين تحول الملك پوليدكتيس الشرير ومستشاروه المجرمون والرعية المتوحشة إلى تماثيل من الحجر الصلد، وتسمر الجميع فى مكانهم فى نفس الوضع وبنفس النظرة التى كانوا عليها فى هذه اللحظة، لقد انقلبوا إلى رخام أبيض من أول نظرة إلى رأس الميدوسا الفظيع. وألقى پرسيوس بالرأس فى الجراب، وذهب إلى أمه الحبيبة ليطمئنها وليؤكد لها أنها لن تخشى شيئا من الملك الشرير بعد اليوم».

عتبة تانجلوود
(ما بعد قصة رأس الوحش)

وسألهم يوستيس: «ألم تكن هذه قصة مدهشة؟ » فصاحت زهرة الفتنة وهى تصفق بيديها: «نعم..نعم وهؤلاء النسوة المضحكات ذوات العين الواحدة إنى لم أسمع بشىء أعجب من هذا».

ثم قالت زهرة الربيع: « أما السن الواحدة لو تبادلنها لما كان هناك من عجب فى أمرها، ذلك أنها يمكن أن تكون سنا صناعية، ولكن تأمل فى تحويلك المريخ فى الأسطورة إلى رجل اسمه الزئبقى، ثم إنك تتحدث عن أخت له، إنك فى هذا مضحك للغاية».

وتساءل يوستيس برايت: « ولم؟ ألم تكن شقيقته؟ إنى لو أسعفنى التفكير لجعلتها تتخذ من اليوم لعبة لها».

فقالت زهرة الربيع: «على كل حال يبدو أن قصتك قد أفلحت فى أن تبدد الضباب».

وبالفعل كان الغمام ينقشع من على مناظر الطبيعة كلما تقدمت

بهم القصة، وبدا للناظر الآن منظر طبيعي خلاب كأنما هو قد خلق من جديد فجأة بعد آخر نظرة لهم ألقوها على الطبيعة من حولهم، فعلى بعد نصف ميل وفى حضن الوادى ظهرت بحيرة جميلة انعكست على صفحتها الغابة المحيطة بشواطئها ، ومن خلفها أطراف التلال من بعيد، ولمعت البحيرة فى سكون وصفاء وكأنما صفحتها من زجاج رائق فلم يكن أثر للنسيم فى أى مكان على صدرها الهادئ، ومن وراء أبعد نقطة من شواطئها تراءى جبل «مونمونت» وكأنما هو مضطجع باسط أطرافه الممددة عبر الوادى كله، وقد شبهه يوستيس برايت بأبى هول ضخم لا رأس له، وكأنما قد لف نفسه فى شال إيرانى، ولقد كانت أوراق الخريف فعلا كثيفة منوعة فى الغابة بحيث إن تشبيهها بالشال المزركش لم يكن يعدو الحقيقة، وفى المنخفض بين «تانجلوود» والبحيرة كانت مجموعات الأشجار وأطراف الغابة ذات أوراق ذهبية أو بنية قاتمة لأنها تعرضت للصقيع أكثر مما تعرضت له أوراق الأشجار التى كانت على الشجر على جانبى التلال.

ومن على هذا المنظر الجميل كله أطلت الشمس ساطعة بضوئها الطبيعى ممتزجة ببقايا الضباب الخفيف المنقشع فأضافت إليه رقة وحنانا يعجز القلم عن وصفهما . يالله! ما أجمل هذا اليوم، وكأنه يوم صيف هندى، واختطف الأولاد سلالهم وبدأت الرحلة، ووثبة هنا وقفزة هناك ملؤها البشر والفرح بينما أظهر ابن العم يوستيس كفاءته مستعرضا عدة قفزات جديدة يصعب على الباقين أن يقلدوه فيها، وسار خلف الركب كله كلب عجوز اسمه «بن» كان من أطيب

ما عرف من ذوات الأربع وأحقها بالتقدير، فلقد شعر، فى أغلب الظن، أن من واجبه ألا يترك الأطفال يذهبون بعيدا عن ذويهم دون حارس أعقل وأدعى للثقة من هذا الشاب الأهوج الطائش الذى يدعى يوستيس برايت.

الجدول الظليل
(مقدمة قصة اللمسة الذهبية)

فى واد يجرى فى أعماقه جدول صغير اجتمعت ساعة الظهيرة طائفة من الشباب، وكان الوادى ضيقا، وكان جانباه شديدى الانحدار. والجانبان من حافة الجدول إلى قمة التل مليئان بالأشجار الكثيفة، أشجار أغلبها من الجوز والكستنة وقليل من شجر البلوط والحور، وفى الصيف كان ظل هذه الأغصان المتشابكة المتقابلة المتداخلة فوق الجدول عميقا إلى حد أنه يقلب ضوء الظهر إلى غسق ما قبل الغروب، ومن هنا سمى الجدول «بالجدول الظليل» أما الآن وقد تسلل الخريف إلى هذا المكان النائى المنعزل فقد استحالت الخضرة الداكنة إلى لون الذهب، حتى أنها فى الواقع أشعلت الوادى نورا بدل أن تظلله، وكانت أوراق الشجر الصفراء المضيئة تختزن ضوء الشمس فيما بينها حتى فى اليوم الغائم، وقد تساقط من هذه الأوراق الذهبية عدد يكفى لأن يثير الجدول وجانبيه بأشعة

الشمس ، وعلى ذلك أصبح الركن الذى كان يستظل فيه الصيف نفسه هو أغنى البقا ع بضوء الشمس وبنورها.

وجرى الجدول فى طريقه المذهب وقد توقف قليلا هنا حيث كون بركة صغيرة تثب فيها الأسماك الصغيرة غادية رائحة، ثم أسر ع النهر قدما وقد ضاعف من سرعته لأنه كان متعجلا أن يصل إلى البحيرة، لكن النهر نسى فى أى اتجاه هو ذاهب، فوقع فوق جذ ع شجرة اعترضت مجراه، ولا شك أنك ستضحك لو أنك سمعت الضوضاء التى ترتبت على هذا الحادث ، حتى أن الجدول بعد أن سار إلى الأمام ظل يحدث نفسه وكأنما هو فى دهشة مما حدث له، وأغلب الظن أن الجدول تعجب كل العجب عندما وجد واديه المظلم مضاء بكل هذا النور وازداد عجبه عندما سمع صخب الأطفال وفرحهم، وعلى ذلك تسلل فى أقصى سرعة ليختبئ فى البحيرة.

وفى وادى الجدول الظليل أكل يوستيس وأصدقاؤه طعامهم، فلقد حملوا معهم من الغذاء الطيب من «تانجلوود» فى سلالهم ووضعوه فوق جذوع الشجر المغطى بالطحالب، وبذلك هيأوا لأنفسهم وليمة طيبة حقا، وبعد أن انتهت الوليمة لم يبد أحد منهم أية رغبة فى أن ينتقل من مكانه.

وقالت طائفة منهم: «سنستريح هنا بينما يقص علينا ابن العم يوستيس قصة أخرى من قصصه الرائعة».

وكان من حق يوستيس أن يشكو التعب مثل الصغار، لأنه قام بأعمال خطيرة عصر هذا اليوم المشهود ، وكان الهندباء البرى والبرسيم، وزهرة الفتنة، وشقائق النعمان، كلهم شبه متأكدين أن

يوستيس يملك حذاء مجنحا كهذا الحذاء الذى أعطته الحوريات لپرسيوس، إذ إنه كثيرا ما ظهر هذا الطالب العجيب فجأة فوق أطراف شجرة الجوز واللوز كان يقذف به على رؤوسهم فتنهمك أيديهم الصغيرة فى جمعه فى سلالهم ، إنه باختصار كان نشطا كالسنجاب أو كالقرد ولكنه الآن تمدد فوق الأوراق الصفراء وهو فيما يبدو يطمع فى قليل من الراحة.

ولكن الأطفال لا يعرفون الرحمة وهم لا يبالون بتعب أحد. فإذا كان قد تبقى لك فى الحياة نفس واحد لأبوا عليك إلا أن تنفقه فى أن تقص عليهم قصة.

وسألت زهرة الفتنة: « يا ابن العم يوستيس أن قصة رأس الوحش كانت مدهشة ولكن هل تظن أنه يمكنك أن تقص علينا قصة أخرى مثلها؟».

فأجابها وهو يشد من طرف قبعته على عينيه وكأنما هو يستعد لأن يغفو غفوة طويلة: «نعم أيتها الصغيرة أستطيع أن أقص عليك عشرا مثلها لو أردت»

وصاحت زهرة الفتنة وهى ترقص فرحا:«ألا تسمعون ما يقول؟ يا زهرة الربيع، يا زهرة الفجر، إن ابن العم سيقص علينا عشر قصص أحسن من قصة رأس الوحش».

وقال يوستيس وقد بدا عليه ما يشبه الغضب: «ولكنى لم أعدك ولا بواحدة يا حمقاء، وإن كنت أظن أنك ستحظين بها. إن هذا هو ثمن السمعة الطيبة والذكر الحسن، كم كنت أود أن أكود أبرد طبعا! فلو أنى لم أظهر نصف صفاتى الباهرة التى وهبتها لى الطبيعة

لكان يمكننى أن أحصل الآن على هدأة أغفو فيها».

لقد أشرت فيما أظن إلى أن يوستيس كان ولوعا بقص قصصه بقدر ما كان الصغار مشغوفين بسماعها، وكان ذهنه حرا مرحا يسعده أن يكون نشطا وقلما كان يحتاج إلى باعث خارجي يدفعه إلى العمل.

كم ذا يختلف هذا النشاط الحى التلقائى عن النشاط الناضج المتمرس الذى تنضجه السنون الطويلة فيما بعد، إن طول الاعتياد يحيل الكد الشاق سهلا فيصبح عمل اليوم وكأنما هو ضرورى للإحساس بالراحة والاطمئنان فى الحياة، ولكن كم ذا يفقد النشاط من نضارته وحيويته فى عملية المران تلك، وعلى كل حال ليست هذه الملاحظة مما يراد للأطفال أن يسمعوه.

ودون إلحاف آخر من الأطفال بدأ يوستيس برايت يقص هذه القصة الرائعة، لقد جالت بخاطره وهو يتمعن فى الشجر مصعدا بصره إلى أعالى فروعها وأوراقها وظلالها، ملاحظا كيف أحالت لمسة الخريف كل هذه الأوراق الخضراء إلى ما يشبه الذهب الخالص، إن هذا التحول الذى شهدناه كلنا كان رائعا وإن روعته سوف تذكرنا بكثير مما سيقص علينا يوستيس فى شأن «ميداس».

اللمسة الذهبية

في قديم الزمان وسالف العصر والأوان عاش رجل ثرى ثراء فاحشا اسمه «ميداس» وكان هذا الرجل إلى جانب ثرائه ملكا. وكان للملك ابنة لم يرها أحد غيرى، أما اسمها فإنى لا أذكره، أو لعلى لم أسمع به مطلقا، ولما كنت أحب الأسماء العجيبة للبنات الصغيرات عادة فإنى أختار لها اسم «ماريجولد» أى «مارى الذهبية».

وكان الملك ميداس لا يعدل بالذهب شيئا فى الحياة، حتى أن أهم ما كان يقدره فى تاجه الملكى هو كونه مصنوعا من هذا المعدن الثمين، وإذا كان قد أحب شيئا أكثر من الذهب أو تقريبا كحبه للذهب فإنه كان يحب الفتاة الصغيرة التى كانت تلعب فى مرح حول مسند قدميه، وكلما زاد حب ميداس لابنته، زاد حرصه على السعى وراء الثراء، وظن المجنون أن أفضل ما يمكن أن يقوم به لابنته هو أن يترك لها أكبر قدر أمكن تكديسه منذ خلق الدنيا من النقود

الصفراء البراقة، وبناء على ذلك حصر ذهنه وكرس كل وقته وجهده لهذا الغرض الوحيد. فإذا ما رأى سحب الغروب الذهبية تمنى لو أنها كانت ذهبا حقيقيا يستطيع أن يعصره أو يخزنه فى صندوق متين، وإذا جرت «ماريجولد» نحوه وفى يدها باقة من الزهور الصفراء قال لها «يالله ! يا صغيرتى لو كانت هذه الأزهار من الذهب الحق لاستحقت أن تقطفيها».

ومع ذلك فإن الملك ميداس قبل أن يبتلى بهذه الرغبة الجامحة كان ذوقه سليما، وكان يحب الأزهار، وكان قد زرع بستانا ملأه بالورود النادرة التى كانت أكبر ورود رآها إنسان وأزكاها عبيرا وأجملها منظرا، وما زالت هذه الورود تنمو فى بستانه كبيرة رائعة زكية الرائحة كما كانت أيام كان الملك ميداس يمضى الساعات الطويلة ناظرا إليها ليحسب بكم كان يمكن أن تقدر لو أن كل ورقة من أوراق أزهارها ، التى لا تحصى ولا تعد، أصبحت رقائق من الذهب الخالص، ولقد كان مغرما فى وقت ما بالموسيقى، بالرغم من القصة المسلية التى تقال عن أذنيه اللتين تشبهان ، فيما يروى، أذنى حمار، ولكنه اليوم أصبح لا يطرب لأية موسيقى إلا رنين القطع النقدية وهى ترتطم بعضها بالبعض.

وبما أن الناس عادة يزدادون حماقة إذا لم يحاولوا أن يزدادوا عقلا فقد وصل الملك ميداس فى هوسه هذا بالذهب إلى درجة غير معقولة، فأصبح لا يكاد يطيق أن يلمس شيئا ليس من الذهب، ولهذا كون لنفسه هذه العادة وهى أن يمضى جزءا كبيرا من كل يوم، فى مكان مظلم موحش هو غرفة فى قاع القصر، حيث كان يخزن ثروته،

وكان ينزل إلى هذا الجحر المظلم الذى يكاد يكون سجنا كلما أراد أن يمارس السعادة على النحو الشاذ الذى يروق له، وهناك بعد أن يغلق الباب فى حرص كان يخرج كيسا مليئا بالذهب أو كأسا من الذهب فى حجم الطاسة، أو عمودا ثقيلا من الذهب، أو كيلا من مكاييل تراب الذهب، يخرج هذه ويأخذها من زوايا الغرفة المظلمة إلى نافذة حيث كان ينساب شعاع الشمس الرفيع الساطع، وكان هذا الشعاع عنده لا يساوى شيئا إلا لأنه الوسيلة التى تجعل ذهبه يلمع، ثم يمضى يحصى النقود فى الجراب ويقذف العمود الذهبى إلى أعلى ثم يتلقفه بيده وهو يهبط، ثم يمرر تراب الذهب بين أصابعه، ويتأمل صورة وجهه المنعكسة على صفحة الطاسة المصقولة، ثم يهمس لنفسه: «يا ميداس الثرى لكم أنت إنسان سعيد». وكان من المضحك أن تتأمل صورة وجهه المنعكسة على الطاسة اللامعة وكأنما الوجه يتجهم له لأنه يشعر بالحمق فى تصرفاته الخرفاء أو كأنه يسخر منه.

وكان ميداس يسمى نفسه سعيدا ولكنه كان يشعر أنه ليس سعيدا بالقدر الذى يتمناه لنفسه، ذلك أنه لن يصل إلى أوج السعادة فى رأيه إلا إذا انقلب العالم كله إلى غرفة كنوز له، وامتلأ العالم من أجله بالذهب الأصفر الرنان.

والآن لا أظن أنى بحاجة لأن أوكد لأمثالكم من الصغار الأذكياء أنه فى قديم الزمان أيام كان يعيش الملك ميداس كانت هناك أحداث تحدث نعتبرها عجيبة لو أنها حدثت فى بلدنا هذا وفى أيامنا هذه، وكذلك نجد من جهة أخرى أن كثيرا من الأحداث التى تحدث فى

أيامنا هذه لا تبدو لنا نحن عجيبة فحسب، بل إنه لو رآها أهل العصور الخالية لحملقوا بأعينهم دهشة منها هم أيضا، ولكنى على كل حال أعتبر زماننا أعجب الأزمنة طرا ومهما يكن فإنى مضطر لأن أمضى فى القصة.

ففى يوم من الأيام بينما كان ميداس سعيدا فى غرفة كنوزه رأى ظلا يقع فوق أكوام الذهب، فنظر فجأة إلى أعلى وإذا به يرى شبح شخص غريب واقفا فى شريط شعاع الشمس الضيق.

وكان الشبح شابا صغيرا ذا وجه مرح يميل إلى الاحمرار. وسواء أكان خيال الملك هو الذى يضفى صبغة من الصفرة على كل شىء أم أنه لسبب آخر فإن الملك لم يسعه إلا أن يتصور أن الابتسامة التى قابله بها الشاب كان عليها ضوء أصفر براق، ومع أن جسم الشاب اعترض شعاع الشمس فإن ميداس رأى أن أكوام الكنوز برقت ببريق أقوى من أى وقت مضى، وحتى أقصى ركن من أركان الكنز ناله شىء من هذا الشعاع الجديد فأنارته ابتسامة الغريب وكأنما ابتسامته ذوائب اللهب أو وهج النار.

ولما كان ميداس واثقا من أنه قد أغلق قفل الباب بغاية الحذر، وأنه لا يمكن لأية قوة بشرية أن تكسر الباب وتدخل عليه غرفة الكنوز، فقد استنتج أن هذا الزائر لا بد أن يكون إنسانا خارقا غير عادى، وليس من العسير على أن أقول لكم من هو، لأنه عندما كانت هذه الأرض حديثة عهد بالوجود كانت مرتعا لمخلوقات موهوبة بقوى سحرية خارقة، وكانت هذه المخلوقات تشغل وقتها بالتدخل بالحزن أو بالفرح فى حياة الرجال والنساء والأطفال وهى فى ذلك هازلة أو

جادة حسبما اتفق، وكان ميداس قد قابل مثل هذه المخلوقات من قبل، ولم يكن يزعجه فى شيء أن يقابل واحدا منها مرة أخرى، وكان مظهر الغريب ظريفا طيبا وإن لم يكن حانيا رقيقا، فلم يكن من الجائز عقلا أن يظن به شر، بل إن المرجح أنه كان قد أتى ليقدم خدمة ويسدى معروفا لميداس. وماذا يمكن أن تكون الخدمات عند ميداس إلا أن تكون مضاعفة لأكوام الذهب التى يملكها.

وأجال الغريب بصره فى أطراف الغرفة، وعندما تألق بريق ابتسامته فوق كل ما هو ذهبى من محتوياتها التفت نحو ميداس مبديا هذه الملاحظة: «إنك رجل ثرى، أيها الصديق، ولا أظن أن هناك أربعة جدران أخرى على هذه الأرض يمكن أن تحوى من الذهب ما أفلحت أنت فى تكديسه فى هذه الغرفة».

فأجاب ميداس بصوت ينم على عدم الرضا: «حسنا فعلت، حسنا فعلت! وعلى كل حال فإن هذا كله يعد تافها إذا قدرت أنى أنفقت عمرى كله لأجمعه، إنه إذا استطاع الإنسان أن يعيش ألف عام فقد يمكن أن يصبح غنيا إذا أحسن إنفاق هذه الأعوام الألف فى جمع الثراء».

وتعجب الغريب قائلا: «ماذا... ألست قانعا بما لديك؟ » فهز ميداس رأسه نافيا.

وسأله الغريب : «بالله قل لى ماذا يرضيك إذن؟ أنه ليسرنى أن أعرف ولو من قبيل حب الاستطلاع».

وتمهل ميداس وأخذ يفكر. لقد شعر شعورا خفيا أن هذا الغريب، بابتسامته المرحة التى تتألق كالذهب قد جاء إليه وهو

مصمم أن يحقق له أقصى رغباته، وأنه يملك من القوة ما يجعله يستطيع ذلك، وإذن فلقد حانت الساعة السعيدة التى يمكنه فيها أن يحظى بكل ما يخطر له على بال، سواء أكان هذا مما يمكن أو مما لا يمكن تحقيقه، فالغريب قادر على كل شىء مستعد لأى شىء، وأخذ ميداس يفكر ويفكر ويفكر، وهو يرى فى مخيلته أنه يجمع أكواما بل جبالا من الذهب بعضها فوق بعض، ومع ذلك يرى أن هذا كله ليس كافيا، وأخيرا خطرت له فكرة خلابة ولمعت الفكرة فى ذهنه ببريق ذهبى لامع كهذا البريق الذى شغف به حبا.

ورفع رأسه ونظر إلى وجه الغريب، وقال الزائر العجيب: «نعم يا ميداس لقد وصلت فيما أرى إلى ما يرضيك قل لى إذن ما هى أمنيتك».

وأجاب ميداس: «إنها أمنية واحدة ليس غير، لقد تعبت من جمع الكنوز وبذل قصارى الجهد فى أن أكوم الذهب وكلما نظرت إلى ما جمعت وجدت الكوم صغيرا للغاية بعد كل ما بذلت من تعب، لذلك فإنى أتمنى أن يتحول كل شىء ألمسه إلى ذهب خالص».

وأخذت ابتسامة الغريب تعرض حتى بدت وكأنها غمرت الغرفة كلها، وكما تضىء دفقة الشمس المشعة الوادى الظليل حيث ترقد أوراق الخريف الصفراء منثورة مبعثرة مثل كتل الذهب وذراته فى هذه الغرفة فكذلك أضاءت هذه الابتسامة كل ما وقع فى طريق لألأتها وبريقها.

وصاح الزائر متعجبا: «اللمسة الذهبية إنك لتستحق عن جدارة يا أيها الصديق ميداس ، كل التهنئة لوصولك إلى هذه الفكرة

الخلابة، ولكنى أسألك أحقا أنت واثق من أنك ستقنع بهذا؟».
فقال ميداس: «وكيف يمكن ألا يقنعنى هذا؟».
وسأله الغريب: «أواثق أنت أنك لن تندم أبدا على هذه الهبة إذا وهبتها؟».
وتساءل ميداس: « وماذا يمكن أن يجعلنى أندم؟، إننى لا أطلب أكثر من هذا لأسعد كل السعادة».
وأجابه الغريب: « إذن كما تريد». ثم أضاف وهو يلوح له بيده مودعا«ستجد نفسك منذ فجر الغد تنعم بهذه اللمسة الذهبية».
وأخذ جسم الغريب يلمع لمعانا شديدا حتى اضطر ميداس أن يغمض عينيه دون أن يريد أغماضهما وعندما فتح عينيه مرة أخرى لم ير إلا شريطا واحدا من شعاع الشمس وبريق المعدن الثمين الذى انتشر حوله والذى أمضى حياته فى جمعه.
والقصة فى الواقع لا تذكر شيئا عن نوم الملك هذه الليلة.
أنام كالعادة أم لم ينم أصلا، وسواء أظل نائما أم يقظا فإن عقله كان فى حالة شبيهة بحال عقل الطفل الذى وعد شيئا جميلا جديدا فى الغد، وعلى كل حال ما كاد الفجر يتنفس فوق التلال حتى كان الملك ميداس قد استيقظ كل اليقظة مادا ذراعه خارج الفراش مجربا لمس كل ما استطاع أن تصل إليه يده، لقد كان حريصا على أن يعرف هل تحققت فعلا أمنيته، اللمسة الذهبية، التى وعده بها الغريب أمس، وعلى ذلك فقد لمس كرسيا مجاورا للفراش ، ثم وضع يده على أشياء أخرى ولما لم يتحول شىء منها إلى ذهب وإنما ظل على حاله وكما هو فقد أصابته خيبة أمل أليمة، لقد خاف خوفا شديدا أن

تكون قصة هذا الزائر الباهر إن هى إلا أضغاث أحلام، أو أن يكون الزائر يسخر منه ، ألا ما أتعس الحال لو أن الأمر كذلك، إن هذا معناه أن ميداس بعد كل هذه الآمال العريضة لا بد أن يقنع بهذا القدر القليل من الذهب الذى يمكن أن يحصل عليه بالوسائل العادية، بدلا من أن يخلق الذهب قدر ما يشاء ووقتما يشاء.

لقد حدث كل هذا والصبح لم ينبلج بعد، لقد كان الجو رماديا مغبرا ولم يلح من الشمس إلا شريط رفيع هناك فى أقصى الأفق حيث لم يصل نظر ميداس بعد، ومكث الملك على حال من اليأس والأسى لا يجدى فيهما أى عزاء وهو يجتر ندمه وأسفه على انهيار آماله، وأخذ حزنه يزداد ويزداد إلى أن دخل النافذة أول شعاع للشمس وكأنما هو حزام يلتف على خصر السقف فوق رأسه، وبدا لميداس أن هذا الشعاع البراق الأصفر انعكس بشكل فريد على ملاءة السرير البيضاء، وبإمعان النظر اكتشف الحقيقة التى أثارت عجبه وابتهاجه فى نفس الوقت، اكتشف أن هذه الملاءة الكتانية قد تحولت إلى شىء يشبه النسيج المصنوع من أخلص الذهب وأسطعه بريقا، لقد توصل إلى اللمسة الذهبية فلقد حلت هبتها مع أول شعاع لشمس الصباح.

وقفز ميداس فى انفعال مرح، وأخذ يعدو فى الغرفة ممسكا كل شىء يصادفه، لقد أمسك عمودا من أعمدة السرير فتحول فى الحال إلى ماسورة طويلة من الذهب، وأزاح الستائر من على النافذة ليتمكن من رؤية هذه العجائب التى يقوم بها، وفى الحال ثقل وزن الستائر وتحولت فى يده إلى كتلة من الذهب، وأمسك بكتاب على

الطاولة وفى الحال تحول إلى شىء يشبه الكتاب المجلد بجلدة ذهبية مما يصادفنا فى هذه الأيام، ولكن بمجرد أن حاول أن يقلب الصفحات بيده إذا بها فجأة تتحول إلى رقائق من الذهب ابتلعت الكلام الحكيم الذى كان مكتوبا عليها ولم يعد قابلا لأن يقرأ، وأسرع بارتداء ملابسه وغمرته الفرحة عندما تأمل نفسه فإذا هو يرفل فى حلة باهرة من القماش المذهب الذى احتفظ بشىء من نعومته وقابليته لأن ينثنى وأن يكن قد أرهق أكتافه بالوزن الثقيل، وأخرج منديله الذى ثنت له أطرافه ابنته الحبيبة ماريجولد فتحول هو أيضا إلى ذهب، وغرز الابنة العزيزة بارزة فيه وكأنما هى قد خيطت بخيط من الذهب.

ولأمر ما لم يسر ميداس كثيرا بتحول المنديل إلى ذهب فلقد كان يفضل أن يحتفظ بصنع يدى ابنته على حاله يوم صعدت إلى حجره ووضعت بنفسها المنديل فى يده.

ولكن لم يكن هذا الأمر الأخير يستحق أن يشغل باله، وإنها على كل حال لمسألة تافهة، وأخرج ميداس نظارته من جيبه وركبها على أنفه بحيث يرى بوضوح ما يدور حوله، وفى هذه الأيام السحيقة فى القدم لم تكن النظارات قد وصلت إلى عامة الناس، وإنما هم الملوك وحدهم الذين يحملونها، وإلا كيف كان يمكن لميداس لو أنه ليس ملكا أن يحصل على نظارة، ولكنه وجد نفسه فى حيرة من أمره، ذلك أن زجاج النظارة وهو من الزجاج الممتاز أصبح لا يكشف له عن شىء، ومع هذا فإن ما وقع هو الأمر الطبيعى المنتظر ، ذلك أنه لما أمسك بالنظارة تحول البللور الشفاف فى الحال إلى رقائق من

الذهب الثمين، وبدا لميداس أن الأمر ليس على ما يرام ، إذ إن معنى ذلك أنه بكل ما عنده من ثراء فإنه لن يكون ثريا ثراء كافيا يسمح له بأن يمتلك ما يمتلكه الأثرياء من نظارات تؤدى الغرض منها.

ومع ذلك فقد قال لنفسه فى شىء من الفلسفة للموقف : «وماذا على من كل هذا ؟ إنه لا يمكن أن ينال الخير الوافر العميم دون بعض المضايقات البسيطة، أن اللمسة الذهبية تساوى هذه النظارات على الأقل إن لم تكن تساوى فى الواقع نعمة البصر نفسها، أن نظرى العادى يكفى فى المناسبات العادية وللأغراض اليومية، وعما قريب تكبر الصغيرة ماريجولد وتقرأ لى هى».

وابتهج الملك الحكيم من حظه السعيد إلى حد أن القصر بكل اتساعه لم يعد كافيا لأن يسعه من الفرح، ولذلك نزل الدرج مبتسما لأنه لاحظ أن «درابزون» الدرج أخذ يتحول إلى ماسورة ذهبية خالصة، ودلف إلى الحديقة، وتصادف أن رأى طائفة من الزهور مفتحة مزدهرة وطائفة أخرى فى درجات تختلف بين البراعم والورود المزدهرة كل الازدهار وكان عبيرها لذيذا جدا وهو ممتزج بنسيم الصباح، وكان لونها المحمر قليلا فى رقة نادرة من أبهج المناظر فى العالم كله، فلكم كانت رقيقة متواضعة مفعمة بالهدوء والصفاء والاطمئنان فيما بدا عليها.

ولكن ميداس يعرف وسيلة تحيلها إلى أزهار أنفس وأغلى، فيما يرى هو، من أى زهر خلق من قبل، ولهذا كبد نفسه مشقة التنقل من شجرة إلى شجرة مجربا لمسته السحرية فى تكرار مستمر دون تعب أو ملل، حتى تحولت كل زهرة وكل برعم ، بل كل دودة كانت تأكل

فى قلب الورود، إلى ذهب، وما كاد يتم هذا العمل المجيد حتى نودى عليه ليفطر، ولما كان نسيم الصبح قد فتح شهيته فإنه أسرع عائدا إلى القصر.

وأنا فى الحقيقة لا أعرف مما كان يتكون إفطار ملك أيام ميداس، ولا أستطيع الآن أن أتوقف فى قصتى لأبحث معكم هذا الموضوع، ولكن أكبر الظن أن الإفطار فى هذا الصباح بالذات كان يتكون من بعض الفطائر الساخنة وبعض السمك الصغير والبطاطس والبيض المسلوق والقهوة بالنسبة لميداس، وصحن من الخبز واللبن لابنته ماريجولد، وهذا على كل حال إفطار يصلح لأن يقدم لملك، وسواء أكان هذا هو ما قدم له فعلا أم لا فإنه لم يكن من الممكن أن أقدم له أحسن من ذلك.

ولم تكن ماريجولد قد ظهرت بعد، فأمر أبوها باستدعائها وجلس هو إلى المائدة منتظرا مقدم الطفلة ليبدأ إفطاره، وإنصافا للملك لا بد من أن نقول إنه كان فعلا يحب ابنته حبا جما، وكان حبه لها فى هذا الصباح أكثر من أى يوم مضى للمناسبة السعيدة التى كان يحتفل بها ، ولم يمض وقت طويل حتى رآها قادمة وهى تبكى بكاء مرا أثناء اجتيازها الردهة الموصلة إلى حيث كان. وأثارت الحادثة عجبه لأن ماريجولد ، فى الواقع ، كانت من أكثر الأطفال مرحا، بل إنها تفوق فى مرحها وسعادتها مرح الأطفال العاديين أثناء الإجازات فى الصيف، إنها لا تكاد تذرف ما يملأ ملعقة واحدة من الدمع طوال العام كله.

ولما سمعها ميداس تنشج فى بكائها قرر أن يبدد حزنها فى

الحال بمفاجأة سارة، ولهذا فقد مال عبر المائدة ولمس صحن ابنته، وكان من الخزف الصينى مزينا بالرسوم الجميلة على أطرافه كلها وإذا به يتحول فى الحال إلى ذهب براق.

وفى الوقت نفسه فتحت ماريجولد الباب وهى مازالت تبكى وظهرت وهى تمسح بطرف «مريلتها» دموع عينيها فى نشيج يكاد يصدع قلبها.

وصاح ميداس: «ماذا الآن يا سيدتى الصغيرة؟ بالله ماذا دهاك فى هذا الصباح المشرق الجميل؟».

ومدت ماريجولد يدها وفيها زهرة من هذه الأزهار التى حولها منذ لحظة ميداس إلى ذهب، وكانت ما زالت تمسح دمعها فى طرف«مريلتها»؟

وقال أبوها فى دهشة وعجب: «جميلة! وماذا فى هذه الزهرة الرائعة مما يدعوك للبكاء؟»

وأجابت الطفلة بقدر ما سمح به نشيجها الحزين: «يا والدى الحبيب إنها ليست جميلة ولكنها أبشع زهرة نمت على فرع. إنى بمجرد أن ارتديت ملابسى هرعت إلى الحديقة لأجمع لك الأزهار، لأنى أعرف أنك تحبها بل تحبها أكثر وأكثر إذا كانت التى جمعتها لك هى ابنتك الصغيرة، ولكن ياللهول! ماذا تظن أنه قد حدث! أى نحس! إن الأزهار كلها الجميلة ذات العبير العطر والألوان الفريدة قد فسدت ومرضت وانقشع حسنها، إنها أصبحت كلها صفراء كهذه التى تراها ولم يعد لها عبير ولا عطر، ترى ماذا دهاها؟»

وقال ميداس الذى منعه الخجل من أن يعترف بأنه هو الذى

أحدث هذا التحول الذى أشجاها وأحزنها: « لا عليك يا صغيرتى الحبيبة، أرجوك لا تبكى على هذا الذى حدث، اجلسى وتناولى إفطارك من اللبن والخبز، إنك لا شك ستجدين الأمر لا يدعو إلى حزن أبدا ، إننا نستبدل زهرة ذهبية كهذه تعيش مئات الأعوام بزهرة عادية تذبل بعد يوم واحد».

وبكت ماريجولد وهى تقول: «إن مثل هذه الورود لا تغرينى» وأطاحت بالزهرة فى ازدراء وغضب «إنها لا رائحة لها والأوراق الذهبية تخدش أنفى».

وجلست الطفلة إلى المائدة، وكان الأسى على الورود التى فسدت يمنعها من أن تلاحظ التحول المدهش الذى حدث لصحنها الصينى، وقد يكون هذا أفضل من أن تلاحظ شيئا. لأن ماريجولد كانت معتادة أن تستمتع برؤية الأشخاص الفريدة والأشجار العجيبة والبيوت التى كانت مرسومة على حافة الصحن، وكل هذه الزينة الممتعة تلاشت الآن فى صفرة المعدن الذهبى.

وإبان هذا كان الملك ميداس قد صب فنجانا من القهوة لنفسه، وبطبيعة الحال كيفما كان أبريق القهوة وما يكون المعدن الذى صنع منه فقد تحول فى الحال إلى ذهب، وكان ذهبا خالصا ساعة أرجعه الملك إلى المائدة، وتأمل الملك أنه ولا شك إسراف فى الأبهة والمظاهر أن يتناول ملك، متواضع فى العادة، إفطاره فى طاقم كله من ذهب، وبدأت تساوره بعض المخاوف ، إذ كيف يمكن أن يحافظ على كل هذه الكنوز فى أمن من السارقين والطامعين، أن الدولاب والمطبخ لم يعودا مكانا آمنا لحفظ آنية من الذهب لحفظ الصحون والأباريق

وغيرها من الذهب الخالص.

وبينما كان يفكر فى هذه الأمور رفع ملعقة من القهوة إلى شفتيه وبدأ يشفط ولكن العجب تملكه عندما رأى أنه بمجرد أن لامست شفتاه السائل استحال فى الحال إلى ذهب مذاب، بعد لحظة وجيزة تحجر السائل إلى كتلة صغيرة.

وصاح ميداس فى اندهاش مذعور: «آه!»

وسألته ماريجولد: «ماذا دهاك يا أبى» وكانت تحملق فى وجهه والدمع مازال يترقرق فى عينيها»

وأجاب ميداس: «لا شىء يا طفلتى لا شىء، اشربى اللبن قبل أن يبرد»

ومد يده ليأخذ سمكة صغيرة شهية من الصحن، ولكنه من باب الاحتياط لمس ذيلها بأصبعه أولا، وفى رعب شديد لاحظ أن السمكة قد استحالت فى الحال من سمكة صغيرة شهية إلى سمكة ذهبية ، سمكة لا تشبه حتى هذا السمك الجميل الذى لا يؤكل وإنما يحفظ فى إناء من الزجاج للزينة فى مداخل البيوت، كلا لم تكن حتى هذه، وإنما هى سمكة ذهبية وكأنما قد حذق صنعها أبرع الصياغ على وجه الأرض، لقد أصبحت عظامها الدقيقة سلوكا من الذهب، وزعانفها وذيلها أصبحت كلها رقائق ذهبية رفيعة، بل إن المظهر الشهى للسمكة المقلية حديثا بدا من خلال الذهب حتى وخز الشوكة التى غرزت فيها ظهر واضحا جليا من أحكام التقليد ، ولعلك تظن أنها بذلك أصبحت تحفة نادرة، ولكن الملك ميداس وحده يعلم الله، كان يتمنى فى هذه اللحظة سمكة طبيعية حقيقية تملأ صحنه بدل

هذه السمكة الذهبية الثمينة المقلدة للطبيعة فى دقة وحذق.

وخطر له خاطر: «ترى كيف إذن سأحصل على شىء من طعام فى إفطارى! إنى لا أرى كيف»..؟»

ومد يده إلى فطيرة ساخنة يتصاعد منها بخارها وما كاد يقطع قطعة منها حتى استحالت فى الحال صفراء صفرة الطعام الهندى، وإن تكن منذ برهة وجيزة قد كانت من الدقيق الأبيض الناصع، كم عذبته هذه الحقيقة الآن، وفى الحقيقة إن ميداس ود لو كانت طعاما هنديا، فإنه بلا شك أثمن عند ميداس كطعام منها الآن وقد ازدادت صلابتها وثقل وزنها وأصبحت لسوء حظ ميداس ذهبا خالصا، وفى يأس تقريبا مد يده إلى بيضة مسلوقة تحولت هى الأخرى تحول السمكة والفطيرة. ولقد كان من الممكن أن نظن أن هذه البيضة إن هى إلا البيضة الذهبية المعروفة التى كانت تبيضها كل يوم الأوزة التى تقص قصتها كتب حكايات الصغار، ولكن الملك ميداس نفسه هو هذه الأوزة إذا كان لا بد من أوزة لتبيض بيضة من ذهب.

ومال بكرسيه وهو ينظر إلى ماريجولد، يغبطها على الخبز واللبن الذين تلتهمهما فى رضى وسعادة، وقال لنفسه:: «إنه لمأزق رهيب، إفطار شهى كهذا متعدد الأصناف غالى الثمن ولا أستطيع أن أذوق منه شيئا».

ولكن ميداس ، على أمل أن تنقذه سرعة الحركة من هذه الورطة المعقدة فيما يرى، خطف بسرعة قطعة بطاطس مشوية ساخنة وحاول أن يحشرها فى فمه وأن يبتلعها بسرعة، ولكن اللمسة الذهبية كانت أسرع منه.

لقد وجد فمه مملوءا لا بالبطاطس اللين الطرى وإنما بمعدن صلب حرق لسانه حتى اضطر إلى أن يزأر كالأسد، وقفز من على المائدة وأخذ يضرب أرض الغرفة بقدميه ويتراقص من الخوف والألم.

وصرخت ماريجولد ، وكانت طفلة رقيقة جياشة العاطفة، «أبى أبى الحبيب ماذا دهاك؟ هل أحرقت فمك؟» وتأوه ميداس فى ألم: «آه يا بنتى الحبيبة لم أعد أدرى ماذا سيكون مصير أبيك المسكين».

وفى الحقيقة يا صغار هل سمعتم فى حياتكم بحال تستدعى شفقتكم أكثر من هذه؟ لقد كان هناك أغنى إفطار أو أفخمه أو أثمنه يمكن أن يقدم لملك ومع ذلك لا يصلح لشىء، أن أفقر عامل وهو يقضم كسرة من الخبز الناشف ويشرب جرعة ماء فى أحقر إناء كان بلا شك أسعد حالا من الملك ميداس الذى كان إفطاره يساوى وزنه ذهبا، وماذا يا ترى يمكن أن يفعل، لقد كان منذ الآن، ساعة الإفطار، فى أشد حالات الجوع، أيمكن أن يصبح أقل جوعا ساعة الغداء؟ وإلى أى مدى يصل به الجوع المفرط ساعة العشاء، هذا العشاء الذى يتألف قطعا من هذه الأكلات غير اللائقة بالأكل، ترى كم يوما سيعيش إذا استمرت الحال على هذه الوجبات الغالية النفيسة.

وأقلقت هذه الأفكار الملك ميداس الحكيم حتى بدأ يشك فعلا فيما إذا كان الثراء هو الشىء الوحيد المرغوب فيه فى هذه الدنيا، أو حتى إذا كان الثراء هو أكثر شىء يرغب فيه، ولكن هذه الفكرة مرت به عابرة ليس غير، فلقد كان لا يزال مبهورا ببريق الذهب من حوله

إلى حد أنه يرفض أن يتنازل عن اللمسة الذهبية بسبب اعتبار تافه مثل الإفطار ، تصور أى ثمن يدفع فى سبيل مأكولات وجبة واحدة، إنه فى حقيقة الأمر لو تنازل يكون قد دفع الملايين من الجنيهات بل ملايين الملايين إلى مالا يحصى لها عد فى شراء سمك صغير مقلى وبيضة وبطاطس وفطيرة ساخنة وفنجان قهوة.

وفكر ميداس قائلا: «أنه لثمن باهظ للغاية».

ولكن الجوع استبد به، والحيرة مما وصل إليه جعلته يئن ويتأوه فى حزن أليم وبصوت عال، ولم تعد صغيرتنا ماريجولد بمستطيعة أن تحتمل أكثر مما احتملت، لقد ظلت برهة تراقب أباها ساعية بكل ما فى عقلها الصغير من طاقة إلى أن تعرف ماذا دهاه فعلا، ولما لم تصل إلى شىء قامت من كرسيها تدفعها فطرتها الحلوة وحزنها على والدها، لتخفف عنه، وعدت نحو ميداس واحتضنت ركبتيه بذراعيهاوانحنى ميداس وقبلها وهو يحس أن حب ابنته له يساوى أضعاف أضعاف ما قد حصل عليه عن طريق اللمسة الذهبية.

وصاح ميداس : « يا عزيزتى ماريجولد الغالية».

ولكن ماريجولد لم تجب بشىء ، إلا ما أقصى شؤم هذه الهبة التى وهبه إياها هذا الغريب ! ذلك أنه بمجرد أن لمست شفتاه جبين الصغيرة ماريجولد حدث التحول واكتسى وجهها الوردى العذب الذى يفيض حبا دائما بالأصفر البراق، وقطرات دمع صفراء متجمدة تزين الخدين الجامدين، واتخذ شعرها البنى الجميل نفس اللون وتجمد جسدها الناعم الرقيق وأصبح غير قابل لأن ينثنى بين ذراعى والدها اللتين أحاطتا بها. فياسوء الحظ المروع، أن ضحية

جشعه الذى لا يرتوى أبدا من الذهب هى ماريجولد، أنها لم تعد طفلة من البشر ، لقد استحالت إلى تمثال من الذهب.

نعم لقد وقفت أمامه وقد تحجر على وجهها تعبير الحب والأسى والشفقة على والدها، لقد كان منظرها على جماله، أتعس منظر يمكن أن تقع عليه عين بشر.

لقد كانت مرسومة على التمثال كل ملامحها وكل ما يميزها من جمال عن سائر الأطفال ، حتى هذه «الغمازة» الحبيبة ظلت كما هى فى ذقنها الذهبى، وبقدر ما كان الشبه قريبا بين الأصل والتمثال كان حزن الوالد وهو ينظر إلى التمثال، هذا التمثال الذى أصبح كل ما بقى له من ابنته الحلوة، كم كان ميداس معتاد أن يردد على مسمعها كلما فاض به الحب الذى يكنه لها: «إنك عندى تعادلين مقدار وزنك ذهبا» وأخيرا، وبعد فوات الأوان، أدرك أن قلبا واحدا عطوفا عليه رقيقا يحبه أغلى أضعافا مضاعفة من كل ما يمكن أن يكدس من أكوام الذهب التى تعلو من الأرض حتى تلاصق السماء.

ربما أحزنكم أكثر مما يجب أن تحزنوا لقصتى لو سردت لكم كيف ظل ميداس فى اللحظة التى خيل إليه أنه نال كل ما يتمنى يضرب بكفيه ويتأوه ويئن، وكيف أنه لم يعد يطيق النظر إلى ماريجولد وفى الوقت نفسه لم يعد يطيق أن يرفع بصره عنها، ولم يكن من الممكن أن يعتقد أنها تحولت إلى ذهب فعلا إلا عندما تمعن النظر فى التمثال، وكلما رفع إليها البصر كان الجسم الغالى الصغير، بدمعتها الصفراء الذهبية على خدها الذهبى وبنظرتها الرحيمة الرقيقة، يطالعه وكأنما كان لا بد لهذه الرحمة الرقيقة

المتحلية على وجهها أن تذيب الذهب وتعيده لحما بشريا مرة أخرى، ولكن هيهات ! وأنى لهذا أن يكون! ولم يعد فى وسع ميداس إلا أن يضرب بكفيه وأن يتمنى بكل ما فيه من طاقة أن يصبح أفقر إنسان على وجه البسيطة لو أن كل ثروته يمكن أن تعيد لون الورود ولو باهتا إلى وجه الطفلة الحبيب.

وبينما كان فى غمرة هذا اليأس المرير وجد أمامه فجأة غريبا يقف بالباب، وحنى ميداس رأسه دون أن ينطق حرفا، فلقد عرف أن الغريب هو نفسه الذى ظهر له أمس فى غرفة الكنز.

والذى أسدى إليه هذا الفضل المشئوم ـ فضل أن يحوز اللمسة الذهبية، وكان وجه الغريب لا يزال مضاء بابتسامة مشعة تلقى بريقا أصفر على كل أرجاء الغرفة بل تنير أيضا تمثال ماريجولد كما تضىء سائر ما حوله ميداس باللمسة الذهبية.

وقال الغريب: «أيها الصديق ميداس كيف حالك مع اللمسة الذهبية؟» وهز ميداس رأسه قائلا: «إنى جد بائس تعس»

وصاح الغريب متعجبا: «جد بائس تعس! وكيف كان ذلك؟ ألم أوف بعهدى لك فى إخلاص وأمانة، أليس لديك الآن كل ما كان يصبو إليه قلبك؟»

وأجاب ميداس: «ليس الذهب كل شىء، لقد فقدت من أجله كل ما تعلق به قلبى فعلا وكل ما له قيمة بالنسبة إلى فى هذه الحياة».

فقال الغريب: «إنى ألاحظ أنك اكتشفت اكتشافا جديدا منذ أمس ، هلم نمعن النظر فى الأمور، أيهما تظن أنه أغلى وأثمن فعلا، اللمسة الذهبية أم جرعة ماء صافية باردة؟»

وصاح ميداس: «أيتها النعمة المباركة! جرعة ماء، إنى لن أبرد جوفى بقطرة منها بعد اليوم».

واستمر الغريب يسأله: «اللمسة الذهبية أغلى عندك أم كسرة من الخبز؟»

وأجاب ميداس:«كسرة من الخبز؟ إنها تساوى ذهب الأرض كله».

وسأله الغريب «اللمسة الذهبية أم ابنتك الصغيرة ماريجولد بعواطفها المتدفقة وحبها لك ورقتها وعذوبتها مثلما كانت منذ ساعة مضت؟»

وبكى ميداس ضاربا بكفيه وهو يقول: «آه يا ابنتى، يا ابنتى الحبيبة، إنى لو خيرت ما تنازلت عن هذه الغمازة الصغيرة فى ذقنها مقابل القدرة على تحويل كل هذه الأرض الضخمة إلى كتلة جامدة من الذهب الخالص».

ونظر الغريب إليه فى جد وهو يقول: «لقد أصبحت الآن أحكم مما كنت وأعقل، إن قلبك، فيما أظن ، لم يتحول هو الآخر من نسيج حى إلى ذهب، إنه لو قد حدث لك هذا لكانت حالتك تلك ميئوسا منها كل اليأس، إنك تبدو وكأنك مازلت قادرا على أن تفهم أن الأشياء العادية جدا التى فى متناول يد أى إنسان أغلى من كل ثراء يلهث الناس فى سبيله ويشقون من أجل الحصول عليه، والآن قل الحق ، تريد بإخلاص أن تجرد نفسك من نعمة اللمسة الذهبية؟»

وأجاب ميداس: « كم ذا أكرهها!»

واستقرت ذبابة على أنفه ولكنها سقطت فى الحال على الأرض ، فقد تحولت هى الأخرى إلى ذهب، وارتجف ميداس وارتعد.

وقال الغريب: « اذهب إذن واغمر نفسك فى النهر الذى ينساب فى آخر حديقة قصرك، وخذ أيضا إناء مملوءا من هذا الماء وانثر منه قطرات على كل شيء حولته إلى ذهب وتريده أن يعود إلى عنصره الأصلى، إنك إن فعلت ذلك بإيمان وحماسة فقد يكون من الممكن أن نصلح الفساد الذى تسبب فيه جشعك».

وانحنى ميداس فى احترام، ولما رفع رأسه كان الغريب البراق المشع قد اختفى.

وأظنكم تصدقون دون حاجة إلى إثبات أن ميداس اختطف إناء كبيرا من الفخار، تحول فى يده بالطبع إلى ذهب خالص، وأسرع إلى النهر، وبينما هو يندفع بين الأشجار كان من المدهش أن تلاحظ كيف أن أوراق الشجر كلها استحالت إلى صفرة بمجرد أن لمسها فى عدوه كأنما الخريف حل بأرضها وحدها دون سائر بقاع الأرض طرا.

وقذف ميداس الماء من أنفه وفمه وهو يرفع رأسه بارزا من ماء النهر وقال: «حقا إنه لحمام منعش، وأكبر الظن أنه قد طهرنى من اللمسة الذهبية ، والآن فلأملأ الإناء».

وبينما كان يغمس الإناء فى النهر لاحظ، وقد غمر قلبه الفرح أن الإناء تحول من الذهب وعاد مرة أخرى إلى فخار قوى جميل صادق كما كان من قبل أن يلمسه، ولاحظ فى الوقت نفسه تغييرا فى نفسه هو، أن ثقلا باردا جامدا قد انزاح من على صدره بعد أن كان جاثما عليه، فمما لا شك فيه أن قلبه كان يفقد بالتدريج خصائص عنصره الحى من اللحم والدم ليتحول إلى معدن جامد لا يحس ،

ولكنه الآن أخذ يرق وينعم وطراوة اللحم البشرى تزحف إليه، ولما لمح زهرة من البنفسج كانت نامية على حافة النهر أسرع ميداس بلمسها بإصبعه وكم أسعده أن يرى أن الزهرة الرقيقة ظلت حافظة للونها البنفسجى الجميل بدل أن تفسدها صفرة الذهب، إن لعنة اللمسة الذهبية قد فارقته حقا فيما يلوح.

وأسرع الملك ميداس نحو القصر عائدا، وأغلب الظن أن الخدم لم يستطيعوا أن يفهموا شيئا من السر الذى جعل سيدهم يحرص كل هذا الحرص على حمل هذا الإناء الفخارى العادى المملوء ماء، ولكن هذا الماء الذى كان سيصلح كل الفساد الذى عاثه جنون ميداس بالذهب كان يبدو الآن فى عينى ميداس أثمن من محيط كامل يعج بالذهب المصهور، وكان أول شىء قام به مما لا يحتاج إلى أن تؤكده هو أن ينثر الماء دافقا على التمثال الذهبى لابنته ماريجولد.

وما كاد الماء يسقط عليها حتى أسرعت خدودها بالاحمرار الوردى سرعة عجيبة كانت ستفرحكم حقا، وبدأت تعطس وتشهق ولكم أدهشها أن تجد نفسها مبللة هكذا يقطر الماء منها ومع ذلك لا يزال والدها يغرقها بوابل منه.

وصاحت الطفلة: « كفى يا أبى الحبيب انظر كيف بللت ثوبى الجميل الذى لبسته هذا الصباح!»

ذلك أن ماريجولد لم تعرف أنها كانت قد تحولت إلى تمثال ذهبى صغير، بل إنها لم تتذكر شيئا مما حدث لها منذ جرت ملهوفة مادة ذراعيها لتخفف عن أبيها المسكين ما كان يشعر به من ضيق.

ولم يجد الأب داعيا لأن يقص على ابنته الحبيبة إلى أى حد

وصل فى هوسه وجنونه، واكتفى بأن أثبت لها كيف أنه ازداد حكمة وبصرا وعقلا، ثم قاد الصغيرة إلى الحديقة حيث نثر كل ما بقى من ماء فى الإناء على شجر الورد، وكان أثر الماء سريعا بحيث استعادت أكثر من خمسة آلاف وردة رونقها وازدهارها فى الحال.

ولكن الملك ميداس ظل طوال حياته المديدة يذكر اللمسة الذهبية فى حالين ليس غير، حال تأمل رمال شاطئ النهر وهى تتألق فى بريق كبريق الذهب وحال تأمل شعر ماريجولد الذى اكتسى «رواء» ذهبيا لم يكن قد لمحه من قبل أن تتحول إلى تمثال ذهبى على أثر قبلته، إن هذا التغيير فى لون شعر ماريجولد كان تغيرا إلى أحسن، فقد جعل شعر الصغيرة يبدو أوفر جمالا مما كان وهى طفلة.

ولما شاخ الملك ميداس، وقد امتد به العمر طويلا، وأصبح أبناء ماريجولد يقفزون على ركبتيه ، أولع الملك بأن يقص هذه القصة على أحفاده على النحو الذى قصصتها به عليكم تقريبا، ولما كان يملس على خصل شعرهم الغزير البراق كان يقول لهم إن شعرهم هم أيضا له بريق ذهبى جميل وأنهم ورثوا هذه الصفة عن أمهم ذهبية الشعر.

وكثيرا ما كان الملك يردد لأحفاده وهم يتواثبون على ركبتيه: «والحق أقوله لكم يا صغارى إنى منذ ذلك الصباح قد كرهت الذهب وكل شىء يذكرنى منظره بالذهب إلا خصلات شعركم هذه».

الجدول الظليل
(ما بعد قصة اللمسة الذهبية)

وسأل يوستيس ، الحريص أبدا على استخلاص رأى صريح من المنصتين إلى قصصه: «والآن يا صغار هل سمعتم فى حياتكم قصة أفضل من قصة (اللمسة الذهبية)؟».

وقالت زهرة الربيع وهى تميل إلى أن تكون لاذعة فيما تقول: «أما فيما يتعلق بقصة الملك ميداس فإنها قصة قد شهرت منذ ألف عام قبل أن يولد السيد يوستيس برايت، وأكبر الظن أنها ستظل كذلك آلاف الأعوام بعد أن يموت، ولكن بعض الناس فيما أرى يتمتعون (باللمسة الرصاصية) وهؤلاء يستطيعون أن يحيلوا كل شىء يلمسونه إلى رصاص ثقيل غث بارد».

وقال يوستيس وقد أخذ بنقدها اللاذع نوعا ما: «إنك لصبية ذكية يا زهرة الربيع وإن كنت لم تنهى بعد العشرة من أعوام عمرك، ولكنك تعلمين بقلبك هذا الصغير الماكر أنى جلوت ذهب ميداس

العجوز وجعلته يبرق بريقا لم يعرفه فى حياته من قبل، وهذا التمثال الذهبى لماريجولد ألا تجدين فيه حذقا يستحق تقديرك، ثم ألم تلاحظى البراعة والدقة فى إبراز مغزى القصة، وما قولك أنت يا خنشار ويا هندباء ويا برسيم وأنت يا زهرة الفجر هل منكم ، بعد سماع القصة، من يرغب فى غباء أن يحوز هذه اللمسة الذهبية التى تحيل كل شىء ذهبا؟».

وقالت زهرة الفجر وهى صبية فى العاشرة : «إنى أتمنى أن أستطيع أن أحيل كل شىء إلى ذهب بلمسة من سبابتى اليمنى،. أما سبابتى اليسرى فإنى أتمنى أن تستطيع بلمسة منها أن تعيد كل شىء إلى ما كان عليه إذا لم يعجبنى الأمر بعد التحويل إلى ذهب، وإنى إذا نلت هذه الأمنية لعلى يقين ماذا سأفعل بها فى عصر هذا اليوم نفسه»

فقال يوستيس: « بربك قولى لنا ماذا ستفعلين»

فأجابت زهرة الفجر: «إذا تحققت لى الأمنية فإنى ألمس بسبابتى اليسرى فى الحال كل هذه الأوراق الذهبية اللون لأحيلها كلها إلى أوراق خضراء نضرة بحيث يعود إلينا الصيف فى الحال دون أن نعانى الشتاء القبيح وفى انتظارنا لمقدمه».

وصاح يوستيس برايت: «وفى هذا أنت مخطئة يا زهرة الفجر، وأنك بذلك ترتكبين خطأ جسيما وينتج عنه فساد عظيم. فلو كنت أنا الملك ميداس ما كنت فعلت شيئا غير أن أغير أيام العام كله إلى مثل هذه الأيام الذهبية بحيث لا تتعاقب طوال العام إلا أيام كهذه، ولا أدرى لماذا غاب عن ذهنى أن أذكر لكم أن الملك ميداس جاءنا هنا

فى بلادنا (أمريكا) وغير من قتامة الخريف وظلامه الذى يبدو به فى بلاد أخرى، وأحاله إلى هذا النوع الذى ترون من الخريف الزاهى ذى الجمال المتجلى، فهو بذلك قد ذهب الأوراق فى سفر الوجود».

وسأل الصبى الصغير الخنشار وكان مولعا بأسئلة خاصة حول ضخامة العمالقة كم تبلغ بالتحديد، وحول ضآلة الحوريات إلى كم تصل بالدقة: «يا ابن العم يوستيس كم كان طول ماريجولد وإلى كم زاد وزنها عندما تحولت إلى تمثال مذهب».

وأجاب يوستيس: «لقد كانت فى مثل طولك تقريبا ولما كان الذهب معدنا ثقيل الوزن فلا شك أنها تمثالا كانت تزن نحوا من ألفى رطل، وكان يمكن أن تتحول إلى نقود تساوى ثلاثين أو أربعين ألفا من الدولارات ، يا ليت زهرة الربيع تساوى نصف هذا المبلغ. هلم يا صغار نصعد من وهدة هذا الوادى لننظر فيما حولنا».وكان هذا هو ما فعلوه، وكانت الشمس قد جاوزت مكانها الذى تشغله فى كبد السماء ظهرا بنحو ساعة أو ساعتين وقد ملأت تجاويف الوادى السحيق كله بلألاء المغرب وأصبح الوادى وكأنما هو إناء يفيض بالضوء ، حتى إنه ليطفو فيغرق كل التلال المجاورة كما تفيض الخمر من كأسها وتطفو على ما حولها، لقد كان يوما لا يمكن أن تملك نفسك من القول فيه: «إنه يوم لم يسبق له مثيل» وإن تكن الحقيقة فإن أمس كان يوما فى نفس الروعة وسيكون الغد أيضا بهذه الروعة، ولكن كم هى قليلة هذه الأيام الرائعة على مدار العام كله، إن أيام الخريف تلك أيام أكتوبر، تمتاز بميزة فريدة وهى أنها تبدو وكأن كلا منها يشغل مكانا فسيحا جدا، مع أن شمسها تتلكأ

فى الشروق وتأوى إلى فراشها كما يجب أن يأوى الصغار فى ساعة هادئة هى السادسة مساء أو حتى قبلها، وعلى ذلك لا يمكن أن نقول إن هذه الأيام تعد طويلة ولكنها فيما يبدو تعوض بشكل أو بآخر قصرها بأن تكون عريضة، بحيث إنه عندما يرخى الليل العليل سدوله نحس أننا قد عشنا فترة زاخرة مملوءة بالحياة منذ الصباح.

وناداهم يوستيس برايت: «هلم هلم يا صغار تعالوا نجمع جوزا بل كثيرا من الجوز، املأوا سلالكم وعندما يأتى عيد الميلاد سأكسر لكم كل هذا الجوز لتأكلوه وأنا أقص عليكم قصصا جميلة».

وهكذا رحلوا كلهم فى مرح وبهجة، ما عدا الصغير هندباء. لقد كان المسكين - وأنا آسف لذلك - جالسا طوال الوقت فوق نتوء بارز فى شجرة الكستنة مملوء بالأشواك والألياف وكأنما هو وسادة كلها دبابيس تشك جلده الطرى، ياالله! لكم تأذى المسكين طول هذه الفترة!»

غرفة اللعب فى تانجلوود
(مقدمة قصة جنة الأطفال)

وانقضت أيام شهر أكتوبر الذهبية مثلما انقضت من قبل أمثال لها مرارا وتكرارا فى الأعوام السالفة، وكذلك مرت أيام نوفمبر شهر الشجر العارى، وانقضى الجزء الأكبر من شهر ديسمبر ببرده القارس.. وأخيرا جاء عيد الميلاد السعيد، ومعه يوستيس برايت... فأضفى مقدمه مرحا على مرح العيد، وبعد وصوله من الجامعة بيوم واحد هبت عاصفة ثلجية عاتية، لقد تأخر الشتاء إلى هذا اليوم فاستمتعنا بأيام عدة من الطقس اللطيف الحانى ، وكأنما هى ابتسامات على وجه الشتاء المجعد المتجهم. وكانت الحشائش قد حافظت على خضرتها النضرة فى الأمكنة المظللة مثل حنايا المنحدرات الجنوبية وعلى طول ظل الأسوار الحجرية، ولم يكد يمضى أسبوع أو أسبوعان على أول الشهر حتى عثر الأطفال على زهرة هندباء برى مزدهرة على حافة الجدول الظليل حيث ينزلق الجدول خارجا من أسفل الوادى.

أما اليوم فلم تعد هناك حشائش خضراء ولا هندباء برى. وكانت هذه العاصفة الثلجية هوجاء حقا، ولقد كان من الممكن من نوافذ البيت فى تانجلوود رؤية مدى هذه العاصفة الثلجية فى العشرين ميلا التى تفصل بين نوافذ البيت وبين قبة تاكونيك، هذا إذا أمكن للبصر أن يميز هذا البعد من بين أكوام الثلج التى جرفتها العاصفة فكست الجو كله بياضا فى بياض، وكأنما الجبال قد استحالت إلى عمالقة تتقاذف فيما بينها كرات ضخمة من الثلج وهى تمارس هذه اللعبة الرياضية فى أسلوب جبار، وكانت شظايا الثلج غليظة كثيفة إلى حد أن الأشجار ـ حتى منتصف الطريق فى الوادى ـ قد حجبت عن الأنظار فى أغلب الأوقات، وكان الذين سجنهم الجو فى بيت تانجلوود يستطيعون أحيانا أن يميزوا الخطوط العامة لجبل «مونمونت» والبياض الناعم الذى كسا البحيرة المتجمدة فى قاع الوادى، والممرات السوداء أو الرمادية من أرض الغابة التى تراءت لهم على صفحة المنظر القريب منهم، ولكن هذه الرؤية كانت مجرد لمحات خاطفة من خلال العاصفة الثلجية.

ومع كل هذا فلقد ابتهج الأطفال كثيرا بالعاصفة وكانوا قد خبروا أمرها عندما قلبتهم ظهرا لبطن على أكوام الثلج العالية ساعة كانوا يتراشقون بقبضات الثلج مثلما تخيلنا الآن الجبال العالية فى المنطقة ، تفعل. وهاهم أولاء قد عادوا إلى غرفة اللعب الواسعة الفسيحة، التى لا تقل مساحتها عن مساحة غرفة الجلوس نفسها، وقد تراكمت فيها أنواع وأشكال من اللعب صغيرها وكبيرها، وأكبر هذه اللعب كان حصانا متأرجحا متقن الصنع إلى حد أنه يبدو مهرا

حقيقيا حيا، وكانت هناك أسر بأكملها من العرائس المصنوعة من الخشب والشمع والبلاستيك والصينى، إلى جانب عرائس أطفال صغيرة مصنوعة من قصاصات القماش، وكانت هناك مكعبات خشبية تكفى لبناء تمثال كتمثال تل «ينكر»، وانتشرت هنا وهناك كرات وصوالجة وأناشيط وخذاريف ومضارب وحبال للقفز وكمية من هذه الأشياء الثمينة أكبر من أن تحصى أو تعد فى صفحة مكتوبة بأكملها، ولكن الأطفال أحبوا العاصفة الثلجية أكثر من كل هذا الذى ذكرت، فلقد أوحت إليهم بألوان حية من المتع اللذيذة للغد، بل لكل الأيام التالية أيضا وحتى نهاية الشتاء، لقد أوحت إليهم بالتزحلق فى العربات والانزلاق على الزحافات الهابطة بسرعة شديدة إلى الوادى ويصنع العرائس من الثلج وبناء القلاع الثلجية والتراشق بقبضات الثلج والمباراة فى هذه اللعبة.

وهكذا بارك الصغار العاصفة وابتهجوا بها وسرهم أنها تتكاثف وتتكاثف وأخذوا يراقبون فى شوق متطلع كومة من الثلج وهى ترتفع وترتفع قليلا قليلا وسط الطريق وقد بلغت إلى طول أعلى من رأس أى منهم.

وتصايحوا فى بهجة أى بهجة: «سيحجزنا الثلج فى البيت إلى الربيع القادم، وآسفاه! أن بيتنا أعلى من أن تغمره الثلوج، أما هذا البيت الصغير الأحمر الذى يلوح هناك فإنه سيدفن فى الثلج وكان يوستيس قد سئم من رواية يقرؤها قراءة سريعة فخرج نحوهم إلى غرفة اللعب وهو يسألهم:

«ماذا تريدون أيها الصبية السخفاء من مزيد من الثلوج، لقد

أحدثت الثلوج من الضرر إلى الآن ما يكفيها ، لقد أفسدت على الفرصة الوحيدة عندى طوال الشتاء لأمارس رياضة الانزلاق على الماء، إننا لن نر ماء البحيرة حتى شهر أبريل، وكان يمكن لهذا اليوم أن يكون أول يوم لى أقضيه على البحيرة، ألا ترثين لحالى يا زهرة الربيع؟»

فأجابته ضاحكة: «قطعا ودون شك، ولكن لكى نسليك سننصت إليك وأنت تقص علينا قصة أخرى من قصصك القديمة تلك، كالتى قصصتها علينا فوق عتبة الدار أو كتلك التى قصصتها يوم كنا فى جوف الوادى عند الجدول الظليل، ولما كنت الآن لا أجد شيئا آخر أستطيع أن أعمله فقد تعجبنى قصصك أكثر مما أعجبتنى وأنا أنصت إليها مضحية فى سبيل ذلك بلذة جمع اللوز أو التمتع بجمال الطقس من حولى».

وبناء على ذلك تجمع كل من زهرة الفجر والبرسيم والخنشار وكل من كان لا يزال مقيما فى تانجلوود من الإخوة وأبناء العم ليتوسلوا إلى يوستيس أن يقص عليهم قصة جديدة، وتثاءب الطالب الشاب وتمطى وقفز ثلاث مرات إلى الأمام ثم ثلاثاً أخرى إلى الخلف من فوق كرسى، مما أثار إعجاب الصغار، ليوقد ذهنه وليحرك ملكة الابتداع والابتكار فيه كما أفهم رفاقه الأطفال.

وبعد هذه المقدمات قال: « وإذن يا صغار ما دمتم تصرون على ذلك، ومادامت زهرة الربيع قد صممت هى أيضا، فإنى سأفكر فى الأمر لأرى ماذا يمكن أن أفعل لكم، ولكيما تأخذوا فكرة عن الأيام السعيدة التى كانت قبل أن يعرف العالم العواصف الثلجية، سأقص

عليكم قصة من الأزمان الغابرة عندما كان العالم جديدا، جديدا كنواصي الخنشار الحديث النبت، إنه فى هذه الأزمان لم يكن هناك إلا فصل واحد من فصول السنة، وكان هذا الفصل الواحد هو فصل الصيف البهيج، ولم يكن هناك من أطوار العمر إلا طور واحد، وهذاالطور هو طور الطفولة السعيد».

وقالت زهرة الربيع: «هذا أمر لم أسمع به من قبل» . فأجابها يوستيس: «قطعا لم تسمعى، إنها قصة لم يحلم بها أحد إلا أنا، إنها قصة جنة الأطفال، وكيف استحالت هذه الجنة الجميلة بسبب عفريتة صغيرة مثل زهرة الربيع إلى لا شىء».

وهكذا جلس يوستيس على الكرسى الذى كان قد قفز من فوقه منذ برهة، وأجلس زهرة الفتنة على ركبته وأمر مستمعيه كلهم بالصمت التام، وبدأ قصته عن طفلة شقية اسمها «پاندورا» لها زميل طفل يلعب معها اسمه«اپيميثيوس» وإذا أردت أن تعرف القصة فما عليك إلا أن تقرأها كلمة كلمة فى الصفحات التالية.

جنة الأطفال

منذ زمان بعيد، بعيد جدا، لما كان هذا العالم فى طفولته الأولى عاش صبى اسمه «ايبميثيوس» لا أب ولا أم، ولكيلا يشعر بالوحدة أرسلت إليه من بلد بعيد صبية هى أيضا لا أب لها ولا أم لتؤنسه ولتشاركه فى اللعب وليتعاونا معا على الحياة، وكان اسمها «پاندورا» وكان أول ما رأت پاندورا عندما دخلت الكوخ الذى يسكنه ايبميثيوس» صندوقا كبيرا، فما كادت تجتاز عتبة الكوخ حتى كان أول سؤال سألته:

«ماذا فى هذا الصندوق ياايبميثيوس؟» فأجابها ايبميثيوس» يا عزيزتى الصغيرة پاندورا إنه سر، ولا بد من أن تكونى ظريفة كيسة فلا تسأليني بعد اليوم عنه أبدا، لقد وضع الصندوق هنا ليكون فى أمان، وأنا نفسى لا أعرف ماذا فيه» فسألته پاندورا: «ولكن من ذا الذى أعطاك إياه؟ ومن أين جاءك؟ فأجابها الصبى: «وهذا أيضا سر».

فصاحت پاندورا وقد لوت شفتيها غضبا: «إنك تستفزنى حقا، كم كنت أود ألا يوضع الصندوق هكذا فى طريقنا» فقال لها ايپيميثيوس فى توسل: «تعالى ولا تفكرى فيه، هلم نعدُ خارج الكوخ لنلهو مع الصبية الآخرين كما يجب لنا أن نلهو».

لقد مرت آلاف السنين على أيام: پاندورا وايپيميثيوس ، والعالم اليوم يختلف جد الاختلاف عما كان فى أيامهما، وكان الناس جميعا صبية فى زمانهما ، ولم تكن ثمة حاجة إلى آباء وأمهات ليعنوا بالأطفال، فلم تكن هناك أخطار ولا هموم من أى نوع. لم تكن هناك ثياب يراد أن ترتق أبدا وكان الطعام والشراب متوافرين كل الوفرة، كان الصبى إذا أراد أن يتعشى وجد عشاءه ناميا على الشجرة. فإذا ما تطلع إلى الشجرة فى الصباح كان يرى ثمرة عشاء الليلة وهى تنمو على الشجرة، وفى المساء كان يرى البرعم الصغير الذى سيكون فى الصباح إفطاره، كانت حياة ناعمة ما فى ذلك ريب، لم يكن هناك عمل ينتظر الإنجاز، ولم تكن هناك واجبات مدرسية تنتظر المذاكرة، لم يكن هناك إلا اللعب والرقص وأصوات الأطفال الجميلة وهم يتحادثون أو يترنمون كالعصافير أو يرسلون ضحكاتهم المرحة الرقراقة طوال اليوم كله.

والأعجب من كل هذا أن الصبية لم يكونوا يتعاركون، ولم تكن نوبات البكاء تنتاب أحدا منهم، بل إنه لم يحدث منذ بدأ الزمان أن طفلا من هؤلاء الكائنات الصغار انزوى فى ركن وحيدا أو أصابته نوبة من الغضب.

ألا ما أطيب أن يعيش الإنسان فى مثل هذا الزمان ! والحقيقة

هى أن هذه الشياطين المجنحة القبيحة التى تسمى «الهموم»، والتى تنتشر اليوم بيننا انتشار البعوض ، لم تكن قد عرفت طريقها بعد إلى سطح البسيطة، وقد تكون مضايقة پاندورا ـ لأنها لم تستطع أن تكشف سر الصندوق ـ هى أكبر قلق انتاب طفلا إلى ذلك اليوم فى هذا الزمان.

وألقى هذا القلق ظلا هزيلا من ظلال الحزن أول أمره، ولكنه أخذ يتبلور يوما بعد يوم، فلم يمض وقت طويل حتى كان كوخ اپيميثيوس وپاندورا أقل إشماسا من أكواخ الأطفال الآخرين. «من أين أتى الصندوق؟» هكذا ظلت پاندورا تسأل نفسها وتسأل اپيميثوس : «ترى ماذا بداخله».

ولما سئم الصبى الكلام فى الموضوع أيما سأم ، صاح بها: «أما زلت تلحين بالحديث عن الصندوق؟ كم أتمنى يا پاندورا العزيزة أن تحاولى الحديث فى موضوع آخر، تعالى نجن بعض ثمار التين الناضجة لنتعشى بها تحت الشجرة. وأنا أعرف الطريق إلى كرمة تحمل أطيب عنب ذقته وأحلاه وقد أترع إتراعا بالعصير اللذيذ».

فصاحت فيه پاندورا حانقة: «إنك لا تتحدث أبدا إلا عن العنب والتين».

وكان اپيميثيوس كسائر الصبية فى ذلك الزمان، حليما لا يعرف الغضب فقال فى هدوء، «إذن تعالى نَعّدُ ونلعب مع الرفاق ونقض أطيب الأوقات».

فأجابت پاندورا الصغيرة الغاضبة: «لقد ضقت ذرعا بالأوقات الطيبة، ولا يعنينى أن أقضى مزيدا منها، وعلى كل حال أنا لا أنعم

بطيب الوقت أبدا لأن هذا الصندوق اللعين قد ملأ على تفكيرى طوال الليل والنهار، وما زلت أصر على أن تخبرنى ماذا فى هذا الصندوق».

وتضايق الصبى قليلا وقال: «قلت لك خمسين مرة أنا لا أعرف ، فكيف أخبرك بما فيه ما دمت لا أعرف؟» ونظرت إليه نظرة جانبية وقالت: «يمكن أن تفتحه ، وعندئذ يمكن أن نرى بأنفسنا ماذا به» فصاح الصبى دهشا: «پاندورا ، فيم تفكرين؟».

ولمجرد التفكير فى فتح الصندوق الذى ائتمن عليه وعلى ألا يفتحه ظهر على وجهه من الرعب والفزع ما أقنع پاندورا أنه من الأفضل ألا تستمر فى إغرائه إلى أبعد مما ذهبت ، ولكنها لم تجد بدا من أن تفكر فى الصندوق ومن أن تتحدث عنه، وقالت: «كان يمكن على الأقل أن تخبرنى كيف جاءك إلى هنا».

فأجابها الصبى: « لقد جاء قبل مجيئك مباشرة ، أحضره رجل يبدو عليه الذكاء والبشر حتى لكأنه يحاول ألا يضحك وهو يضعه فى هذا المكان، كان يلبس عباءة عجيبة، وكانت على رأسه طاقية تبدو كأنها صنعت من الريش حتى لكأن لها جناحين». وسألت پاندورا: « وما شكل عصاه التى كان يحملها؟» فصاح الصبى: «عصاه! إنها لأعجب عصا رأيتها لكأنها ثعبانان يلتفان حول عود. لقد حفرا حفرا متقنا قريبا من الواقع فى الطبيعة حتى ظننت أول الأمر أن الثعبانين سيتحركان».

فقالت پاندورا متأملة: «إنى أعرفه، ليس هناك من له مثل هذه العصا سواه، إنه الشيخ زئبق، فهو الذى أتى بى إلى هنا كما أتى

بالصندوق من قبلى، لقد أرادنى أنا بهذا الصندوق، وأرجح أن بالصندوق فساتين جميلة أحضرها لى لألبسها، بل قد تكون به لعب طريفة لنلعب بها معا، أو شىء طيب لنأكله نحن الاثنان».

فأجابها الصبى وهو يسير عنها: « ولكن إلى أن يأتى الشيخ زئبق ويأذن لنا فى أن نفتحه لا يجوز لنا، وليس من حقك ولا من حقى، أن نرفع غطاء هذا الصندوق».

وبينما كان الصبى يخرج من الكوخ كانت پاندورا تتمتم:«ما أغبى هذا الصبى! كم كنت أتمنى أن يكون لديه شىء من حب المغامرة».

ولأول مرة منذ مقدمها خرج الصبى دون أن يسألها أن تصحبه. خرج ليجنى التين والعنب وحده، أو لينشد المتعة فى صحبة آخرين غير رفيقته الصغيرة، لقد مل من ذكر الصندوق وتعب من تكرار الحديث عنه، وتمنى من أعماق قلبه لو أن الرسول الشيخ زئبق (أو ما يكون اسمه) كان قد ترك الصندوق عند كوخ صبى غيره، بعيدا عن نظر پاندورا حتى لا تراه أبدا. لقد كانت تلح وتلح فى هذا الموضوع الواحد... الصندوق ، الصندوق ، ولا شىء غير هذا الصندوق. وكأنما الصندوق يملأ الكوخ كله، أو كأنما الكوخ قد ضاق على الصندوق فإذا پاندورا تعثر فيه فى كل خطوة تخطوها وتدفع باپيميثيوس ليعثر فيه هو أيضا فيجرحان سيقانهما الأربع كلها.

نعم لقد كان شاقا بالفعل على اپيميثيوس أن يستقر ذكر الصندوق فى أذنه صباح مساء، وخاصة أن سكان العالم الصغار فى هذه الأيام لم يكونوا قد اعتادوا المضايقات والمتاعب، فلم يكونوا

يعرفون كيف يتعاملون معها، وهكذا نجد أن مضايقة صغيرة الشأن تحدث من الاضطرابات ما تحدثه المضايقات الكبيرة فى أيامنا هذه.

ووقفت پاندورا تحملق فى الصندوق بعد أن ذهب الصبى، لقد وصفت الصندوق بالقبح أكثر من مائة مرة، ولكن بالرغم من كل ما عابته به فقد كان قطعة من الأثاث جميلة جدا، بل إنه ليزين أية غرفة يوضع فيها، كان مصنوعا من صنف جميل من الخشب، معرقا عروقا غامقة مليئة منتشرة على سطحه اللامع البراق، هذا السطح الذى كان يمكن لپاندورا أن ترى فيه وجهها معكوسا كما تعكسه لها المرآة، ولما لم تكن لديها مرآة من أى نوع فلقد كان عجيبا ألا تقدر پاندورا هذا الصندوق لهذه الميزة وحدها.

وكانت زوايا الصندوق محفورة حفرا متقنا جميلا، وعلى الحوافى كلها حفرت صور رجال ونساء وأطفال من أجمل ما يمكن أن يصوروا وهم متكئون أو يرقصون وسط طائفة من الزهور، وأوراق الشجر، كل هذا مصور بالحفر وممثل تمثيلا بديعا متسقا فى انسجام، حتى بدت الشخوص والأوراق والأزهار وكأنها كلها أكليل واحد من الجمال الممتزج بعضه بالبعض، ولكن پاندورا كانت تلمح هنا أو هناك وجها غير جميل يطل من وراء ورق الشجر أو شيئا منظره لا يسر، وكأنما هو يسلب كل الجمال من كل ما حوله، ولكنها إذا دققت النظر أو لمست الموضع بإصبعها لم تكن تجد شيئا مما كان يلوح لها، إن وجها من هذه الوجوه الجميلة كل الجمال كان قد حفر على نحو يبدو فيه قبيحا إذا لمحته العين من زاوية ما.

وأجمل هذه الوجوه المحفورة طرا كان الوجه الذى برزت ملامحه

بروزا قويا وقد توسط غطاء الصندوق، ولم يكن على الغطاء الغامق الناعم اللامع البراق إلا هذا الوجه فى وسطه وقد تحلى جبينه بتاج من الورود، وقد أمعنت پاندورا النظر إلى الوجه مرات وخيل إليها أن فمه يمكن أن يبتسم ويمكن أن يعبر عن الجد والصرامة إذا شاء، كما يستطيع أى فم فى أى وجه حى، بل إن الملامح كلها كانت حية معبرة وكأنما التعبير سيخرج من الشفاه المحفورة على الخشب كلمات منطوقة، ولو أن هذا الفن تكلم لقال قولا شبيها بهذا:

«لا تخافى يا پاندورا ، أى ضرر يمكن أن ينجم عن فتحك الصندوق؟ لا تلتفتى إلى هذا الساذج الغر اپيميثيوس المسكين، أنت أذكى منه وفيك من الحيوية عشرات أمثال ما عنده، افتحى الصندوق وسترين أنك ستجدين شيئا جميلا حقا».

والصندوق، لقد كدت أنسى أن أقول إنه كان مقفلا لا بقفل أو ما يشبه القفل ولكن بعقدة معقدة من حبل ذهبى، ولم تكن لهذه العقدة بداية ولا نهاية فيما يبدو فلم تكن هناك عقدة عقدت بمثل هذه المهارة ولا بمثل هذه الكثرة من اللف والدوران، وكأنما هى تتحدى فى خبث أمهر الأصابع أن تحلها، ومع ذلك فإنها بهذه الصعوبة نفسها كانت تغرى پاندورا بأن تفحصها وبأن ترى بنفسها كيف عقدت تعقيدا، وانحنت على الصندوق مرتين أو ثلاثا، وأمسكت بالعقدة بين سبابتها وإبهامها دون أن تجرب فى صراحة حلها.

وقالت لنفسها: «يبدو لى حقا أنى بدأت أعرف كيف عقدت هذه العقدة، بل إنى لأظن أنه فى استطاعتى أن أعيدها كما كانت بعد أن أحلها، وهل يمكن أن يكون هناك بأس من أن أحلها وأعيد تعقيدها

من جديد، إن ابيميثيوس نفسه لا يمكن أن يلومنى على شىء من هذا، وليس من الضرورى أن أفتح الصندوق ، بل يجب ألا أفعل شيئا من هذا دون موافقة الصبى العبيط حتى ولو استطعت أن أحل العقدة».

كان من الأفضل أن تكون على پاندورا بعض الأعباء، أو أن يكون لديها أى شىء يشغل بالها حتى لا تظل تفكر باستمرار فى هذا الموضوع الواحد بعينه، ولكن هؤلاء الصبية كانوا يعيشون عيشة سهلة لينة قبل أن تولد «الهموم» على هذه الأرض، بحيث إنهم كانوا فعلا يتمتعون بفراغ كبير، أكبر مما كان يجب لمثلهم، فلم يكن من الممكن أن يظلوا دائما أبدا يلعبون لعبة الاستخفاء وراء أشجار الورد، أو لعبة استغفال الأعمى وهم يغطون أعينهم بأكاليل الزهر، أو أية لعبة أخرى من الألعاب التى كانت تعرف أيام كانت أمنا الأرض لا تزال فى طفولتها، وعندما تكون الحياة كلها لعبا فإن الشقاء أو الكد يكون هو اللعب الحق لأنه التسلية الخارجية عن المألوف، لم يكن لدى هؤلاء الصبية ما يعملونه، قد يكون هناك قليل من التنظيف من الكنس أو المسح حول الكوخ وجمع بعض من الزهور النضرة، وما كان أكثرها فى كل مكان ، لتوضع فى أوانى الزهر داخل الكوخ، ثم هذا هو كل ما كان على پاندورا أن تقوم به طوال اليوم، فلم يعد بعد ذلك ما يشغلها سحابة يومها سوى الصندوق.

ولست متأكدا كل التأكيد من أن الصندوق لم يكن نعمة عليها من هذه الناحية، فلقد أمدها بوفرة من الأفكار المنوعة لتفكر فيها

وتتحدث عنها كلما أتيح لها أن تحدث من ينصت إليها، فإذا كانت في حال نفسية طيبة فإنها كانت تعجب بلمعانه وببريق جوانبه وبهذه الحوافي الثمينة المزدحمة بالوجوه الجميلة وأوراق الشجر الوفيرة المحفورة عليه من كل جوانبه، أما إذا كانت حالتها النفسية سيئة فإنها كانت تدفعه بعيدا عنها وتركله برجلها الصغيرة العنيدة، لكم تلقى الصندوق من لكمات وركل! ولقد كان صندوقا لعينا كما سنرى، وكان يستحق كل ما أصابه من ضر وأذى ، ولكن الذى لا شك فيه أنه لولا هذا الصندوق ما كانت پاندورا ذات العقل الناشط الدائب على التفكير لتجد ما يملأ عليها الفراغ مثلما ملأ عليها الفراغ هذا الصندوق.

وكانت عملية لا تنتهى، عملية الحدس والتخمين تلك، والتفكير فيما يحويه هذا الصندوق، حقا ماذا يمكن أن يحوى؟ تصوروا، مستمعى الصغار، كيف كانت عقولنا ستعمل إذا كان هنا فى البيت صندوق كبير يحوى، كما يحق لكم أن تظنوا أنه يحوى، شيئا جميلا جديدا هدية لكم فى عيد الميلاد أو فى عيد العام الجديد، أتظنون أنكم كنتم ستكونون أقل حب استطلاع من پاندورا ؟ وإذا ما تركتم وحدكم مع الصندوق ألا تظنون أنه يمكن أن تغروا إغراء ما برفع الغطاء، ولكنكم لم تكونوا لتفعلوا شيئا من هذا، يا للعار أبدا! إلا إذا كنتم تظنون أنه يحوى لعبا طريفة فإنه سيكون من العسير عليكم أن تدعوا الفرصة تمر بكم دون أن تسترقوا النظر إليه ولو لمحة سريعة خاطفة عما بداخله من بين ارتفاعة صغيرة للغطاء عن الصندوق، ولست أدرى إذا ما كانت پاندورا تتوقع أن تجد لعبا، فأكبر الظن أن

اللعب لم تكن قد بدأت تصنع أيام كان العالم كله لعبة كبيرة يلعب بها الأطفال الذين عاشوا فيه، ولكن پاندورا كانت واثقة من أن شيئا جميلا جدا وثمينا جدا لأن تختلس نظرة إلى ما بداخله، كما كان يمكن لهؤلاء البنات الصغار من حولى أن تكن مشتاقات لو أنهن كن فى موقفها، بل إنهن قد يكن أكثر شوقا منها وإن كنت لا أدرى ذلك على وجه التحديد.

ولكن فى هذا اليوم الذى أكثرنا الحديث عنه أحست پاندورا إن حب الاستطلاع عندها قد فاق كل يوم سبق، حتى أنها لم تقو آخر الأمر أن تمنع نفسها من أن تقترب من الصندوق، وكانت قد صممت تصميما نهائيا تقريبا أن تفتح الصندوق لو أنها استطاعت ذلك، يا لها من خبيثة شقية!!.

جربت أول الأمر أن ترفع الصندوق ولكنه كان ثقيلا، أثقل مما تستطيع قوى طفلة نحيفة مثل پاندورا أن ترفع، ولكنها رفعت ركنا من الأركان بعض الشيء عن الأرض ثم تركته يسقط دفعة واحدة فأحدث صوتا مكتوما مزعجا عاليا، وبعد برهة خيل إليها أنها تسمع صوت شيء يضطرب داخل الصندوق فألصقت به أذنها محاولة، ما استطاعت ، أن تتسمع شيئا، لا شك أنه كان هناك صوت يشبه الهمهمة المخنوقة، أيكون الصوت صفيرا فى أذن پاندورا ؟ أم هو صوت ضربات القلب؟ ولم تستطع پاندورا أن تجزم جزما تاما، أسمعت صوتا حقا أم أنها لم تسمع إلا صفير الأذن وضربات القلب، وعلى أية حال فلقد ازداد حب الاستطلاع عندها حتى أصبح أقوى منه فى أى وقت مضى.

ولما رفعت رأسها من على الصندوق وقع نظرها على العقدة والحبل الذهبى فقال لنفسها: « لا شك أنه عبقرى هذا الذى عقد هذه العقدة، ولكنى أظن أنى أستطيع أن أحلها رغم ذلك، لقد صممت أن أجد على الأقل طرفى هذا الحبل الذهبى».

وأخذت العقدة الذهبية بين أصابعها وحاولت أن تتفرس فى ثناياها بأقصى ما تستطيع من جهد، ودون أن تتعمد أو تعرف تماما ماذا هى فاعلة شغلت لتوها بحل العقدة، وفى هذه اللحظة كانت الشمس المشرقة قد نفذت بشعاعها من النافذة، كما نفذت أصوات الأطفال المرحة وهى تلعب من بعيد، ومن يدرى لعل صوت ايبميثيوس كان من بينها، وتوقفت پاندورا وأرهفت السمع، ألا ما أجمل اليوم! أليس من الحكمة أن تترك هذه العقدة وشأنها وألا تفكر بعد ذلك فى الصندوق أبدا؟ أليس الأفضل أن تعود لتلحق بالرفاق ولتسعد معهم.

ولكن أصابعها ، دون أن تدرك ذلك، كانت مشغولة بحل العقدة، ولما وقع نظرها مصادفة على الوجه المكلل بالورد الذى يحلى غطاء الصندوق السحرى خيل إليها أن الوجه إنما يبتسم فى فتور وجمود، وفكرت پاندورا فى الأمر «إن هذا الوجه فيما يبدو فى غاية الخبث، ترى هل يبتسم لأنى ارتكب خطأ، إنى لأفكر جديا فى أن أعدو هاربة».

ولكن فى نفس هذه اللحظة وبمجرد المصادفة البحت لوت العقدة لية فإذا النتيجة باهرة، لقد حل الحبل الذهبى عقدته بنفسه وكأنما تم ذلك بسحر ساحر، وفجأة أصبح الصندوق بلا عقدة تقفل عليه الغطاء، وصاحت پاندورا : «هذا أعجب ما صادفنى فى الحياة، ترى

ماذا سيقول ابيميثيوس وكيف يمكن أن أعيد العقدة كما كانت؟».

وحاولت مرة أخرى أن تعقد العقدة ولكنها ما لبثت أن أحست أن هذا العمل فوق طاقتها، إن العقدة حلت نفسها فجأة بحيث أنها أحست أنها لاتستطيع بحال أن تتذكر كيف كانت الخيطان تلتف وتتداخل، وعندما حاولت أن تتذكر شكل العقدة ومنظرها أحست أن صورتها كلها قد محيت من ذاكرتها محوا تاما، ولم يعد هناك ما يمكن أن تعمله، ولم يبق أمامها إلا أن تترك الصندوق على حاله تلك إلى أن يعود ابيميثيوس.

ولكن عندما يعود سيجد العقدة محلولة وسيتأكد إذ ذاك أن پاندورا هى التى حلتها، وأنى لها بعد ذلك أن تقنعه أنها لم تختلس نظرة إلى ما بداخل الصندوق وطافت الفكرة الخبيثة بعقلها الصغير وهى أنه ما دامت ستتهم بأنها نظرت إلى ما بداخل الصندوق فلماذا لا تنظر بالفعل وفى الحال، ألا ما أخبثك يا پاندورا الغريرة وما أشد غفلتك! كان يجب ألا تفكرى إلا فى أن تعملى الصواب والحق وتتجنبى الخطأ والضلال ، كان يجب ألا تفكرى فيما سيقوله رفيقك الصغير أو سيعتقد، ومن يدرى لعلها كانت ستتصرف على هذا النحو، بالفعل لولا أن الوجه السحرى على الغطاء نظر إليها فى إغراء ساحر، بل لولا أنها أحست أنها تسمع بأوضح مما سمعت من قبل همهمة الأصوات داخل الصندوق، ولم تستطع أن تجزم أكان ذلك تخيلا أو واقعا حقيقيا، ولكن شيئا من همس لجب كان يقرع أذنها، ولكن من يدرى لعله حب الاستطلاع هو الذى كان يهمس فى أذنيها قائلا: «پاندورا أخرجينا، نتوسل إليك أطلقى سراحنا سنكون رفقاءك فى اللعب طيعين لأمرك لو أنك أطلقت سراحنا».

وتـأملـت پانـدورا المـوقف: «مـاذا يمـكن أن يـكـون هـذا؟ هل فى الصـنـدوق كـائن حـى؟ لقد صـمـمت أن أخـتـلس نـظرة واحـدة سـريـعة، نظرة خـاطفة وسيقفل الغطاء بعدها فى أمان، وإلى الأبد. لا يمكن أن يكون ثمة ضرر من مجرد إلقاء نظرة سريعة خاطفة» ويجدر بنا الآن أن نعود لنرى ماذا كان يفعل ابيميثيوس فى هذه الآونة.

كانت هذه هى أول مرة ، منذ جاءت رفيقته الصغيرة لتعيش معه، يحاول فيها أن يتذوق شيئا من المتعة دون أن تشاركه فى إياها، ولكن الأمور كلها سارت على عكس ما كان يريد، لم يشعر الصبى بنفس السعادة التى كان يشعر بها فى الأيام السابقة، بل لم يعثر على عنبة عذبة ولا تينة طيبة واحدة، وإن يكن هناك ما يعاب على هذا الصبى، فقد كان شغفه الزائد بثمار التين. ولكنه كان إذا وجد تينة فى هذا اليوم فإنها كانت أنضج مما يجب بحيث تصبح حلاوتها مفقدة للشهية، ولم يحس فى قلبه البهجة التى كانت تدفع بصوته الرقراق متدفقا لتترع بهجة الرفاق بعذوبته وامتلائه، لقد أصبح فى اختصار برما قلقا حتى أن الصبية الآخرين لم يستطيعوا أن يتبينوا ما خطبه، بل إنه هو أيضا لم يدرمثلهم ما الذى أصابه، ذلك أنه ، كما لابد أن تذكروا ، كان من طبيعة الناس جميعا فى هذا الزمان الذى نتحدث عنه أن يكونوا سعداء أبدا ، كانت السعادة عادتهم التى يسيرون عليها ، فالعالم لم يكن بعد قد تعلم أن يكون على حال غير حال السعادة، ومنذ أرسل هؤلاء الصبية والأطفال لأول مرة ليمتعوا أنفسهم على هذه الأرض لم يحدث أن أشتكى كائن منهم المرض أو التعب أوالضيق.

وبعد حين اكتشف الصبى أنه ما كاد يبدأ لعبة حتى ينهيها لذلك قرر أنه من الأفضل أن يعود إلى پاندورا لأن مزاجها أوفق ما يناسب مزاجه، ولكى يدخل السرور على قلبها جمع بعض الأزهار وصنع منها أكليلا ليزين به رأسها، وكانت الزهور فى غاية الجمال: ورود وزنبق وزهر برتقال وأزهار أخرى كثيرة ذكية الرائحة يظل عبيرها عالقا يعبق بعد أن يكون الصبى قد سار بها، وهو يحملها، من مكان إلى آخر، وكان الإكليل نفسه دقيق الصنع كأبدع ما يمكن أن يتقن صبى فى مثل سنه لا شك أن أصابع البنات أليق بصنع هذه الأكاليل الدقيقة، ولكن الصبيان فى ذلك الزمان كانوا يستطيعون أن يتقنوا هذه الصناعة الدقيقة أكثر مما يستطيع أمثالهم فى أيامنا هذه.

ولا بد لى من أن أذكر سحابة كانت تتجمع من هنا ومن هناك حول الشمس ، وإن تكن لم تستطع بعد أن تحجبها حجبا تاما. وفى اللحظة التى وصل فيها الصبى إلى باب الكوخ كانت السحابة قد بدأت فعلا تعترض شعاع الشمس وتحدث لذلك ظلمة مفاجئة حزينة.

ودخل الصبى على حذر فقد كان يريد أن يتسلل إلى وراء پاندورا ليرمى بالإكليل فوق رأسها قبل أن تحس بوصوله.

ولكن من الواضح أنه لم يكن فى حاجة أبدا لأن يتسلل فى حذر. فلو أنه قرع الأرض قرعا بأقصى ماعنده من قوة، بل بأقصى ما عند رجل من قوة، وأكاد أقول بأقصى ما عند فيل لا إنسان من قوة، ما كانت پاندورا فى أغلب الظن تشعر به، لقد كانت مستغرقة كل الاستغراق فيما عزمت عليه، ففى نفس اللحظة التى وطئت قدمه

عتبة الكوخ كانت الصبية الشقية قد وضعت يدها على الغطاء وهى على وشك أن تفتح الصندوق، ورآها الصبى، ولو أنه صرخ لكان من المحتمل أن تتقهقر پاندورا، ولظل سر الصندوق المشئوم مغلقا إلى اليوم.

ولكن الصبى نفسه، وإن يكن لم يتكلم إلا قليلا، كان له نصيبه من حب الاستطلاع هو الآخر، فكان يريد أن يعرف ماذا فى الصندوق، ولما رأى أن پاندورا مصممة على أن تطلع على السر، قرر أن رفيقته لن تكون وحدها العليمة ببواطن الأمور فى هذا الكوخ، فإذا كان فى النصدوق شىء جميل أو ثمين فلا بد له من أن يأخذ النصف نصيبا له، وهكذا بالرغم من كل خطبه الحكيمة التى ألقاها على پاندورا ظهر أنه لا يقل عنها غفلة بل لا يقل عنها رغبة فى ارتكاب الخطأ، ولذلك إذا كان لنا أن نلوم پاندورا على ما حدث ففى كل مرة نصب عليها اللوم لا بد من أن نشرك زميلها ايپميثيوس أيضا معها.

وبينما كانت پاندورا ترفع الغطاء أظلم الكوخ وساده جو بائس مكفهر لأن السحابة السوداء كانت قد استطاعت أن تحجب الشمس حجبا تاما حتى لكأنها دفنتها وهى حية، وكانت هناك همهمة ودمدمة ضعيفتان انفجرتا دفعة واحدة فى شكل زمجرة مدوية من الرعد، ولكن پاندورا لم تعبأ بشىء من كل هذا، ورفعت الغطاء عموديا ونظرت إلى داخل الصندوق ، وانطلق سرب من الكائنات المجنحة مارا من فوق رأسها فى صعوده هاربا من الصندوق، وفى نفس الوقت سمعت صوت رفيقها الحزين يتأوه ويتألم صارخا : لقد لدغت

يا باندورا اللعينة، لماذا فتحت صندوق الشر هذا؟

وتركت باندورا الغطاء يسقط من بين يديها والتفتت بسرعة لترى ما الذى أصاب الصبى، وكانت السحابة المشبعة بالرعد قد أظلمت الغرفة إلى حد أن باندورا لم تعد تميز ماذا فيها. ولكنها سمعت طنينا فظيعا وكأنما طائفة عديدة من الذباب أو من البعوض الضخم أو من هذه الحشرات القارصة النهمة قد انطلقت فى الغرفة انطلاقا.

ولما اعتاد نظر باندورا الصغيرة الضوء الضئيل فى الغرفة استطاعت أن تميز مجموعة كبيرة من الأشكال القبيحة لها أجنحة كأجنحة الوطاويط وعليها كل مظاهر الغل والغيظ وقد تسلحت كل منها بزبانى ضخم فى ذيلها، إنها واحدة من هذه هى التى لدغت الصبى، ولم يمض وقت طويل حتى كانت باندورا نفسها تصرخ هى الأخرى فى ألم وخوف لا يقلان عما انتاب رفيقها منذ لحظة، بل إنها فاقته صراخا وصخبا، لقد استقر الشيطان البشع على جبينها وكان من اليسير أن يلدغها لدغة مؤذية نافذة لولا أن الصبى أسرع وهش الشيطان من على جبينها.

فإذا أردتم أن تعرفوا ماذا يمكن أن تكون هذه المخلوقات البشعة التى انطلقت من الصندوق فلا بد لى من أن أخبركم أنها الأسرة الكاملة لما نسميه «هموم» أرضنا هذه ومتاعبها، لقد كانت هى الإحساسات الشريرة وطائفة كبيرة منوعة من القلق والاضطرابات ، من بينها مائة وخمسون نوعا من الأحزان وأمراض منوعة وطائفة عديدة من صنوف الألم، كانت منها ألوان من الشقاوة والعناد لا حصر لها ولا داعى للتفصيل فى أمرها ، وفى اختصار إن كل ما

أصاب الإنسان في جسمه أو في روحه منذ ذلك الزمان كان محبوسا في هذا الصندوق المسحور ، وقد سلم لپاندورا وإپيميثيوس ليحافظا عليه حتى لا تصاب بشيء مما فيه أبدا أطفال العالم السعداء، فما كان لإنسان أن يحزن أو لطفل أن يذرف دمعة واحدة منذ ذلك الزمان إلى اليوم لو لم يفتح هذا الصندوق.

ولعلكم ترون مما حدث كيف أن خطأ واحدا يرتكبه إنسان ما يصيب العالم كله بخطب فادح، فلمجرد أن پاندورا رفعت غطاء هذا الصندوق التعس ولمجرد أن رفيقها لم يمنعها أوجدت هذه الهموم والأحزان لنفسها مكانا بيننا ، والظاهر أنها لا تتعجل الرحيل أبدا، فليس من المستطاع ، كما يمكن أن تستنتجوا، أن يحتفظ الصبيان بهذا السرب الفظيع في كوخهما ، لقد فتحا النوافذ والأبواب كلها، بأمل أن يتخلصا منها، وانطلقت هذه «الهموم» المجنحة في الفضاء ولا شك، وأصابت الصغار حولها وعذبتهم وآلمتهم حتى أنه لم يستطع صغير منهم أن يبتسم طوال أيام عديدة تلت، والأعجب من هذا أن الزهور الندية والثمار الطيبة على الأرض التي لم تذبل في يوم من الأيام أو تفسد، بدأت تتدلى وتسقط أوراقها بعد يوم أو يومين ، والأطفال الخالدون في طفولتهم والصبية الخالدون في صباهم كبروا وظهرت عليهم علامات تقدم السن وإذا هم شبان وشابات ثم رجال ونساء وأخيرا شيوخ وعجائز ، قبل أن يدور بخلدهم حقيقة ما أصابهم من هول.

وظلت پاندورا الملعونة في الوقت نفسه هي وإپيميثيوس ، الذي لا يقل عنها استحقاقا للعنة، في الكوخ لا يبرحانه، كل منهما قد لدغ

لدغة قاسية وكان يعانى ألما مبرحا زاد فى تباريحه أنه أول ألم أحسه إنسان منذ بدء الخليقة، وبديهى أنهما لم يكونا قد تعودا مثل هذا الألم ولذلك لم يخطر ببالهما ماذا يمكن أن يعنى هذا الألم، وإلى جانب هذا كان مزاجهما قد فسد فسادا تاما فلم يعد منهما من يطيق نفسه أو يطيق زميله، وجلس الصبى فى ركن وقد أدار ظهره نحو پاندورا ليعبر لها عن أقصى ما يحس من ألم، بينما مددت پاندورا نفسها على الأرض وقد أسندت رأسها إلى الصندوق المشئوم، كانت تبكى بكاء مرا وتتنهد من قلب يكاد ينفطر.

وفجأة سمعا طرقا خفيفا على الغطاء من الداخل، فسألت پاندورا وقد همت برأسها : «ترى ماذا يمكن أن يكون؟»

أما ابيميثيوس فهو إما أنه لم يسمع الطرقة أو أنه كان قد فقد الاهتمام بكل شىء فلم يلحظ شيئا، وعلى كل حال فإنه لم يجبها بشىء، فقالت له پاندورا من بين زفراتها: « إنك فى غاية القسوة لأنك لا ترد على».

ومرة أخرى سمعت الطرقة، وكأنما هى عقل أصابع جنية دقيقة تطرق فى خفة لاهية على جدار الصندوق من الداخل. فسألت پاندورا وقد استعادت شيئا من حب استطلاعها الأول: «من أنت؟» من أنت يا من بداخل الصندوق اللعين؟ وانبعث صوت خافت عذب يقول:

«ارفعى الغطاء ليس غير، وسترين بنفسك » فصاحت پاندورا وقد استأنفت البكاء: «كلا ، كلا، لقد نالنى من رفع الغطاء ما يكيفينى، إنك أيها المخلوق اللعين بداخل الصندوق وستظل هناك أبدا، لقد

ملىء العالم بما يكفيه من إخوانك البشعين وأخواتك البشعات، عليهم جميعا اللعنة، وعلى ذلك فلا تظن أبدا أنى سأكون من الغفلة بحيث أطلق سراحك أنت أيضا».

والتفتت نحو الصبى وهى تتكلم منتظرة فيما يلوح أن يمتدح حكمتها ويطريها، ولكن الصبى الغاضب لم يزد على أن يتمتم بأن حكمتها الحكيمة إنما تجلت بعد فوات الأوان.

وأستأنف الصوت العذب قوله: «يجدر بك أن تطلقى سراحى، فأنا لست كهذه المخلوقات اللعينة التى تحمل زبانيها فى ذيلها، إنها ليست إخوتى ولا أخواتى، ويمكنك أن تتحققى من ذلك بنفسك فى الحال لو أنك اختلست نظرة إلى، هلم پاندورا الجميلة، أنا واثقة من أنك ستطلقين سراحى».

وكان فى رنة الصوت شىء من الاستبشار الساحر جعل من المستحيل تقريبا أن يرفض طلب لصاحب هذا الصوت، ودون أن تلحظ پاندورا الأمر أخذ الهم يخف كثيرا من على صدرها لكل كلمة كانت تخرج من هذا الصندوق ، بل إن ابيميثيوس نفسه وأن يكن لا يزال منزويا فى الركن قد أدار وجهه نحو الصندوق وشعر بشىء من التحسين فى مزاجه، وقالت پاندورا : «هل سمعت يا عزيزى هذا الصوت؟».

فأجاب وما زال الغضب باديا عليه: «سمعت قطعا وماذا فى هذا؟» فسألته پاندورا: «وهل أرفع الغطاء مرة أخرى؟» فقال لها: « كما تريدين، لقد قدمت بالفعل إلى الآن من الشر ما لو زدته قليلا ما ضر ذلك شيئا، إن هما جديدا يضاف إلى هذا السرب العديد من

الهموم الذى أطلقته على العالم لا يمكن أن يغير من الأمر شيئا» فغمغمت پاندورا وهى تجفف دموعها :« أحرى بك أن تصطنع معى شيئا من الرقة والذوق».

فعلق الصوت من داخل الصندوق فى نغم ماكر ضاحك: «يا لك من صبى شقي، إنك واثق من أنك تتوق إلى أن تراني، تعالى يا عزيزتى پاندورا وارفعى الغطاء، فأنا متلهفة لأن أسرى عنك، أتيحى لى قليلا من الهواء النقى وسترين أن الأمور لم تبلغ من السوء هذا الحد الذى تظنين أنها قد وصلت إليه».

وصاحت پاندورا: «فليكن ما يكون يا ابيميثيوس، لقد صممت على أن أفتح الصندوق» وصاح الصبى وهو يعدو نحوها «وبما أن الغطاء ثقيل فيما يبدو فأنى سأساعدك»

وبتصميم واحد رفع الصبيان الغطاء من جديد وإذا مخلوقة صغيرة مشرقة باسمة تحلق فى سقف الغرفة ناشرة النور أينما حلت.

ألم تجربوا يا صغار كيف ترقصون ضوء الشمس فى الزوايا المظلمة بأن تعكسوا أشعة الشمس على مرآة صغيرة، هكذا بدت البهجة المجنحة التى أشعتها فى ظلام الكوخ تلك الزائرة العجيبة التى تشبه الجنيات، لقد طارت نحو الصبى وما كادت تلمس بأصبعها الجزء الملتهب حيث لدغه الهم حتى زال الضيق الذى يعانيه، ثم قبلت پاندورا فى جبينها فإذا ألمها المبرح قد شفى هو الآخر.

وبعد أن أدت هذه المهام الطيبة رفرفت الغريبة المتلألئة فوق رأس

الصبيين فى خفة وأخذت تنظر إليهما فى حنان عذب حتى بدأ يظنان أن فتح الصندوق لم يكن شرا كبيرا على أية حال، لأنه لو لم يفتح لظلت هذه الزائرة المستبشرة حبيسة مع السرب اللعين من الشياطين ذات الزبانى فى ذيلها.

وسألت پاندورا: «من فضلك، من تكونين أيتها المخلوقة الجميلة؟» فقالت المخلوقة المشرقة: «ادعونى الأمل، ولأنى مخلوقة صغيرة فرحة مبهجة فقد عبأونى فى الصندوق لكى أخفف عن الجنس البشرى شر هذا السرب من الهموم البشع الذى قدر له أن يطلق على الإنسانية كلها، لا تخافا شيئا فإنا سنسير فى حياتنا سيرا حسنا بالرغم منها جميعا».

وصاحت پاندورا فى عجب: «إن جناحيك فى لون قوس قزح، ألا ما أجملهما!».

فقال أمل: «نعم إنهما فى لون قوس قزح لأنى، وإن تكن طبيعتى هى البهجة والسرور، قد صنعت من مزيج من الدموع والابتسامات».

وسألها الصبى: «أو ستمكثين معنا دائما أبدا»

فقالت أمل بابتسامتها العذبة: « نعم أمكث معكما ما دمتما فى حاجة إلى، ومعنى هذا أنى سأمكث معكما مادمتما تعيشان على هذه الأرض، وأنى لأعدكما ألا أتخلى عنكما أبدا، ستمر بكما مواسم وأوقات، بين حين وآخر ، تظنان فيها أنى اختفيت اختفاء تاما، وستريان مرة بعد أخرى لألاء جناحى يضىء لكما سقف كوخكما هذا فى الوقت الذى لم أكن قد مررت فيه بخاطركما ولم أظهر لكما ولا فى الأحلام، نعم يا ابنى الصغيرين سيحدث هذا ، وأنا أعرف

يقينا أنكما ستمنحان شيئا طيبا جدا وجميلا للغاية فيما بعد».

وصاحا معا: «ماذا؟ قولى لنا ما هو هذا الذى سنمنحه؟» وأجابت أمل وقد وضعت أصبعها على فمها الوردى لتقفله: «لا ، لا تسألانى ولكن لا تيأسا أبدا، وحتى لو لم تمنحا هذا الشيء على هذه الأرض آمنا أبدا بهذا الوعد، إن وعدى هو الحق».

وصاحت پاندورا مع ابيميثيوس فى نفس واحد: «إننا لنؤمن بك ونصدقك».

وهكذا آمنا بها، ولم يؤمنا بها وحدهما وإنما آمن «بأمل» كل من عاش منذ ذلك الزمان، وأقول لكم الحق يا صغارى إنى لا أملك نفسى من أن أفرح لأن پاندورا المغفلة اختلست النظر إلى ما بداخل الصندوق، وإن تكن فعلتها التى أقدمت عليها فعلة ملعونة حقا، لا شك ولا ريب فى أن الهموم ما زالت ترفرف على العالم، وقد تزايدت تزايدا مضاعفا بدل أن تقل، ولا شك أيضا أنها مجموعة بشعة من الشياطين ، وأنها ما زالت تحمل الزبانى السام اللعين فى ذيلها، لقد لدغت من هذا الزبانى وأظن أنى سوف ألدغ مرات ومرات كلما تقدمت بى الأيام، ولكن هناك هذا المخلوق الدقيق الجميل المضيء «أمل» لنا الله ماذا كنا نستطيع لولاها: إن «أمل» تبعث فى الأرض روحانية، إنها تجدد شباب هذه الأرض، ولكن إذا تجلت الأرض فى أبهى مظاهرها وأروعها فإن «أمل» تجعلها تبدو وكأنها مجرد ظل من الجنة الأزلية، تلك الجنة التى ستكون وستظل دائما أبدا.

غرفة اللعب فى تانجلوود
(ما بعد قصة جنة الأطفال)

وسأل يوستيس زهرة الربيع وهو يقرص أذنها:

«وما رأيك فى پاندورا ؟ ألست ترين فيها صورة طبق الأصل منك، وإن كان الأرجح أنك لم تكونى لتترددى نصف هذا التردد فى فتح الصندوق».

فردت عليه زهرة الربيع فى ذكاء: «لو فعلت ذلك لعوقبت على شقاوتى أيما عقوبة، لأن أول ما كان سيبرز لى من الصندوق بمجرد أن أرفع الغطاء هو السيد يوستيس برايت فى صورة هم من الهموم».

وقال الخنشار: «يا ابن العم يوستيس وهل ضم الصندوق كل هم جاء إلى العالم منذ ذاك؟»

فأجابه: «كل ذرة من الهموم حتى هذه العاصفة الثلجية التى أفسدت على متعة الانزلاق، كانت معبأة فى هذا الصندوق»

وسأل الخنشار: «وكم كان حجم هذا الصندوق» فقال يوستيس: «ربما ثلاث أقدام طولا فى قدمين عرضا فى قدمين ونصف ارتفاعا».

فقال الصبى : «أعرف يا ابن العم أنك تسخر منى فأنا واثق من أنه ليس فى العالم كله هموم يمكن أن تملأ صندوقا بهذا الحجم، أما العاصفة الثلجية فإنها ليست هما بالمرة، إنها متعة وبهجة، وعلى ذلك فلا يمكن أن تكون قد وجدت بداخل الصندوق»

فقالت زهرة الربيع فى شىء من الاستعلاء: «اسمعوا هذا الطفل، ماذا يعرف هو عن هموم الدنيا ، يا للمسكين ! سيكون أكثر فهما وإدراكا عندما يرى من الحياة ما رأيت أنا منها».

وما كادت تنهى كلامها حتى أخذت الحبل لتقفز على دوراته لاعبة.

وفى أثناء ذلك كان النهار يقترب من نهايته، وأخذت الطبيعة تبدو موحشة مكفهرة خارج البيت، وعصفت رياح رمادية ملأت أرجاء المكان طولا وعرضا فى الغسق، حتى بدت الأرض بلا علامات ولا طرق وكأنما هى الهواء الذى يغلفها، وكومة الثلج على سلم عتبة الدار تنبئ أنه لم يدخل البيت أحد ولم يخرج منه أحد طوال الساعات الأخيرة الطويلة، ولو أن طفلا وحده هو الذى كان فى تانجلوود يطل من النافذة على هذا المنظر الشتوى لكان الجو خليقا بأن يدخل الحزن إلى قلبه، ولكن ستة من الصبية مجتمعين قد يعجزون عن أن يحولوا العالم إلى جنة، ولكنهم لن يعجزوا عن أن يتحدوا الشتاء الهرم بكل زوابعه وعواصفه أن يعكر مزاجهم أو يضايقهم ، أضف إلى ذلك أن يوستيس برايت بوحى من الساعة قد اخترع لهم من صنوف الألعاب ألوانا جديدة جعلتهم يغرقون فى خضم من الابتهاج الصاخب، حتى حان موعد النوم، بل لقد تبقى من الألعاب ما يكفى لأن يسليهم فى اليوم التالى العاصف أيضا.

المدفأة فى تانجلوود
(مقدمة قصة التفاحات الذهبية الثلاث)

واستمرت العاصفة الثلجية يوما آخر. ولكن ماذا حدث لها بعد ذلك ؟ أنى لى أن أعرف؟... لقد انقشعت أثناء الليل على كل حال، ولما بزغت الشمس فى الصباح التالى غمر شعاعها البراق الطريق المنحدر من الجبل هنا فى «بركشير» فظهر لونه الأسود فى وضوح كما يظهر أى طريق آخر فى أى مكان من الأرض.. وغطى الصقيع زجاج النوافذ بحيث أصبح من العسير أن نلمح منظر الطبيعة فى الخارج من خلاله... ولكن أثناء انتظار الإفطار ، حفر جمهور تانجلوود من الصغار حفرا صغيرة بأظافرهم، ورأوا فى ابتهاج شديد أنه فيما عدا بقعة أو بقعتين صغيرتين علي سفح التل الهاوى وأثر الثلج الرمادى المختلط بسواد شجر الصنوبر فى الغابة فإن الطبيعة كلها كانت بيضاء بياض القطن.

ألا ما أبهج المنظر! ومما زاد فى بهجة هذا الصباح أن الجو كان

باردا جدا بحيث يحس الإنسان أن أنفه قد انفصل عن وجهه. ولو توافر للناس من الحيوية فى عروقهم ما يمكنهم من احتمال البرد فليس مثل الصقيع الجامد اللامع البراق شىء يرفع من الروح المعنوية ويرقص الدم فى عروق الجسم فى خفة ورشاقة وسرعة، مثلما يرقص الجدول الصغير المنحدر فى اندفاع من على سفح التل.

ولم يكد الإفطار ينتهى حتى اندفعت الجماعة كلها إلى قلب الثلوج... وقد التفت بالصوف وتدثرت بالفراء.. ألا ما أبهج اللعب بالثلج فى يوم كهذا اليوم، لقد انزلق الصغار من أعلى التل لمئات المرات موغلين فى الوادى ، دون أن يدرى أحد إلى أى مدى توغلوا، ولكى يضيفوا إلى مرحهم مرحا كانوا يقلبون عربات الانزلاق وآلاته رأسا على عقب ليتدحرجوا فى اضطراب، فتكون فرحتهم أشد عندما يصلون إلى قاع الوادى سالمين، وأخذ يوستيس برايت مرة معه فى عربته زهرة الفجر والخنشار وزهرة الليمون حتى يضمن لهم انزلاقا آمنا، ثم انحدر بهم بأقصى سرعة... وفى منتصف الطريق صدموا بكثيب لم يروه فتناثر الركاب الأربعة وسقطوا على كومة من الثلج، فلما جمعوا أنفسهم لم يعثروا على زهرة الليمون... ترى ماذا حدث للصغيرة؟ وبينما كانوا فى دهشة يتطلعون فيما حولهم، طلعت عليهم زهرة الليمون من قلب جرف من الثلج وقد احمر وجهها إلى أقصى حد يمكن أن يصل إليه احمرار وجه، فبدت وكأنها زهرة كبيرة حمراء قد نبتت فجأة إبان الشتاء، عندئذ علت الأصوات بالضحك والابتهاج.

ولما تعبوا من الانزلاق شغل يوستيس برايت الصغار بحفر مغارة

عند أعمق منسف للثلج أمكنهم أن يعثروا عليه... ولكن لسوء الحظ ما كاد حفر المغارة يتم، وقد حشرت الجماعة نفسها فى تجويفها ، حتى سقط سقفها على رءوسهم ودفنوا جميعا أحياء فى الثلج، وبعد برهة بدأت رءوسهم الصغيرة تطل من بين خرائب المغارة المنهارة وفى وسطهم رأس الطالب طويل القامة، وقد بدا وقورا أشيب فقد تخللت ندف الثلج ثنيات شعره البنى المجعد. ولكى يعاقبوا ابن العم يوستيس على ما أشار به عليهم من حفر مغارة آيلة للسقوط كهذه هاجموه بقبضات من الثلج مجتمعين كلهم عليه حتى ود لو استطاع أن يفر منهم، لكنه قد هرب فعلا منهم إلى شاطئ الجدول الظليل حيث يستطيع أن ينصت إلى الجدول وهو يترقرق من تحت الصقيع المتجمد على صفحته، وقد حجب الصقيع عن النهر نور النهار فلم يعد يوستيس يستطيع أن يراه إلا لماما ومن بين الفجوات. وكانت هناك قطع صلبة متجمدة تلمع براقة حول مساقط جدول، ومن هنا سار يوستيس الهوينا على حافة الجدول حتى رأى واديا أبيض، لم يمر به أحد من قبل، يمتد من أمامه عند قدميه إلى جبل «مونمونت» وكانت الشمس قد قاربت المغيب، فأحس الشاب أنه لم ير فى حياته شيئا يشبه هذا المنظر نضارة وجمالا، كم كان سعيدا أن الصغار ليسوا معه، لأن مرحهم وضجتهم وحركاتهم المضطربة كانت ستفسد عليه جلال الموقف بحيث لا يستطيع أن يشعر إلا بالمرح الذى شاركهم الإحساس به طوال اليوم، لقد كانوا بلا شك سيحرمونه متعة رؤية جمال غروب الشمس فى الشتاء من بين التلال.

ولما غابت الشمس نهائيا عاد صاحبنا يوستيس إلى البيت

للعشاء، ولما انتهى من وجبته دخل غرفة المكتب يريد فيما أرجح أن يؤلف أغنية أو مقطوعة شعرية أو مقطوعتين أو أبياتا من الشعر من أى نوع ليتغنى بجمال السحب البنفسجية المذهبة التى حفت بالشمس فى مغربها كما رآها.

ولكنه قبل أن يزن البيت الأول من شعره... انفتح باب غرفة المكتب ودخلت زهرة الربيع وزهرة الفجر.

وصاح الطالب فيهما: « إليكما عنى يا صغيرتى... إنى لا أستطيع أن أشغل نفسى بكما الآن».

وكان ينظر إليهما من فوق كتفه وقلمه لا يزال بين أصابعه حين أضاف: «لقد حسبتكم كلكم فى فراشكم نياما، ماذا بالله تريدان منى الآن؟».

فقالت زهرة الربيع: «أنصتى إليه، بالله عليك ، يا زهرة الفجر، وهو يتكلم كلام رجل كبير السن، إنه ينسى فيما يلوح أنى الآن فى الثالثة عشرة من عمرى وأنه من حقى وقد وصلت إلى هذه السن أن أسهر قدر ما أشاء ، إنك يا ابن العم يجب أن تخلع عنك ثوب الجد الذى تصطنعه وتأتى معنا إلى غرفة الجلوس ، لقد تحدث الأطفال عن قصصك حديثا طويلا إلى حد أن والدى يرغب فى أن يستمع إلى واحدة منها ليحكم بنفسه أهى مما يمكن أن يفسد الصغار أم لا».

وصاح الطالب وقد تضايق نوعا ما: «ماذا يا زهرة الربيع؟» أظن أنه لا يمكننى أن أقص قصصى هذه أمام رجل كبير السن مثل والدك، يضاف إلى ذلك أن والدك رجل متخصص فى الأدب القديم، وليس معنى هذا أنى أخشى علمه أو تخصصه فإنى واثق كل الثقة

أن علمه كالسيف المهجور فى غمده القديم، ولكنه سيلومنى ولا شك على هذه السخافات الباهرة التى أحشو بها هذه القصص والتى أخترعها اختراعا وهى سر هذا الجمال والسحر فى الموضوع بالنسبة لأمثالك من الأطفال، إن رجلا فى الخمسين من عمره كان قد قرأ هذه الأساطير الكلاسية القديمة كما هى فى شبابه لا يمكن أن يحمد لى ما اخترعه فى هذه الأساطير لأنوعها به»

فأجابته زهرة الربيع: «قد يكون كل هذا حقا... ولكن لا بد لك من أن تجىء معى، أن أبى مصمم ألا يفتح كتابه، وأمى مصرة ألا تفتح «البيان» إلا إذا قدمت لنا أنت شيئا من هذه القصص التى تسميها بحق سخافات، وعلى ذلك تعال معى وكن طيبا يا فتى».

مهما ادعى الطالب وتكلف فإن الذى لا شك فيه هو أنه بعد أن أدار الموضوع فى رأسه كان سعيدا أن ينتهز هذه الفرصة ليبرهن للسيد «برنجل» على عبقريته الفذة فى تجديد حياة هذه الأساطير القديمة.

إن الشاب فى سن العشرين قد يمنعه شىء من الحياء أن يعلن على الناس ما يؤلف من شعر أو نثر ولكنه رغم ذلك أميل إلى أن يعتقد أن هذه التآليف التي يؤلفها خليقة بأن تضعه على قمة الأدباء والأدب لو أنها أعلنت على الملأ، ولذلك فقد ترك يوستيس نفسه دون مقاومة تذكر تجره زهرة الربيع وزهرة الفجر إلى غرفة الجلوس.

وكانت الغرفة واسعة جميلة... لها نافذة نصف دائرية فى أقصى حوائطها وفى حضن النافذة وعلى حافتها رقد تمثال رخامى هو تقليد جميل لنابغة المثالين «جرينو» والتى سماها «الملاك الطفل» وعلى جانب من جانبى المدفأة صفت صفوف كثيرة من الكتب على رفوف وكانت كلها

مجلدة ثمينة لونها هادئ وقور، وأضفى الضوء الأبيض الذى يشعه المصباح والضوء الأحمر المتقد الذى ينبعث من فحم المدفأة من سحرهما على الغرفة إشراقا وبهجة، وأمام المدفأة جلس السيد برنجل غارقا فى كرسى ضخم كبير عميق وهو يبدو أليق ما يكون بمثل هذا الكرسى وبمثل هذه الغرفة... وكان رجلا طويل القامة حسن المظهر أصلع الرأس. وكان يعنى دائما بمظهره وهندامه وملبسه حتى أن يوستيس برايت ما كان يجب أن يدخل إلى حضرته دون أن يتوقف على عتبة الباب على الأقل ليصلح من ياقة قميصه، ولكنه الآن وقد أخذت زهرة الربيع بيده وزهرة الفجر بيده الأخرى، فقد اضطر إلى أن يظهر أمام السيد برنجل وعلى وجهه مسحة ارتباك وكأنما كان طول اليوم يتدحرج من على أكوام الثلج، وهو فى الحقيقة قد قضى النهار كله فعلا وهو يتدحرج من على الثلج.

والتفت السيد برنجل إلى الطالب فى مراعاة له وذوق كاف، ولكن بطريقة أشعرته على نحو أو على آخر أنه لم يكن مرتب الهندام كما كان يجب أن يكون، بل أشعرته أيضا أن عقله وأفكاره لم تكن أقل من مظهره فوضى واضطرابا.

وقال السيد برنجل بابتسامة:

«يا يوستيس إنك فيما أرى تلقى نجاحا كبيرا مع جمهور الصغار فى تانجلوود، وأنت تتمرن معهم لتدرب مواهبك القصصية، إن زهرة الربيع، كما يحلو للأطفال هنا أن يسموها وسائر الأطفال قد أكثروا من مدح قصصك وإطرائها إلى حد دفعنى أنا والسيدة برنجل إلى أن نشتاق إلى سماع نموذج منها، وتلبيتك هذا الطلب هو بالنسبة

إلى أكثر من استجابة لتطلعى وشوقى ، ذلك أن قصصك فيما يظهر، هى محاولة لإخراج هذه الأساطير القديمة إخراجا يتمشى مع الخيال الحديث، والعواطف الحديثة. أو على الأقل هذا هو ما فهمت مما ترامى إلى سمعى من مقتطفات منها جاءتنى عن طريق غير مباشر هو تكرار الأطفال لها».

فقال الطالب معقبا:

«لست أنت السامع الذى لو خيرت، كنت أختاره لأسمعه هذا النوع من الخيالات والقصص».

فأجابه السيد برنجل:

«قد لا أكون هذا السامع الذى تختاره، إن أفضل ناقد لأى مؤلف ناشئ فيما أرى هو أبعد الناس عن اختياره هو ناقدا له... وعلى ذلك أرجوك أن تستجيب إلى طلبى»

وتمتم يوستيس برايت: «إن التجاوب، أو التعاطف، فيما أرى لا بد أن يكون من مزايا الناقد الحق، وعلى كل حال فإنى يا سيدى مستعد لأن أجد قصصا بقدر ما أظفر من صبرك على. ولكنى أرجو أن تتفضل فتتذكر دائما أنى إنما أكلف نفسى مخاطبة خيال الأطفال وعواطفهم وما يرغبون هم فيه، لا خيالك أنت يا سيدى، ولا عواطفك ولا ما ترغب أنت فيه».

وبناء على ذلك أخذ الطالب أول موضوع سنح له وقد أوحى إليه «صحن» من التفاح كان على رف المدفأة استطاع أن يسترق النظر إليه.

التفاحات الذهبية الثلاث

هل سمعت قبل اليوم بالتفاحات الذهبية التى تنمو فى حدائق الهسپرديز لقد كان يمكن لبعضها أن تباع بثمن باهظ فى أيامنا هذه، ولكن ليس هناك اليوم فيما أعرف ولا غصن واحد من شجر هذه الفاكهة الباهرة فى هذا العالم الواسع العريض كله.

وحتى فى هذه الأزمنة الغابرة التى يحيط بها النسيان ، وقبل أن يجتاح الشوك والأعشاب الضارة حدائق «الهسپرديز» كان الكثيرون يشكون فى أنه يمكن أن توجد أشجار حقيقية تحمل تفاحات صلبة ذهبية على أغصانها، لقد تسامع الناس جميعا بها ولكن أحدا منهم لم يرها، وكان الأطفال ينصتون إلى أخيار هذه الشجرة وقد فغروا أفواههم من الدهشة، وكانوا يعقدون العزم على أنهم بمجرد أن يكبروا سوف يستطلعون أمرها ويكتشفون موضعها، ومن الشباب المغامر ، الذى كان يريد أن يبز زملاءه بعمل أشجع من سواه، من

كان يرحل فى طلب هذه الثمار النادرة ! منهم من لم يعد ومنهم من عاد، ولكن أحدا لم يصل إلى هذه الثمار، وليس من العجيب فى شيء ألا يجدوا سبيلا إلى الوصول إليها فلقد قيل أن تنينا له مائة رأس بشع كان يرقد تحت هذه الشجرة، وأن خمسين من هذه الرءوس كانت تستيقظ بينما تكون الخمسون الأخرى تأخذ حظها من النوم.

وفى رأيى أن الأمر لم يكن يستحق كل هذا العناء، فما قيمة تفاحات صلبة ذهبية ؟ لو أنها كانت تفاحات ناضجة حلوة مملوءة بعصير لذيذ لاختلف الأمر بلا شك، ولكان هناك بعض المنطق فى أن نحاول الوصول إليها رغم هذا التنين ذى الرءوس المائة.

ولكنه كما أسلفت ، كان أمرا مألوفا لدى الشباب أن يرحل فى سبيل حدائق «الهسپردين» كلما مل حياة السلم الهادئة والراحة المستكينة، وفى ذات مرة قام بهذه المغامرة شاب بطل لم ينعم إلا بأقل القليل من الراحة والسلم منذ ولد، وفى هذه الفترة التى اخترت أن أحدثكم عنها كان هذا البطل يهيم فى أرض إيطاليا البديعة ويحمل مقرعة جبارة فى يده، وقد علق على كتفه قوسه وجعبة فيها سهام، وكان يلتف فى جلد أسد ضخم شرس لم تر العين أضخم منه ولا أشرس، وكان الشاب هو الذى قتل هذا الأسد، وبالرغم من أن هذا الشاب كان كريما طيبا رحيما نبيلا فى أغلب الأحيان فلقد كان يحمل فى قلبه من شراسة الأسود وقسوتها الشيء الكثير ، وكان كلما تقدم فى الطريق يقف ليستفسر باستمرار أهو على الطريق السليم إلى الحدائق المشهورة، ولكن أحدا من أهل الريف الذى كان

يمر به لم يكن يعرف شيئا، بل إن الكثيرين كانوا يهمون بالضحك منه ومن سؤاله لولا أنه كان يحمل مقرعة بهذه الضخامة.

وعلى هذا المنوال استمر فى سفره أياما وليالى يسأل دائما نفس السؤال، حتى وصل يوما إلى حافة نهر حيث جلست طائفة من الشابات الجميلات يعقدن أكاليل من الزهر.

وسألهن الغريب: «أيتها الفاتنات أيمكن أن تخبرننى هل هذا هو الطريق الصحيح إلى حدائق «الهسپريديز»؟ وكانت الفتيات ينعمن بقضاء وقت طيب لطيف وهن يعقدن أكاليل الزهر ويضعنها على رءوس بعضهن البعض فى مرح لذيذ، وكان فى لمساتهن شيء من السحر يضفى على الورود - إذا أمسكن بها- حيوية أوفر ونضارة أترع ولونا أزهى وعبيرا أطيب مما كان لها لما كانت على أغصانها التى نمت عليها، ولكنهن بمجرد سماع سؤال الغريب ألقين بالأزهار كلها على العشب، ونظرن إليه فى دهشة.

وصاحت إحداهن: «حدائق الهسپريديز» لقد ظننا أن الأحياء تعبوا وكلوا من البحث عنها بعدما أصابهم من خيبة الأمل فى سبيل الوصول إليها، ولكن يا أيها السائح المغامر ماذا تريد منها؟»

فأجاب: «إن ملكا هو ابن عمى قد أمرنى بإحضار ثلاث من التفاحات الذهبية».

فقالت إحدى الآنسات: « إن أغلب الشباب الذين يذهبون للبحث عن هذه التفاحات إنما يرغبون فيها من أجل أنفسهم، أو من أجل أن يقدموها هدية إلى من يحبونها، أتحب ابن عمك الملك إلى هذا الحد؟».

فأجاب الغريب وهو يتنهد: « قد لا يكون الأمر كما تظنين . فكم كان فظ القلب قاسيا فى معاملتى، ولكن لقد كتب على أن أطيع أمره».

فسألته الآنسة التى بدأت بالكلام: «ولكن ألم تسمع عن هذا التنين ذى الرءوس المائة الذى يرقد تحت شجرة التفاح الذهبى ليحرسها».

فأجابها الغريب فى هدوء: «طبعا سمعت، لكنى منذ فارقت مهدى صبيا ليس لى عمل؟ بل ليست لى تسلية إلا أن أتعامل مع الثعابين والغيلان والتنين».

وتطلعت الفتيات إلى مقرعته الضخمة وإلى جلد الأسد الأشعث الذى كان يرتديه وإلى جسده وعضلات ذراعيه وفخديه الناطقة بالبطولة وتهامسن بأن الغريب فيما يبدو يستطيع أن يأتى من الفعال التى تتطلب القوة والشجاعة ما لا يستطيعه غيره من الرجال ، ولكن ما العمل فى أمر هذا التنين ورءوسه المائة؟! أى بشر حتى ولو كان له بدل الحياة مائة حياة يمكن أن يأمل فى أنه يستطيع أن يفر من أنياب مثل هذا الوحش الرهيب... ولقد عمر قلب الفتيات بالحب والرحمة بحيث تعذر عليهم احتمال رؤية هذا المسافر الشجاع الجميل يقدم على مثل هذه المغامرة الخطرة فيقدم نفسه وجبة شهية لفم هذا التنين المرعب.

وصاحت الفتيات: «ارجع إلى بيتك، إن أمك ستذرف دموع الفرح إذا ما عدت إليها سالما سليما، وماذا يمكن أن يشرح صدر الأم أكثر من رؤية ابنها يعود سالما، وهل إذا عدت إليها بهذا النصر العظيم الذى تريد أن تغامر بحياتك فى سبيله سيكون فرحها أكبر

من فرحها لو عدت إليها الآن، اطرح فكرة التفاحات الذهبية تلك جانبا ولا عليك من ابن عمك القاسى فإننا لا نريد أن نراك طعما للتنين ذى الرءوس المائة».

وبدا على الغريب أن هذه التعليقات قد أثارت الضجر فى نفسه فرفع مقرعته هونا ما ودون مبالاة، ثم نزل بها على صخرة كانت نصف مدفونة فى الأرض بالقرب منهن فتناثرت شظايا صغيرة فى كل اتجاه من هذه الضربة الهينة اللينة الكسول، ولم تكلف الغريب هذه الضربة إلا عشر المجهود الذى تتكلفه فتاة منهن مثلا لتضرب وجنة أختها الوردية بعود من الورد لتداعبها، ونظر الفتى إليهن فى ابتسامة وهو يقول: «أليست ضربة كهذه كفيلة بأن تسحق رأسا من رءوس التنين».

ثم جلس إليهن على العشب وأخذ يقص عليهن قصة حياته وقد حاول أن يتذكر أبعد ذكرياتها منذ اليوم الذى أهدى له درع محارب من النحاس فى طفولته، وكيف جاءته حيتان تزحفان حوله على الأرض وقد فتحت كل منهما فاها البشع لتفترسه وهو الطفل الذى لم يبلغ من العمر بعد إلا بضعة شهور وكيف قبض بيده الصغيرة على حية منهما وباليد الأخرى على الأخرى ثم خنقهما معا، ثم قص عليهن كيف أنه وهو لا يزال صبيا قد قتل أسدا ضخما يكاد يبلغ من الضخامة والشراسة مبلغ هذا الأسد الذى يحمل اليوم جلده على كتفيه ، ومن أعماله الباهرة أيضا أنه حارب يوما حيوانا بشعا يسمى الأفعوان متعدد الرءوس إذ إن له ما لا يقل عن تسعة رءوس كبيرة وأسنان حادة مسنونة فى كل رأس منها.

وعلقت إحداهن قائلة: «ولكن تنين الهسپرديز له من الرءوس مائة»

فأجابها الغريب: «ومع ذلك فأنى أفضل أن أحارب بدل التنين اثنين على أن أحارب واحدا من صنف هذا الأفعوان اللعين، ذلك أنى كنت لا أكاد أقطع رأسا من هذه الرءوس حتى ينبت له فى الحال رأس مكانه، بل إن رأسا من هذه الرءوس التسعة كان من المستحيل أن يموت، فلقد ظل يعض ويعض زمانا طويلا حتى بعد أن انفصل عن الجسد، ولذلك اضطررت إلى دفنه تحت صخرة هائلة وأكبر الظن أنه لا يزال حيا هناك إلى يومنا هذا: ولكن لم تعد للأفعوان نفسه ولا لرءوسه الأخرى أية قدرة على الإيذاء بعد ذلك اليوم».

وكانت الآنسات وقد ظنن أن الحديث سيطول به قد أخذن فى إعداد وجبة بسيطة من الخبز والعنب يتصبر بها الغريب فى فترات الراحة التى تتخلل حديثه، ثم أخذن ينعمن بتقديم هذا الطعام البسيط له وكانت الواحدة منهن أو الأخرى تضع من حين لآخر حبة من حبات العنب الطيب اللذيذ بين شفتيها القرمزتين حتى لا يشعر الغريب بالحرج وهو يأكل منفردا.

واستمر المسافر يقص كيف طارد غزالا بريا متوحشا سريع العدو اثنى عشر شهرا متوالية دون أن يتوقف لاهثا حتى استطاع آخر الأمر أن يقبض على قرونه وأن يحمله إلى بيته حياكما هو. ولقد حارب أيضا صنفا عجيبا من البشر كل منهم نصفه حصان والنصف الآخر إنسان حتى أبادهم جميعا لمجرد شعوره أنه من الواجب عليه ألا يترك مثل هذه الكائنات البشعة تؤذى أبصار الناس. وإلى جانب هذه الأعمال البطولية فإنه كان يفخر أيضا بأنه استطاع يوما أن ينظف حظيرة.

وسألت فتاة منهن وهى تبتسم: «أتسمى مثل هذا العمل مغامرة فذة؟ إن أى سائس صغير فى البلد قد قام بمثل هذا العمل مرات».

فأجابها الغريب: « لو كانت هذه الحظيرة عادية ما كان لى أن أذكر من أمرها شيئا، ولكن كنسها كان مهمة من الضخامة والجسامة بحيث إنه كان من الممكن أن أقضى عمرى كله فى سبيل إنجازها، لو لم تخطر ببالى لحسن الحظ.. فكرة تحويلى مجرى النهر ليدخل من بابها ، فقام النهر المتدفق بالمهمة الصعبة فى وقت قصير جدا».

ولما رأى الغريب إنصات السامعات الفاتنات إليه وتعلقهن بما يقول استمر يقص عليهن كيف صاد طيورا بشعة فظيعة وكيف أمسك ببطة وحشية حية ثم تركها لحال سبيلها، وكيف روض عددا من الخيول الوحشية وكيف هزم «هيبوليتا» ملكة طائفة «الأمازون» أو النساء المحاربات، ولقد ذكر لهن كيف حصل على نطاق «هيبوليتا» السحرى ثم أهداه إلى الملك ابن عمه.

وسألته أجمل الفتيات طرا: «ألم يكن هذا نطاق فينوس آلهة الجمال الذى يجعل النساء جميلات جدا؟»

فأجاب الغريب:« كلا إنه نطاق الإله «مارس» إله الحرب الذى كان يعلق فيه سيوفه... ولا ميزة للنطاق إلا أنه يستطيع أن يجعل لابسه شجاعا مقداما».

وقالت الفتاة وهى تهز رأسها ثم تلقى بها إلى الوراء: «إنه نطاق قديم إذن، لا، إنى لا أهتم بأن يكون لى مثل هذا النطاق»

فقال الغريب: «الحق معك».

واستمر فى حديثه البارع عن مغامراته فقص على الفتيات أعجب مغامرة يمكن أن تحدث لإنسان وهى مغامرته فى حرب «جربون» الرجل ذى الأقدام الست، وهو بطبيعة الحال مخلوق مخيف، إن من يرى آثار أقدامه بعد سيره على الرمال أو الثلوج لا بد أن يظن إنهم ثلاثة من الأصدقاء الحميمين كأنما يسيرون جنبا إلى جنب، وإذا انصت المرء إلى وقع أقدامه وهو يخطو مقبلا كان من الطبيعى أن يظن أن مجموعة من البشر هى التى ستقدم، فإذا ما اقترب اتضح أنه لم يكن إلا هذا الرجل الواحد العجيب «جربون» يقرقع أقدامه أثناء سيره إلى الأمام.

ست أقدام وحشية وواحد ضخم عملاق، لا شك أن هذا مسخ عجيب شاذ، يالله! كم ذا من جلد الأحذية كان يضيع على رجل واحد!

ولما انتهى الغريب من قص أحاديث مغامراته نظر إلى وجوه الفتيات المنصتات إليه فى لهفة وقال فى تواضع: «لا شك أنكن سمعتن بى من قبل أنى أدعى (هرقل).

وقالت الفتيات : إنا عرفناك من حديثك لأن فعالك العظيمة معروفة فى العالم كله، ولذلك فإننا لا نرى أى عجب فى أن ترحل أنت بالذات فى طلب التفاحات الذهبية من حدائق «الهسپردين» هلم يا رفيقات نتوج البطل بأكاليل الزهر».

ونثرن الأكاليل الجميلة على رأسه الوقور وكتفيه العريضتين إلى حد أن جلد الأسد كاد يختفى تحت الأزهار، وأخذن منه مقرعته الضخمة ونسجن حولها نسيجا من أبهى الورود وأزكاها عبيرا

وأنعمها ملمسا، بحيث لم يعد يظهر من خشبها مقدار قيراط واحد لا يغطيه الورد، وبدت المقرعة وكأنها باقة ضخمة من أجمل الورود، وأخيرا أمسكت كل منهن بيد صاحبتها ورقصن حوله وغنين كلمات خرجت من أفواههن شعرا ثم استحالت إلى أغنية جماعية تغنيها كل الغرفة تحية للبطل الأشهر هرقل.

وسعد هرقل بذلك كما كان لا بد أن يسعد أى بطل إذا ما علم أن مثل هؤلاء الفتيات الجميلات قد سمعن بأخبار فعاله المجيدة التى كلفته من الصمود والمعاندة وركوب الأخطار أهوالا ولكنه لم يكن مكتفيا بذلك لأنه اعتقد أنه لا يستحق كل هذا التمجيد ما دامت هناك مغامرة صعبة لا بد من القيام بها أولا.

ولما توقفت الفتيات عن الغناء والرقص ليسترحن قليلا قال لهن: « والآن أيتها العزيزات وقد عرفتن من أكون ألا يمكن أن أطمع فى أن أعرف منكن أين الطريق إلى حديقة «الهسپرديز»؟»

فصحن فى نفس واحد: «ماذا؟ ألا بد لك من أن تفارقنا بهذه السرعة أنت الذى قمت بكل هذه البطولات الخارقة، وقضيت حياتك كلها فى نصب وتعب، ألا يمكن أن تغرى نفسك وتقنعها بالراحة فترة قصيرة على حافة هذا النهر الهادئ».

فهز هرقل رأسه وقال: «كلا لا بد أن أرحل عنكم الآن»

فقالت الفتيات: «إذن نعطيك أفضل ما نستطيع أن نزودك به من معلومات : لابد لك أولا من أن تذهب إلى شاطئ البحر، ثم لا بد لك من أن تعثر على الشيخ ثم لا بد لك من أن ترغمه على أن يدلك أين توجد التفاحات الذهبية».

وضحك هرقل من هذا الاسم العجيب الذى لا يدل على أحد وقال: « الشيخ ومن يكون بالله عليكم هذا الشيخ؟»

فأجابته إحداهن: « إنه شيخ البحر ، إن له خمسين بنتا يدعى البعض أنهن جميلات ولكننا لا نرى أنه يليق بنا أن نتصل بهن، ذلك أن لهن شعرا أخضر خضرة غامقة كخضرة البحر أحيانا، وقوامهن ينساب مخروطيا كما ينساب السمك، ثم إنه لا بد لك من أن تتحدث إلى هذا الشيخ، إنه رجل كثيرا ما يغامر فى البحار ويعرف كل شىء عن حدائق «الهسپريديز» لأنها تقع على جزيرة اعتاد الشيخ أن يزورها مرارا».

وسألهن هرقل وأين يكون مقام هذا الشيخ تقريبا، فلما أخبرنه، شكرهن على ما لاقى فى عطفهن ، وما طعم من خبزهن وعنبهن، وماتوجنه به من ورد وزهر، كما شكرهن بنوع خاص على الرقص والغناء، وكل ما فعلنه لتحيته ، وما قمن به لتكريمه ولكن أهم ما شكرهن عليه كان هذه المعلومات الصحيحة التى ظفر بها والتى ستدله على الطريق السليم، ثم استأنف فى الحال رحلته.

ولكنه قبل أن يمعن فى البعد بحيث يصعب عليه أن يسمع نداءهن صاحت عليه واحدة منهن وهى تبتسم:

«تشبث بالشيخ وإياك أن تدعه يفلت منك»

وأشارت بإصبعها بما يؤكد هذا التحذير ثم استأنفت تقول:

«لا تعجب من أى شىء يحدث، تشبث به فى عناد فهو وحده الذى سيدلك على ما تريد أن تعرف»

فشكرها هرقل مرة أخرى، واستمر فى طريقه، بينما استأنفت

الفتيات عملهن الممتع فى صنع الأكاليل من الزهر، واستمر حديثهن عن البطل طويلا بعد أن فارقهن.

وقالت الفتيات: «سنكلله بأحلى الأكاليل وأجملها يوم يعود إلينا ظافرا بالتفاحات الذهبية الثلاث، إنه سيكون قد قتل التنين ذا الرءوس المائة».

وفى هذه الأثناء كان هرقل يجوب الآفاق ويذرع الوديان ويصعد فى التلال والجبال ويخترق الغابات الموحشة والبرارى المقفرة، وكثيرا ما كان يرفع مقرعته الجبارة ليشق شجرة عتيقة من شجر البلوط نصفين بضربة قوية، لقد كان عقله دائما زاخرا بصور العمالقة والوحوش والمخلوقات الخارقة التى ألف طوال حياته أن يصارعها حتى أنه ليظن أنه كان يخطئ فى أمر هذا الشجر، إذ ربما خيل إليه أنه عملاق من الأعداء أو وحش ضار يهم به، لقد كان متحرقا إلى إنهاء تلك المغامرة والفراغ منها إلى حد أنه كاد أن يندم على هذا الوقت اللذيذ الذى قضاه مع الجميلات حارقا أنفاسه بلا جدوى فى سبيل قص أحاديث مغامراته بدل أن ينفقها كلها فى المغامرة الرهيبة، ولكن هذا دائما هو شأن الذين اختارهم القدر ليكونوا أبطالا يقومون بجلائل الأعمال، إنهم ينظرون إلى ما قد أنجزوه بالفعل على أنه أقل من لا شىء، أما ما قد قرروا أن يقوموا به فإنه هو الذى يستحق كل جهد، وكل دأب وكل مخاطرة، بل قد يستحق كل الحياة نفسها.

لا بد أن الذين كانوا يجتازون هذه الغابات فى تلك الآونة بمحض المصادفة قد فزعوا عندما رأوه يضرب الأشجار هكذا بقبضته القوية

ومقرعته الجبارة، وإنها لضربة واحدة منه فإذا جذع الشجرة ينشق وكأنما صاعقة أصابته، وإذا الأغصان العريضة تنهار فجأة ساقطة على الأرض فى قرقعة صاخبة.

ولكن هرقل كان يسرع ويسرع ولا يتوقف أبدا، ولا ينظر إلى الخلف بأية حال، وإذا به يسمع صوت هدير البحر من بعيد، وما كاد يسمع هذا حتى ضاعف سرعته، فإذا به على الشاطئ حيث كانت الأمواج المزبدة تتكسر على رمال الشاطئ الصلبة فى خط طويل من الزبد الأبيض بياض الثلج، وفى طرف من أطراف الشاطئ لاحت له بقعة طيبة حيث علت الخضرة صخرة غير مرتفعة كثيرا، لقد بدا وجه الصخرة الحجرى طريا ناعما جميلا.

وامتدت بين قاعدة الصخرة والبحر سجادة كبيرة من العشب الأخضر الجميل واختلط بالعشب برسيم تفتحت أزهاره وفاحت رائحته الهادئة الناعمة الجميلة، ولكن ماذا لاح لهرقل فى هذا المكان؟ إنه شيخ مسن، وقد غرق فى نوم عميق.

ترى أيكون شيخا حقا؟ إنه ليبدو لأول وهلة وكأنه كذلك بلا ريب ولكن بعد تدقيق النظر ظهر أنه حيوان من حيوانات البحر، ذلك أن رجليه وذراعيه قد غطيت بحرافيش كحرافيش السمك، وكانت قدماه ويداه مكففة الأصابع وملتحمة إلى آخرها مثلما نرى فى أقدام البط والإوز، وكانت لحيته الطويلة تميل فى لونها إلى الخضرة، وكانت تبدو أقرب إلى أن تكون حزمة من أعشاب البحر منها إلى أن تكون لحية إنسان، ألم تروا سارية مركب تقاذفتها الأمواج طويلا فتعلقت بها نفايات من البحر فتضخمت ثم انقذفت آخر الأمر على الشاطئ

وكأنما هى استخرجت من أعمق أعماق البحار، إن هذا الرجل لينذكرنا بمثل هذه السارية الخشبية وقد قذفت بها الأمواج بعد طول مجالدة إلى الشاطئ، ولكن هرقل بمجرد أن رأى هذا المنظر العجيب تأكد أنه ما كان يمكن أن يكون إلا شيخ البحر الذى يسعى إليه والذى سيدله على الطريق.

وأنه لهو شيخ البحر حقا الذى حدثته عنه الفتيات الطيبات الكريمات ، وما كاد يحمد الله على حسن طالعه الذى جعله يجد الشيخ غارقا فى نوم، حتى تقدم على أطراف أصابعه نحوه وأمسك به من ذراعه بيد ومن ساقه باليد الأخرى وصاح فيه قبل أن يفيق: « قل لى بربك... أى الطرق يؤدى إلى حديقة «الهسپريدز».

وطبيعى ، وكما خطر ببالكم، أن الشيخ أفاق مذعورا، ولكن عجبه لم يكن، وما كان يمكن أن يكون، مما يقارن بالعجب الذى انتاب هرقل مما رآه يحدث أمامه بعد لحظة، ذلك أن الشيخ بدا وكأنه تلاشى فجأة من قبضته ، وإذا هو قابض لا على شيخ وإنما على وعل يرى رجله الأمامية فى إحدى يديه والرجل الأخرى فى يده الأخرى، ولكن هرقل لم يرعبه شىء، فلم يخفف من قبضته وإذا بالوعل يختفى ويقوم مقامه طائر بحرى يرفرف ويزعق بينما ظل هرقل ممسكا منه بجناح ورجل، وحاول الطير جاهدا أن يفلت من قبضة هرقل، ولكنه لم يخفف من قبضته، فلم يستطع الطير أن يفلت منه، وفى الحال تحول الطير إلى كلب له ثلاثة رءوس تزمجر وتعوى وتنبح فى وحشية فى وجه هرقل وقد بدأت الأفواه الثلاثة تعض يديه اللتين يقبض بهما على الكلب. ولكن هرقل لم يمكنه من الفرار، وفى

غمضة عين تلاشى الكلب البشع ذى الرءوس الثلاثة، ومن ذا يمكن أن يحتل مكانه سوى «جريون» المسخ ذى الأقدام الست، وهو يرفس هرقل بخمس أقدام ليخلص السادسة من إساره وينطلق حرا، ولكن هرقل صمد هذه المرة أيضا، وبعد قليل اختفى «جريون» وجاءت مكانه حية ضخمة كتلك التى خنقها هرقل فى طفولته . ولكنها امتازت بأنها أضخم من سابقتها مائة مرة، والتفت الحية حول عنق البطل وجسده وأرسلت ذيلها فى الهواء عاليا نحو السماء وفتحت فكيها القاتلين لتنهشه نهشا، وكان المنظر فظيعا بشعا، ولكن هرقل لم يتزعزع قيد أنملة، وأخذ يضغط فى عنق على الحية حتى علا فحيحها بعد لحظة من شدة الألم.

وأظنكم فهمتم الآن أن شيخ البحر وإن يكن يبدو عادة كبقايا سفينة اقتلعتها الأمواج وقذفت بها على الشاطئ، فإنه كان يمكن أن يتخذ ما شاء من شكل الحيوانات، فلما رأى هرقل يقبض عليه بهذا العنف ظن أنه يستطيع أن يخيفه ويفزعه بهذه التحولات السحرية والتغيرات الخارقة المخيفة بحيث يود هرقل أن يتخلص منه ويعد نفسه سعيدا لو أفلح، ولو أن هرقل كان قد أرخى قليلا من قبضته فإنه من المؤكد أن الشيخ لم يكن سيفعل أكثر من أن يغرق نفسه فى قاع البحر، وعندئذ يصبح من المستحيل أن يكلف نفسه مشقة الخروج إلى الشاطئ ليجيب على أسئلة وقحة سخيفة كالتى سيسألها هرقل، إن تسعة وتسعين فى المائة من الشجعان كانوا سيخافون ويفقدون أعصابهم لمجرد ظهور المخلوق الأول من هذه المخلوقات البشعة، ولاشك أنهم كانوا سيفرون هاربين فى الحال من

هذا الهول الأكبر، وأنه لمن أصعب الأمور فى هذه الحياة أن نفرق بين خطر وهمى وخطر حقيقى.

ولما تشبث هرقل وصمد معاندا ولم يتغير فيه شىء إلا أن قبضته كانت تشتد فى كل مرة يتحول فيها الشيخ مما أدى إلى أن يؤذى الشيخ إيذاء ليس هينا بأى حال من الأحوال ... لما فعل هرقل ذلك قرر الشيخ آخر الأمر أنه من الأفضل أن يظهر بشكله الأصلى، وإذا به آخر الأمر يعود إنسانا سمكى الملمس متصل أصابع الأطراف وشىء يشبه حزمة أعشاب بحرية يؤلف له لحية.

وبمجرد أن استطاع أن يلتقط أنفاسه، فقد كلفته هذه التحولات مشقة كبيرة ، صاح فى هرقل: «بالله عليك ماذا تريد منى؟ لماذا تعصرنى عصرا عنيفا هكذا؟ اتركنى لحال سبيلى وإلا اضطررت إلى أن أعاملك على أنك إنسان باغ معتد».

وزأر الغريب الجبار: « إنى أدعى هرقل! ولكنك لن تفلت من قبضة يدى حتى تدلنى على أقرب طريق إلى حديقة «الهسپرديز».

ولما سمع الشيخ اسم هذا الذى يقبض عليه، رأى أنه مضطر نوعا ما إلي أن يدله على ما يريد أن يعرف، وكان الشيخ من سكان البحر كما قد تذكرون، وكان يجوب البحار فى كل اتجاه مثل غيره من جوابى البحار، وكان لا شك قد تسامع بشهرة هرقل وبهذه الأعاجيب والخوارق التى كان يقوم بها كثيرا فى شتى أنحاء الأرض، وكان يعرف من شهرته تلك أنه كان دائما يصمم على أن يصل إلى ما يريد ، وأنه كان دائما ينجز كل ما يقدم عليه، وعلى ذلك لم يقم بأية محاولة للفرار، وإنما وصف للبطل كيف يصل إلى حديقة

«الهسپردين» بل إنه أضاف إلى ذلك فحذره من كثير من الصعاب التى سيصادفها والتى لا بد له من أن يقهرها ليصل إلى حيث يريد.

وبعد أن قدر الشيخ (شيخ البحر) الجهات الأربع، وحسب حسابه قال له: «لا بد أن تذهب من هنا، ثم من هنا، حتى يلوح لك عملاق طويل جدا يحمل السماء على كتفيه، فإذا كان العملاق فى حال طيبة ومزاج رائق فإنه سيدلك تفصيلا أين تقع حديقة «الهسپردين».

وأجاب هرقل وهو يرقص مقرعته الضخمة على أطراف أصابعه: « وإذا لم يكن العملاق فى حال طيبة ومزاج رائق فقد يكون من الممكن أن أجد وسيلة أخرى تقنعه بأنه لا بد أن يدلى إلى بما أريد منه من معلومات».

وبعد أن شكر شيخ البحر واعتذر إليه لما سببه له من ألم بعنف قبضته وقسوتها، استأنف البطل رحلته، ولقد صادفته مغامرات كثيرة غريبة تستحق كلها أن أقص عليكم أخبارها لو كان عندى من الوقت ما يسمح لى بأن أقصها عليكم كما يجب لها أن تقص.

إنه فى هذه الرحلة، إن لم تخنى الذاكرة، قابل العملاق الضخم الذى حبته الطبيعة ميزة عجيبة وهى أنه فى كل مرة يقع أرضا تتضاعف قوته من جديد عشر مرات عما كانت عليه قبل أن يقع، وكان اسمه «أنتايس» وأظنكم تقدرون مقدار صعوبة مصارعة مثل هذا العملاق، ذلك أنه فى كل مرة يتغلب فيها عليه خصمه فيطرحه أرضا يقوم فجأة أشد قسوة وأقوى بأسا وأقدر على استعمال أسلحته مما لو كان عدوه قد تركه وشأنه ولم يقترب منه... وهكذا فإن هرقل كان يؤخر انتصاره ويفقد الأمل فى التغلب على عدوه كلما

عنف فى ضربه بمقرعته فأرغمه على أن ينطرح أرضا.

لقد اختلفت مع قوم يشبهون هذا العملاق، ولكنى لم أتورط أبدا فى مصارعة واحد منهم، ولم يكن بد لهرقل ليهزمه وينهى المعركة معه بالانتصار ، من أن يرفع «آنتابس» من على الأرض ويعتصره ويعتصره بقوة حتى يستنفذ كل القوة المدخرة فى جسده الضخم.

ولما أتم هرقل هذه المهمة استمر فى رحلته وعرج بأرض مصر حيث سجن وكان من الممكن أن يعدم بها لولا أنه سبق فقتل ملك البلاد وفر هاربا، وبعد أن اجتاز صحارى أفريقيا وهو يسير بأقصى سرعة يستطيعها وصل آخر الأمر إلى ساحل المحيط الأعظم، وهنا بدا له أنه إذا لم يكن مستطيعا أن يعتلى قمم هذه الأمواج الهائلة الهوجاء فإنه سيضطر إلى أن يقطع الرحلة.

ولم يكن أمامه إلا المحيط الهائج الثائر اللانهائى، وفجأة لمح فى الأفق البعيد هناك شيئا لم يلمحه لأول وهلة، وكان هذا الشىء يلمع ببريق ساطع قوى وكأنما هو قرص الشمس الذهبى ساعة شروق أو غروب على حافة العالم هناك من بعيد، ولقد كان الشىء يقترب منه دون ريب لأنه أصبح ينمو من لحظة إلى أخرى ويزداد بريقه ولمعانه، وما لبث أن أصبح قريبا من هرقل قربا شديدا فاستطاع أن يمعن فيه النظر وأن يكتشف أنه كأس ضخمة أو وعاء كبير- وقد صنع إما من الذهب الخالص أو النحاس الأصفر البراق، ولكن كيف طفت هذه الكأس على سطح الأمواج؟ هذا أمر لا أستطيع أن أفسره بشىء، ومهما يكن من أمر فإن الكأس كانت هناك تتدحرج فوق الأمواج الهائلة التى ترفعها وتخفضها ويرغى الزبد متعاليا حتى يصل إلى

حافتها ولكن دون أن يلقى بشىء من الرذاذ فى جوفها.

وفكر هرقل قائلا لنفسه: «لقد رأيت فى حياتى عمالقة من كل صنف وشكل، ولكنى لم أصادف أبدا منهم من يمكن أن يشرب خمرا فى مثل هذه الكأس».

وفى الحقيقة أن الكأس كانت تثير العجب ، فلقد كانت كبيرة... كبيرة، وبالاختصار فإنى أخشى أن أصف لكم كم كانت أكبر من أن توصف، ولأقرب صورتها إلى مداركك لتتصوروها على نحو أو على آخر أقول إنها كانت أوسع عشر مرات من عجلة طاحونة هواء كبيرة، ومع أنها كلها كانت من المعدن فإنها ظلت تطفو على سطح الأمواج المتأرجحة فى خفة تفوق خفة كأس مصنوعة من قشر الخشب تتأرجح على صفحة جدول صغير، ودحرجت الأمواج الكأس إلى أمام حتى اصطدمت بالشاطئ على مسافة قريبة من حيث وقف هرقل.

وبمجرد أن حدث ذلك عرف هرقل فى الحال، ماذا عليه أن يفعل، ذلك أنه لم يمر فى كل هذه التجارب العجيبة والمغامرات الفذة دون أن يتعلم كيف يحسن التصرف عندما يبدو أن الأمور لا تسير على نحو ما هو مألوف، لقد كان واضحا وضوح الشمس أن هذه الكأس كانت قد أرسلت تتأرجح على الأمواج بقوة خفية معينة إلى حيث جاءت لتنقل هرقل عبر المحيطات فى طريقه إلى حديقة «الهسپرديز» وفى الحال اعتلى حافتها وانزلق إلى جوفها حيث افترش جلد الأسد وبدا يستريح قليلا من عناء الرحلة، ذلك أنه منذ ودع الجميلات على حافة النهر لم ينل قسطا ، ولو يسيرا من راحة، وتلاطمت الأمواج

على جدران الكأس المجوفة فى صوت لطيف رنان وهى تتأرجح ذاهبة آتية، وكانت حركتها الرتيبة مريحة للأعصاب إلى حد أن هرقل نام نوما لذيذا. ودامت إغفاعته تلك مدة طويلة فيما يلوح إلى أن اصطدمت الكأس بصخرة، فرن معدنها الذهبي أو النحاسى وتردد رنينه القوى وعلا جرسه بأعلى ما وصل إليه رنين جرس كنيسة سمعتموه فى حياتكم، وأيقظ الصوت هرقل الذى هب فى الحال وأخذ ينظر فيما حوله متعجبا متسائلا: «ترى فى أى مكان هو» ولم يستدع الأمر طول تفكير ليدرك أنه لا بد قد قطع مسافة طويلة فى المحيط وأنه يقترب من شاطئ شىء يشبه الجزيرة، وتطلع إلى ما خارج الكأس، فماذا رأى يا ترى؟

إنكم لا يمكن أن تتوصلوا إلى معرفة ماذا رأى حتى ولو حاولتم ذلك ألف مرة، إنه فيما أرجح كان أعجب منظر رآه هرقل نفسه فى كل أسفاره ورحلاته ومغامراته، لقد كان ما رأى أعجب من الأفعوان ذى الرءوس التسعة التى ينبت بدل كل رأس يقطع منها رأسان فى الحال، وأعجب من المسخ ذى الأرجل الست، بل أعجب من آتابس نفسه، أنه أعجب شىء رآه أى إنسان فى حياة هرقل أو قبل ميلاده، بل إنه لأعجب من أى شىء يمكن أن يراه أى رحالة فى أى زمان مضى أو هو آت، لقد كان عملاقا.

ولكنه كان ضخما ضخامة لا يمكن تصورها، عملاق طويل طول الجبل، ضخم إلى حد أن السحاب ارتكز حول وسطه فإذا هو نطاق له، وتجمعت السحب حول ذقنه كلحية شعثاء وتراقصت أمام عينيه الكبيرتين إلى درجة أنه لم ير هرقل ولا الكأس الذهبية التى كان

مسافرا فى جوفها، وأعجب من كل هذا أن العملاق كان يرفع ذراعيه الضخمتين وكأنما هو يرفع بهما السماء التى بدت لهرقل بقدر ما استطاع أن يرى أنها ترتكز فوق رأسه.

إن هذا فيما يبدو لى بحق أكثر من أن يسلم به العقل، وفى الوقت نفسه ظلت الكأس تطفو سائرة حتى لامست الشاطئ وفى هذه اللحظة هب نسيم هادئ أزاح الغمام من على وجه العملاق فرآه هرقل بكل ملامحه الضخمة، عينان كل عين فى اتساع هذه البركة التى ترونها هناك، وأنف طوله ميل، وفم اتساعه ميل أيضا، لقد كان وجها فظيعا لضخامة الملامح فيه، ولكنه بدا متعبا تعسا كما تبدو وجوه الناس اليوم وقد أرغموا على حمل أعباء جسام تنوء بها كواهلهم لأنها فوق ما يطيقون حمله، وكانت السماء بالنسبة لهذا العملاق هى هموم الأرض التى يتركها الناس تثقل كواهلهم حتى أنهم ليرزحون تحتها من ثقلها، وهكذا الإنسان كلما تصدى للقيام بما هو فوق طاقته فإنه لا شك ملاق المصير التعس الذى يلقاه هذا العملاق المسكين.

ياله من بائس ، لقد وقف حيث هو، فيما يبدو، زمانا طويلا فقد نمت غابة عتيقة حول قدميه، وشجر البلوط الذى جاوز عمره ستة قرون أو سبعة خرج من جذوعه واندفع بفروعه صاعدا بين أصابع قدميه.

ولما رأى العملاق من علياء عينيه الضخمتين هرقل فى أسفل الجزيرة زأر فى صوت يشبه الرعد، بل كأنما هو الرعد نفسه يخرج من سحابة انزلقت من على صفحة وجهه وقال:

«من أنت يـا هـذا الـذى تحت قـدمى، ومن أين قـدمت فى هـذه الكأس الدقيقة الصغيرة».

فأجاب هرقل فى صوت كالرعد يكاد يصل فى صخبه إلى عنف زئير العملاق نفسه:

«أنا هرقل، وأنى لأبحث عن حديقة الهسپرديز»

وقهقه العملاق فى نوبة من الضحك الهادر

«ها ، ها ، ها ، ماأذكاها مغامرة!»

وأثار هرقل نوعا ما هذا المرح الذى أعلنه العملاق فصاح فيه: «ولم لا؟ أتظننى أخاف التنين ذا الرءوس المائة؟»

وفى هذه اللحظة وبينما كانا يتحادثان تجمعت بعض السحب القاتمة حول وسط العملاق وانفجرت فى عاصفة جبارة من الرعد والبرق وقد أحدثت من الضجة ما جعل تمييز هرقل لصوت العملاق أمرا مستحيلا، ولم يعد هرقل يرى سوى ساقى العملاق المسرفتين فى الطول وسط هذه العاصفة المظلمة القاتمة الظلام. ومن حين لآخر كان جسده كله يبدو مغلفا فى غلالة من السحب الخفيفة، والظاهر أنه كان ما زال يتكلم طوال هذه الفترة ولكن صوته العالى العميق الخشن انسجم مع تموجات الرعد القاصف فذاب فيه وانحدر معه على التلال، ثم غاص مثله فى مياه المحيط، وهكذا أضاع العملاق الغبى كمية لا حصر لها من أنفاسه الغالية دون مبرر، لأن الرعد كان ينافسه فى هذا الزئير والهدير الذى لا معنى له ولا مغزى، وأخيرا انحسرت العاصفة بنفس السرعة التى جاءت بها، وتجلت السماء صافية وظهر فى وضوح العملاق المرهق الذى يحملها ، وأشعة

الشمس اللطيفة تلقى بنورها على جسده الضخم فتعكس صورته المنيرة على خلفية السحب الراعدة الغاضبة ، وكان رأسه فى عليائه أعلى من أن تصيبه قطرة واحدة من قطرات المطر المنهمر.

ولما استطاع العملاق أن يرى هرقل وهو ما زال واقفا على الشاطئ زأر فى وجهه من جديد ليقول له:

«أنا أطلس أقوى رجال العالم وأشدهم بأسا وعتوا وإنى لأحمل السماء على رأسى».

فأجابه هرقل:

«هذا ما يبدو واضحا ، ولكن هل لك فى أن تدلنى على حديقة الهسپرديز».

فسأله العملاق::

«ماذا تريد منها؟»

فصاح هرقل:

«أريد ثلاث تفاحات ذهبية لابن عمى الملك»

وأجاب العملاق:

«إنى أنا وحدى ولا أحد سواى يستطيع أن يذهب إلى الحديقة ليقطع لك التفاحات الذهبية، ولولا هذه المهمة البسيطة مهمة رفع السماء على رأسى لسرت ست خطوات أو نحوها عبر المحيط وأحضرتها لك».

فقال له هرقل:

«إنك لطيف حقا، ولكن ألا تستطيع أن تركز السماء على جبل؟»

وهز العملاق رأسه وهو يقول:

«ليس من بينها العالى علوا كافيا ليمكنه أداء هذه المهمة.. ولكنك لو وقفت على قمة هذا الجبل الأدنى إلينا فإن رأسك فيما يبدو سيكون فى مستوى رأسى... وأنت رجل قوى قوة فيما يبدو غير عادية، فما يضيرك لو حملت عنى هذا العبء ، بينما أنجز أنا لك مهمتك ».

وكان هرقل، كما لا بد أنكم تذكرون، قويا قوة خارقة ... ولكن رفع السماء يحتاج إلى قوة عضلية هائلة فوق طاقة البشر، ومع هذا فلو كان بين الرجال الأقوياء جميعا من يمكن أن تتوسم فيه أنه خليق بهذه المهمة البارعة فإن هذا الرجل هو بلا جدال هرقل، وبالرغم من هذا فلقد بدا الأمر مسئولية صعبة إلى حد أن هرقل نفسه تردد لأول مرة فى حياته... فسأل:

«وهل السماء ثقيلة جدا..؟

وهز العملاق كتفيه وهو يجيبه:

«إنها إلى حد ما ليست ثقيلة أول الأمر، ولكنها تتثقل نوعا ما بعد حملها ألف عام»

وسأل البطل:

«وكم ذا يلزمك من الزمان لتحصل على التفاحات الذهبية»

فصاح «أطلس»:

«بضع لحظات تكفى، لأنى سأقطع عشرة أميال أو خمسة عشر ميلا فى الخطوة الواحدة، وسأصل إلى الحديقة ثم أعود قبل أن تؤلمك أكتافك».

فقال هرقل:

«إذن فإني سأصعد هذا الجبل من ورائك وأريحك من ثقل ما تحمل».

والحقيقة أن هرقل كان طيب القلب حسبما يفهم هو طيبة القلب، ولقد حسب أنه سيسدى إلى العملاق جميلا بأن يتيح له فرصة مناسبة لأن يتجول قليلا، وفى الوقت نفسه قدر أنه إذا استطاع يوما أن يفاخر بأنه حمل السماء على كتفيه فإن ذلك سيكون أدعى إلى زيادة عظمته وتضخم شهرتها مما لو فاخر بأى عمل عادى كمجرد الانتصار على تنين له مائة مائة رأس.

وبناء على ذلك ودون أن يقول أحد منهما للآخر شيئا أكثر مما قال انزلقت السماء من على كتفى العملاق «أطلس» لتستقر على كتفى هرقل:

وتم ذلك بأمان وإحكام نادرين وكان أول شيء قام به العملاق هو أنه تمطى... ولك أن تتصور أى منظر ضخم فخم أتاحه للناظرين بعمله هذا... ثم رفع قدما من قدميه مخرجا إياها من الغابة التى نبتت حول قدميه ثم رفع القدم الأخرى، وفجأة أخذ ينتفض ويقفز ويرقص من البهجة بحريته وهو يدفع بنفسه إلى أعلى فى الهواء، ولا يستطيع أحد أن يقيس مقدار هذا العلو الذى كان يرتفعه ثم ينبطح أرضا فى صدمة تجعل الأرض ترتعد راجفة.. ثم أخذ يضحك ها ... ها .. ها .. فى زئير كالرعد رددته الجبال دانيها وقاصيها ، وكأنما الجبال والعملاق إخوة يتقاسمون نشوة الفرح... ولما هدأ هذا الابتهاج نوعا ما، نزل إلى البحر، وخطا إلى الأمام خطوة إلى أبعد عمقها عشرة أميال أخرى، فارتفع الماء إلى ما تحت ركبتيه

مباشرة، ثم سار خطوة ثالثة مقدارها عشرة أميال هى أيضا فإذا الماء يعلو إلى وسطه، وكان هذا هو أعمق عمق فى المحيط كله.

وراقب هرقل العملاق وهو يسير قدما، لأن المنظر الرائع كان يستحق الوقوف به، فهذا هو الجسد الأنسى الضخم الذى يبعد ثلاثين ميلا وقد غمر المحيط بكل عمقه نصفه ليس غير، والنصف الثانى الأعلى لا يزال غائما أزرق وكأنما هو قمة جبل بعيد ـ وأخيرا تلاشى العملاق الهائل فلم يعد يرى، عندئذ بدا هرقل يفكر ماذا هو صانع إذا غرق العملاق فى البحر أو إذا لدغه التنين لدغة الموت، هذا التنين ذو الرءوس المائة الذى يحرس تفاح حديقة «الهسپرديز» ترى إذا وقع مثل هذا المكروه كيف يتخلص هو من السماء، وهنا بدأ وزن السماء يبدو ثقيلا مرهقا فوق رأسه وكتفيه.

وقال هرقل لنفسه: «إنى لأرثى حقا لهذا العملاق المسكين، إن السماء لترهقنى إلى حد بعيد ولم أحملها بعد إلا عشر دقائق فكيف به وقد حملها ألف عام».

وأنكم يارفاقى الصغار لا يمكن أن تتصوروا مقدار ما فى هذه السماء الرقيقة الزرقاء من ثقل،وإن كانت تبدو لكم ناعمة أثيرية فوق رءوسكم ، وإلى جانب ذلك كان هناك عصف الرياح والسحاب البارد المفعم بالماء والشمس المحرقة كل منها يأخذ دوره فى إقلاق هرقل وسلبه الهدوء أو الراحة، وبدأ الخوف يساوره ـ أن العملاق قد لا يعود أبدا، ونظر فى تأمل حزين إلى الأرض من تحته فعرف عن يقين أنه من الأسعد له ولا شك أن يكون راعيا يرعى غنمه على سفح الجبل بدل من أن يكون هكذا على القمة يحمل السماء بكل قوة

وبسالة وعزم، وما هذا إلا لأن هرقل، كما قد تقدرون فى يسر، كان يحمل من الهم والمسئولية ثقلا يعادل هذا الثقل الذى على رأسه أو على كتفيه، إنه إن لم يقف فى غاية الثبات والسكون حريصا على ألا يحرك السماء فوق رأسه فمن يدرى فقد تتناثر الشمس نفسها، أو عندما يرخى الليل سدوله فقد ينفرط عقد كثير من النجوم فتنزل كوابل من المطر المحرق على رءوس الناس، وكم ذا يخجل البطل أن تتصدع السماء نفسها، فيخترقها صدع كبير بسبب عدم ثباته تحت وطأة ثقلها على رأسه.

ولست أدرى كم ذا مضى من الوقت قبل أن يلمح فى فرح لا يوصف شبح العملاق وقد بدا كالسحابة فى الطرف البعيد من البحر عند الأفق.

ولما اقترب «أطلس» رفع يده واستطاع هرقل أن يلمح ثلاث تفاحات ذهبية باهرة فى حجم القرع وكلها تتدلى من فرع شجرة واحد.

ولما اقترب العملاق، فأصبح على مسمع من هرقل صاح هرقل قائلا:

«أنا فرح بعودتك، يبدو أنك أحضرت التفاحات الذهبية»

فقال «أطلس»:

«طبعا وبلا شك... وإنها لتفاحات جميلة جدا، لقد انتخبت خير ما كان على الشجرة منها، كم هى جميلة تلك البقعة التى ترقد فيها حدائق «الهسپردين» !!... نعم والتنين ورءوسه المائة أنها لمنظر حرى بأن يحرص على رؤيته كل إنسان... وعلى كل حال فإنى أرى أنه

كان من الأفضل لك أن تذهب أنت بنفسك لتحضر التفاح».

فأجاب هرقل:

«لا عليك لقد استمتعت بنزهة وقمت بالمهمة على خير وجه كان يمكن أن أقوم بها ، كم ذا أشكرك ومن كل قلبى على ما تجشمت فى سبيلى من تعب! والآن لما كان الطريق أمامى طويلا، ولما كنت على عجل لأن الملك ، ابن عمى، مشوق إلى أن يحصل على التفاحات الذهبية فى أقرب فرصة فهل لك ، من فضلك ، أن تأخذ عنى السماء من على كتفى؟».

وقذف العملاق التفاحات الذهبية فى الهواء فارتفعت عشرين ميلا أو نحو ذلك ثم لقطها وهى نازلة وفى أثناء ذلك كان يقول:

«أما من حيث هذا الموضوع فإنى لا أراك محقا فى الأمر، بل أنت لست عادلا معى، ألست أستطيع أن أحمل أنا بنفسى التفاحات إلى الملك بأسرع مما تستطيع أنت أن تفعل؟ ولما كان الملك متعجلا أمرها فإنى أعدك أنى سأخطو أطول خطوات أستطيعها ، أضف إلى ذلك أنى لا أظن أنه يروق لى الآن بالذات أن أحمل السماء».

وهنا بدأ صبر هرقل ينفذ، وهز كتفيه فى شىء من العنف ولما كان الوقت وقت الغروب فإنك كنت تستطيع أن تلمح نجمين أو ثلاثة نجوم تتدحرج ساقطة من مكانها، ونظر كل من بالأرض نحو السماء فى فزع مخافة أن تكون هى السماء التى ستسقط بعد ذلك.

وصاح العملاق وهو يضحك ضحكا صاخبا كأنه الزئير:

« لا .. لا ... هذا لا ينفعنا أبدا... إنى لم أسقط مثل هذا القدر من النجوم طوال خمسة قرون بأكملها ، إنك لو وقفت فى هذا المكان

قدر ما وقفت أنا لتعودت الصبر كما تعودته».

وصاح هرقل فى غضب:

«ماذا؟ أتريدنى أن أحمل هذا الثقل إلى الأبد»

فأجابه العملاق:

«سننظر فى هذا الأمر فى يوم من الأيام، وعلى كل حال ليس لك أن تشكو من شىء إذا ما اضطررت إلى أن تحمل السماء لمائة عام قادمة أو لألف، فلقد حملتها مدة أطول كثيرا من هذا بالرغم من آلام الظهر، ثم إنه بعد ألف عام أو نحو ذلك إذا أحسست أنه لا بأس عندى من حملها فإنى سآخذ مكانك، إنك رجل قوى بلا جدال وليست هناك فرصة تبرهن بها على قوتك تعادل هذه الفرصة المتاحة لك الآن. إن التاريخ سيتحدث عنك، وأنا واثق مما أقول».

وصاح هرقل وقد هز كتفيه هزة أخرى:

«سحقا لحديث التاريخ هذا ، خذ عنى السماء على رأسك لحظة من فضلك لأنى أريد أن أصنع حشية من جلد الأسد أركز الثقل عليها لأنه يحك جلدى، وفى خلال كل هذه القرون التى لا بد لى من أن أقف فيها هنا سيتسبب لى هذا الاحتكاك فى كثير من الضرر والمضايقة».

فقال العملاق:

«هذا من حقك دون شك»

ذلك أن العملاق لم يكن يحمل لهرقل إلا أطيب العواطف، ولم يكن فى الحقيقة يريد ضرا، كل ما فى الأمر أنه، بشىء من الأنانية، كان يحصر فكره فى كيفية إراحة نفسه قليلا.

قال: «خمس دقائق لا أقل ولا أكثر ، تذكر ذلك... إنى لا أرغب إطلاقا فى أن أقضى الألف سنة القادمة على نحو ما قضيت الألف الماضية... إن التغيير هو إكسير الحياة فيما أرى».

يا للعملاق الغبى الخرف، لقد رمى بالتفاحات الذهبية وتسلم السماء من على رأس هرقل وكتفيه وثبتها على رأسه هو، وكتفيه، حيث كانت فى مكانها الطبيعى الأصلى، أما هرقل فقد أسرع والتقط التفاحات الذهبية الثلاث التى كانت فى حجم القرع أو أكبر قليلا، وفى الحال بدأ رحلة العودة إلى بيته دون أن يبالى، ذرة واحدة بصوت العملاق الذى جلجل هادرا كالرعد وهو يدعوه لأن يعود إليه.

ونمت غابة أخرى حول قدمى العملاق وأصبحت عتيقة قديمة، ومرة أخرى أمكننا أن نرى شجر البلوط الذى يبلغ عمره ستة قرون أو سبعة وقد نما بين أصابع رجليه الضخمة.

وما زال العملاق واقفا هناك إلى اليوم، أو على كل حال ما زال جبل عال طويل مثله يحمل اسمه، وعندما يرعد الرعد فى قمته العالية فإنه يمكن لنا أن نتخيل أن هذا هو صوت العملاق «أطلس» وهو يهدر مناديا على هرقل أن يعود ليحمل عنه السماء.

المدفأة فى تانجلوود
(ما بعد قصة التفاحات الذهبية الثلاث)

وسأل الخنشار وكان جالسا طوال الوقت عند قدمى القاص فاغرا فاه فى دهشة:

«يا ابن العم يوستيس وكم يبلغ طول هذا العملاق بالتحديد؟»

وصرخ الطالب:

«يا خنشار ، يا خنشار ، أتظن أنى كنت هناك أقيس طوله بمقياس دقيق؟ ولكن إذا أردت أن تعرف بالدقة المتناهية فإنى أظن أنه كان يبلغ من الطول ثلاثة أميال إلى خمسة عشر ميلا صاعدة إلى أعلى، وإنه فيما يبدو كان يمكن أن يجلس مرتاحا على جبل «تاكونك» متخذا من جبل «مونمونت» مسندا لقدميه».

وتمتم الصبى الطيب الصغير فى هدوء واقتناع:

«ياللعجب !إنه لعملاق دون شك، وكم ذا كان طول إصبعه الصغير».

فأجابه يوستيس:

«بقدر المسافة التى تفصل بين البيت والبحيرة» وكرر الخنشار - وقد طرب لهذه المقاييس الدقيقة:

«إنه لعملاق دون شك»

ثم عاد ليسأل:

«ترى وكم يبلغ عرض كتفيه؟»

فأجابه:

«إن هذا هو ما لم أستطع إلى اليوم أن أعرفه ،. ولكنى أظن إنه لا بد أن يفوق عرض ما بين كتفى بشكل ظاهر، أو عرض كتفى والدك، أو عرض أى كتفين مما نرى هذه الأيام».

وهمس الخنشار الحلو وقد قرب فمه من أذن الطالب:

«كم ذا أتمنى أن تحدد لى مقدار حجم الشجرة من شجر البلوط، الذى نما بين أصابع قدمى العملاق».

فقال يوستيس:

«إنها كانت أكبر من شجر الكستنة الكبير الذى نصادفه هناك وراء مسكن الضابط سميث».

وبعد شىء من التروى قال السيد پرنجل:

«يا يوستيس إنى لا أجد أنه من المستحيل على أن أذكر لك رأيى فى هذه القصة على شكل يمكن أن يرضى، ولو نوعا ما، كبرياءك وافتخارك بأنك أنت الذى ألفتها، أرجوك، دعنى أنصحك ألا تعود مرة أخرى فتتدخل فى أمر أسطورة كلاسية، إن خيالك غوطى كله وعلى هذا فإنك مضطر إلى أن تحيل كل شىء تلمسه حتى يصبح

غوطيا ، والنتيجة التى تخرج بها من هذه العملية تشبه كثيرا ما تخرج به من عملية تلطيخ تمثال مرمرى بالألوان. هذا العملاق مثلا كيف جرؤت على حشر مقاييسه الضخمة غير المتناسبة داخل إطار الأسطورة الإغريقية المتناسق الجميل، هذا الإطار الذى يستطيع ، بما له من رشاقة طبيعية ورقة فطرية، أن يخفف من غلواء كل مبالغة وأن يدخلها فى حدوده الفنية».

واغتاظ الطالب نوعا ما، ولكنه أجاب بقوله:

«لقد وصفت العملاق حسبما بدا لى، وإنك، يا سيدى ، لو غيرت نوعا ما من علاقة عقلك بهذه الأساطير ، كما لا بد لها من أن تتغير حتى تصاغ هذه الأساطير صياغة حديثة ، فإنك ولا شك واجد فى الحال أن اليونانى لا يملك وحده الحق فى أمر هذه الأساطير ، وأن الأمريكى القح له فيها نفس الحق الذى لليونانى.

إنها ملك للعالم كله وملك للزمان كله، والشعراء القدامى أعادوا صياغتها حسبما كان يروق لهم، لقد كانت عجينة طرية فى أيديهم يشكلونها كيفما أرادوا، فلماذا لا تلين أيضا فى يدى أنا كما لانت فى أيديهم؟».

ولم يستطع السيد پرنجل، أن يكتم ابتسامة، ولكن يوستيس كان مايزال مستمرا فى قوله:

«يضاف إلى ذلك أنك بمجرد أن تضع حرارة القلب أو أى إحساس أو أية عاطفة أو أى مغزى إلهى أو إنسانى فى قالب كلاسى فإنما أنت تجعله شيئا آخر غير ما كان عليه، قبل أن تضعه فى هذا القالب. إن هذه الأساطير هى فى الحقيقة ميراث طبيعى

للإنسانية كلها منذ الأزل، وللإنسانية كلها الحق كل الحق فيها. لقد استولى عليها اليونان ووضعوها فى قوالب فنية ثابتة خالدة، ولكنها باردة لا روح فيها ، وهم منذ فعلوا ذلك قد ألحقوا بالإنسانية فى رأيى الخاص ضررا بليغا».

وهنا لم يتمالك السيد پرنجل من أن يضحك قائلا:

«وقد ولدت أنت لتمحو عن الإنسانية هذا الضرر أو تداويه. إذن لا بأس استمر فيما أنت فيه، ولكن اتبع نصيحتى ولا تسجل شيئا من هذه الأضاحيك على ورق أبدا، ومن باب الاقتراح بالنسبة لمجهوداتك القادمة لماذا لا تجرب فى المرة القادمة أسطورة من أساطير أبولو».

وبعد أن فكر الطالب مليا قال:

«حقا ، يا سيدى ، إنك لتقترح على هذه على أنها مستحيلة التحوير، وفى الحقيقة أنه، للوهلة الأولى، يبدو أن أبولو فى ثوب غوطى سيكون مضحكا حقا، ولكنى سأفكر كثيرا فى اقتراحك هذا ولن أيأس اليأس كله منذ الآن».

وبينما كانت هذه المناقشة تدور كان الأطفال الذين لم يفهموا كلمة منها قد داعب النعاس جفونهم، فأكروا بأن يذهبوا إلى فراشهم فى الحال، وكنت تسمع غمغمتهم الناعسة وهم يصعدون الدرج، بينما كانت الرياح الشمالية الغربية تزأر هادرة فى أعالى الشجر، فى تانجلوود، وكأنما هى تعزف تسبيحة للسماء حول البيت، وعاد يوستيس إلى غرفة المكتب وعاود المحاولة أن يستخرج بالقوة بضعة أبيات من رأسه، ولكنه استسلم لنوم هادئ فيما بين قافيتين.

جانب التل
(مقدمة قصة الجرة المسحورة)

ترى متى وأين تصادف الصغار بعد ذلك؟ إننا لن نصادفهم فى الشتاء بعد الآن، وإنما نصادفهم فى شهر مايو البهيج السعيد، ولا نجدهم فى بيت تانجلوود فى غرفة اللعب أو حول المدفأة، وإنما نجدهم فى منتصف الطريق صاعدين تلا ضخما أو جبلا، حسبما يحسن أن يسمى هذا التل، لقد خرجوا من البيت عازمين عزما أكيدا على أن يصعدوا هذا التل إلى أعلى منطقة من قمته الجرداء، ومن المؤكد أن هذه القمة لم تكن فى علو قمة جبل «شيمبورازو» أو الجبل الأبيض، بل إنها كانت فضلا عن ذلك أقل كثيرا من قمة «جريلوك» ولكنها على كل حال كانت أعلى ألف مرة من تلال النمل وأعلى مليون مرة من تلال الحبوب الصغيرة، وإذا قسنا علو الجبل بمقياس خطوات الأطفال الصغيرة القصيرة فإنما نجد علوه علوا لا بأس به، محترما إلى حد بعيد.

ترى وهل كان ابن العم يوستيس مع الجماعة؟

أما من حيث هذا فإنك تستطيع أن تكون موقنا كل اليقين وإلا فكيف يمكن لكتابه هذا أن يتقدم تأليفه، لقد كان الطالب الآن فى منتصف الربيع، وكان يبدو كما بدأ منذ أربعة أشهر أو خمسة، ولكنك إذا أمعنت النظر فى شفته العليا لأبصرت شاربا طريا صغيرا مضحكا يبدو أنه نبت حديثا جدا عليها، وإذا أطرحنا هذه الظاهرة التى تدل على نضج مبكر، فإنه من الطبيعى أن نقول إن ابن العم يوستيس كان ولا يزال هو هو الصبى الذى تعرفنا عليه أول الأمر، لقد ظل مع الصغار الذين أحبهم يتمتع بما يتمتع به أبدا من المرح والرغبة فى اللعب والطبع الطيف والسرعة فى الحركة والصفاء فى المزاج ثم حب الأطفال له حبا جما، إن هذه الحملة إلى قمة الجبل كانت من اختراعه هو وحده، وطوال الطريق الصاعد فى عنف أحيانا كان يشجع الصبية الكبار على الاستمرار بصوته المرح، ولما تعب الصغار هندباء، وزهرة الفتنة، وزهرة الليمون، حملهن بالتناوب على ظهره وعلى هذا النحو مروا من البساتين والمراعى فى أسفل التل حتى وصلوا إلى الغابة التى تمتد من حيث هم الآن إلى القمة الجرداء.

وكان شهر مايو ، حتى هذا اليوم، ألطف طقسا عما هو عادة فى مثل هذه الأيام من كل عام، وكان اليوم عليلا حلوا كأحلى ما يمكن أن يتمنى رجل أو طفل من قلبه أن يكون يومه، وفى أثناء تقدمهم صاعدين عثر هؤلاء الصغار على زهرات من البنفسج زرقاء وبيضاء وبعضها ذهبى وكأنما قد لمسها الملك ميداس بلمسته الذهبية، أما

هذه الزهرة الطيبة زهرة «الهوساتونيا» فقد ملأت السفح فى وفرة كبيرة، إنها زهرة لا تعيش وحدها أبدا وهى تحب أمثالها، ولذلك فهى مشغوفة بأن تعيش مع وفرة من الأصدقاء والأقارب حولها، وإنك لتجد أحيانا أسرة منها كاملة تغطى مساحة لا تزيد عن كف اليد، وربما جماعة بأسرها منها تجعل الممر كله فى المرعى مغطى بالبياض الناصع، وكل منها يسلى صاحبه ويبهج قلبه فى الحياة المشتركة بينهما.

وعلى حافة الغابة كانت هناك أزهار العائق، يبدو عليها الاصفرار أكثر مما يبدو الاحمرار الطبيعى الذى لها، لأنها كانت من التواضع بحيث إنها رأت أن من الأليق بها أن تتوارى فى خجل من الشمس... وكانت هناك أيضا أزهار الجيرانيوم أو الخبيزى البرية وآلاف من أزهار التوت البيضاء. أما القطب المتلكئ فى نضجه فلم يكن قد ازدهر بعد، وقد أخفى زهره الثمين تحت أوراق العام الماضى الذابلة التى ألقت بها الغابة، كما تخفى أم الطير فراخها الصغار، لقد عرفت لنفسها جمالها وحلاوة عبيرها فحرصت عليهما، وكانت عملية الإخفاء تلك متقنة إلى حد أن الأطفال كانوا ينشقون العبير الرقيق العبق قبل أن يعرفوا منبعه الذى منه ينتشر.

وفى قلب هذه الحيوية المتجددة فى كل ما هو حى كان من المؤلم أن تلاحظ هنا أو هناك فى الحقول والمراعى أن رءوس الهندباء الكبيرة التى تبدو مثل «البيروكا» من الشعر قد ذوت وأصبحت مجرد بذور ، لقد أنهت الصيف قبل أن يطلع الصيف عليها، وكان الخريف بالنسبة إلى هذه البذور المجنحة المستديرة الصغيرة قد حل بالفعل.

ولكن يجب علينا ألا نضيع صفحات أكثر مما أضعنا فى وصف الربيع والأزهار البرية، إن هناك فيما نأمل موضوعات أخرى أشهى من هذه نتحدث عنها، ذلك أنك إذا نظرت إلى مجموعة الأطفال لوجدتهم جميعا يتحلقون حول يوستيس برايت الذى جلس على جذع شجرة، ويبدو أنه يبدأ فى قص قصة عليهم، ذلك أن الذى حدث هو أن الأطفال الأصغر سنا فى المجموعة وجدوا أنه ، للصعود إلى قمة الجبل، لا بد لهم من خطوات كثيرة عديدة من خطواتهم الصغيرة، وعلى ذلك قرر ابن العم يوستيس أن تبقى زهرة الفتنة، والخنشار، وزهرة الليمون، والهندباء فى هذا الموقع فى منتصف الطريق الصاعد لينتظروا إخوانهم الأكبر سنا عندما يعودون إليهم بعد أن يصلوا إلى القمة، ثم ينزلون الجبل، ولأنهم كانوا يتذمرون قليلا لأنه لم يرق لهم أن يتخلفوا عن إخوانهم فلقد أخرج لهم تفاحا من جيوبه وعرض عليهم أن يقص عليهم قصة حلوة لطيفة، وبناء على ذلك أشرقت وجوههم وتحولت نظراتهم الحزينة البائسة إلى ابتسامات عريضة كأعرض ما تكون الابتسامات.

أما القصة التى قصها عليهم فلقد كنت مختبئا هناك وراء شجيرة صغيرة ، وسأقصها عليكم من أول وجديد فى هذه الصفحات التالية.

الجرة المسحورة

فى ذات مساء منذ زمان بعيد جدا جلس «فليمون» وزوجه العجوز «بوسيس» على باب كوخهما يتمتعان بمغرب الشمس فى هدوئه وجماله، لقد فرغا من تناول عشائهما المتواضع وعزما على أن يقضيا ساعة هادئة قبل أن يأويا إلى فراشهما ، وتحدثا فى شأن الحديقة والبقرة والنحل وكرمة العنب التى بدأت تعلو جدار الكوخ والتى أخذ عنبها يتلون بلون أحمر بنفسجى، ولكن صوت صيحات الأطفال الوقح ونباح الكلاب القاسى وقد وصل إلى آذانهم من القرية المجاورة أخذ يعلو ويعلو حتى أصبح من العسير على الرجل وزوجه أن يسمع كل منهما صاحبه أثناء الحديث.

وصاح فليمون لتسمعه زوجه قائلا: « يا زوجتى إنى لأخشى أن يكون ثمة مسافر مسكين يطلب من جيراننا رفدا وبدل أن يقدموا إليه الأكل والمبيت فإنهم يطلقون عليه كلابهم كعادتهم مع كل غريب».

وأجابت بوسيس العجوز: « يا له من يوم ! كم أتمنى أن يرحم جيراننا إخوانهم فى الإنسانية ولو قليلا، تصور كيف ينشئون أطفالهم على هذه الطريقة البشعة، بل إنهم ليربتون على أكتافهم ويملسون على رءوسهم رضاء عنهم إذا ما قذفوا الغريب بالحجارة».

وهز فليمون رأسه الأبيض الوقور وهو يقول:« لا ، إن هؤلاء الأطفال لن يصلوا إلى أى خير، وإنى لا أخفى عليك يا زوجى أنى لا أستبعد أن يصيب سكان هذه القرية أذى عظيم يوما ما إذا ما استمروا فى غيهم هذا ولم يغيروا من سلوكهم شيئا، أما بالنسبة إليك وإلى فما دام القدر يوفر لنا كسرة من الخبز فلنكن على استعداد أبدا أن نقتسمها مع أى غريب يمر بنا إذا ما كان فى حاجة إليها».

وقالت بوسيس: « صدقت يا زوجى، هكذا سنفعل أبدا» ولا بد لكم يا صغار من أن تعرفوا أن هذين الزوجين كانا فقيرين جدا، وكان عليهما أن يعملا جاهدين ليحصلا على قوتهما فالشيخ فليمون كان يكد فى دأب فى حديقته بينما كانت العجوز بوسيس مشغولة أبدا بمغزلها أو منهمكة فى صنع زبد أو جبن من لبن بقرتها ، أو عاملة هنا أو هناك فى بعض شئون الكوخ، وكان طعامها قلما يتعدى الخبز واللبن والخضروات مع عسل أحيانا من منحلهما، ومن حين لآخر كانا يظفران بمقطف من العنب من الكرمة التى كانت تنمو على الجدار، ولكنهما كانا من أطيب عجائز أهل الأرض طرا، وكانا مستعدين أبدا ألا يطعما عشاءهما فى سبيل ألا يرفضا إطعام مسافر غريب أضناه السفر يمر ببابهما ، لقد كانا يقدمان له عن

طيب خاطر قطعة من خبزهما الأسمر وكوبا من اللبن، وملعقة من العسل، وكانا يحسان أن مثل هذا المسافر إنما هو ضيف له نوع من القداسة، وعلى ذلك فلا بد من معاملته معاملة أكرم وأسخى من معاملتهما لنفسيهما.

وكان كوخهما يعلو ربوة عالية على مسافة ما من القرية التى كانت تنام فى جوف الوادى وكان عرض الوادى نحو ميل تقريبا، وفى قديم الزمان، عندما كانت الأرض جديدة لا تزال بكرا، كان هذا الوادى فيما يلوح مستقرا لبحيرة، بحيرة يجوب فيها السمك غاديا رائحا فى أعماقها بينما نبتت الأعشاب المائية على حافة البحيرة وتراءت للتلال والأشجار صورها المعكوسة على صفحة البحيرة الواسعة الهادئة كما تنعكس الصور على صفحة مرآة مصقولة، ولكن لما غارت مياه البحيرة عزق القوم أرضها وزرعوها وشيدوا عليها بيوتهم،و وهى الآن منطقة خصبة ولم يعد يرى بها من معالم البحيرة القديمة إلا جدول صغير يشق طريقه المتعرج فى عسر وسط القرية ويمد سكانها بالماء الذى يحتاجون إليه.

لقد بعد الزمن فى الوادى بجفاف البحيرة بحيث أن أشجار البلوط نمت وترعرعت وعظمت واستطالت ثم شاخت وفنيت وخلفها شجر جميل آخر من شجر البلوط نما هو أيضا وترعرع باسقا فى جلال ووقار، ولم يكن فى الوجود واد يضاهى هذا الوادى جمالا أو خصباً، . إن منظر الرى والشبع حوله كان كفيلا أن يهذب أخلاق ساكنيه ويرفق من طباعهم ويجعلهم يحمدون الله الذى خصهم بهذا النصيب الوافر من الحظ السعيد فيعبرون عن حمدهم وشكرهم لله

بأن يحسنوا معاملة إخوانهم فى الإنسانية.

ولكن للأسف نحن مضطرون إلى الاعتراف بأن سكان هذه القرية الجميلة ما كانوا يستحقون أن يسكنوا بقعة كهذه، ابتسمت لها السماء فجادت عليها بكل هذه الوفرة من الخير والجمال، لقد كانوا قوما أنانيين، قلوبهم من صخر، لا يرحمون فقيرا، ولا يشفقون على شريد محروم من بيته، وإنهم ليضحوا ساخرين لو قلت لهم إن فى عنق الإنسان دينا لأخيه الإنسان وإن وفاءه فى الحب والعطف وإنه بهذا الوفاء للإنسانية، وبه وحده نستطيع أن نوفى ديننا لله الذى خلقنا وكفل لنا أرزاقنا ووسعتنا جميعا رحمته، وقد لا تصدقون أن يكونوا مثلهم أشرارا، وكانوا يصفقون إعجابا وتشجيعا عندما يرون أبناءهم صبية وبنات يعدون خلف غريب مسكين يرشقونه بالحجارة ويصيحون عليه بسبابهم البذىء، وكانوا يقتنون كلابا ضخمة مفترسة، وعندما كان يجرؤ مسافر على أن يظهر فى شارع من شوارع القرية كانوا يطلقون هذه الكلاب البشعة لاستقباله بنباحها وزمجرتها مكشرة عن أنيابها، ثم تمسك هذه الكلاب الوحشية برجله أو بطرف ثوبه وتمزق ما شاء لها أن تمزق، فإذا كان المسافر المسكين رث الثياب من عناء السفر عندما أطل على هذه القرية فإنه قبل أن يتمكن من الفرار منها يكون عادة قد بلغ أقصى درجات الهلهلة والبؤس والشقاء، ويكون فعلا مثارا للشفقة وللرحمة لما ناله من ضر، وكانت هذه حالا فظيعة بالنسبة للمسافرين المساكين، كما ترون، وخاصة إذا شاء سوء حظهم أن يكونوا مصابين بمرض أو ضعف أو عرج أو تقدم فى السن، إن هؤلاء لو

كانوا يعرفون شيئا من قبل عن حال أهل هذه القرية وقسوتهم وقسوة أبنائهم وفظاظة كلابهم فإنهم كانوا يفضلون أن يسيروا أميالا وأميالا عن طريق آخر ليتجنبوا المرور فى هذه القرية مرة ثانية.

ومما يزيد الأمر سوءا إذا كان هناك مجال لزيادة فى السوء، إنه عندما كان يمر بالقرية أغنياء فى مركباتهم الفاخرة أو على ظهور جيادهم المطهمة ومن خلفهم خدامهم فى ملابسهم الفاخرة فإن أهل القرية كانوا يعاملونهم برقة فائقة وفى خضوع ذليل، ولا يمكن أن يجاريهم فى هذه الرقة أو هذا الخضوع أحد، وكانوا يرفعون للأغنياء قبعاتهم وينحنون فى تواضع مفرط يحيونهم فإذا تطاول الأطفال فإن قرع آذانهم أبسط ما ينالون من جزاء دون ريب. أما الكلاب فإن كلبا واحدا منها لو جرؤ أو حاول أن يعوى على الغنى المسافر فإن صاحبه كان ينزل عليه بمقرعة ضخمة ويربطه فى مكان منعزل ويحرمه من العشاء هذه الليلة، وكان يمكن أن يبدو هذا التصرف سليما لولا أن أهل القرية كانوا يثبتون دائما أنهم يهتمون بما فى جيب المسافر من مال ولا يهتمون إطلاقا بما بين جنبيه من روح، هذا الروح الذى يتردد فى نفس الأمير، والفقير على السواء.

والآن تدركون ، يا صغار ، لماذا تحدث فليمون بكل هذا الأسى عندما سمع صراخ الأطفال ونباح الكلاب يأتيه من أقصى القرية، وكان هناك صخب مختلط ظل عاليا فترة طويلة وكأنما هو يخترق عرض الوادى فى قوة وعنف، وقال الشيخ الوقور الطيب: «لم يعل نباح الكلاب إلى هذا الحد أبدا».

فأضافت زوجه العجوز: «وشراسة الأطفال لم تبلغ قط هذه الوقاحة».

وجلسا يهزان رأسيهما ونظر كل منهما لصاحبه، بينما الصخب يقترب منهما رويدا رويدا حتى استطاعا أن يلمحا من على الربوة الصغيرة التى يعلوها كوخهما مسافرين يقتربان راجلين وفى أثرهما وعلى قربهما الكلاب الضارية تنبح وتقتفى آثارهما وعلى بعد قليل كانت طائفة من الأطفال تعدو وهى تصرخ صراخا عاليا وتقذف المسافرين بكل ما استطاعت من قوة بالحجارة، وفى مرة أو مرتين التفت أصغر الرجلين، وكانا فارع القامة نشيطا، ليهش الكلاب بعصا كان يحملها فى يده، وأما رفيقه، وكان مفرطا فى الطول، فقد كان يسير إلى جواره فى غاية الهدوء وكأنما هو يحتقر مجرد فكرة الالتفات إلى هؤلاء الأطفال الأشقياء أو هذه الحفنة من الكلاب الضارية التى يقلد الأطفال سلوكها الوحشى.

وكان لباس المسافرين متواضعا فقيرا وظهر أنهما لا يحملان فى جيوبهما حتى ما يكفى لأن يدفعا منه ثمن المبيت ليلة واحدة، ولعل هذا هو السبب فى أن أهل القرية سمحوا لأطفالهم وكلابهم أن يعاملوهما بهذه الوحشية والقسوة.

وقال فليمون لزوجه بوسيس: «تعالى يا زوجى نقابل هذين البائسين، فأكبر الظن أنه قد أثقلت معاملة أهل القرية قلبيهما بالهم بحيث إنهما قد لا يقويان على صعود الربوة.

فأجابته بوسيس: «اذهب أنت وقابلهما بينما أسرع أنا إلى داخل الكوخ لأرى ماذا يمكن أن نقدم لهما من عشاء فى هذه الليلة، إن

كوبا من اللبن بالخبز سيفعل الأعاجيب فى التخفيف من ضيقهما».

وبناء على ذلك دخلت الكوخ، بينما تقدم فليمون من جهته نحو الغريبين ومد لهما يده فى ترحيب يغنى عن كل قول، ولكنه مع ذلك قال فى كلمات ما عبرت عنه اليد بالحركة:

«أهلا بالغرباء، أهلا وسهلا»

وقال الأصغر منهما بالرغم من التعب والشقاء فى صوت حى نشط: «شكرا ، إن هذه لتحية تخالف ما لاقينا من تحية هناك فى تلك القرية، بالله عليك ما الذى يغريك بالعيش فى مثل هذه الجيرة الفاسدة؟»

فقال فليمون فى ابتسامة هادئة راضية:

«إن القدر قد ألقى بى هنا لا أدرى لماذا؟ ولكنى أرجو أن يكون من بين هذه الأسباب أن أعوضكم خيرا قدر طاقتى عن سوء المعاملة التى لاقيتموها هناك من جيرانى»

وصاح المسافر وهو يضحك: «أصبت فى الجواب أيها الشيخ وإذا أردت الصدق فإننا ، أنا ورفيقى، فى أشد الحاجة فعلا إلى أن نعوض خيرا عما لقينا منهم، إن هؤلاء الأشقياء الأطفال قد غمرونا بالوحل من هذه القبضات من الطين التى كانوا يقذفوننا بها، وكلب من هذه الكلاب الضارية قد مزق معطفى، وكان، يعلم الله، لا يحتاج إلى مزيد من الهلهلة، فقد كان مهلهلا بما يكفى قبل أن نصل إلى هنا، ولكنى ضربته بعصاى على أنفه ضربة قوية، وأظنك سمعته يعوى، حتى وأنت على هذا البعد البعيد منه».

وسر فليمون عندما رأى المسافر يتحدث بهذه اللهجة المرحة التى

ما كانت تنم عن شيء مما عاناه من عناء السفر يوما كاملا، أو مما عاناه بشكل أفظع فى هذه المعاملة القاسية التى صادفها فى آخر رحلته، وكان الغريب يلبس لباسا عجيبا نوعا ما، فقد كان على رأسه غطاء يشبه القبعة، وللقبعة طرفان يمتدان فوق أذنيه ومع أن الوقت كان صيفا فقد كان يرتدى معطفا حرص على أن يكون لاصقا بجسمه، وقد يكون حرصه هذا لأنه يريد أن يخفى به ثيابه المهلهلة تحته، ولمح فليمون أنه يلبس حذاء عجيب الشكل. ولكن الوقت كان غسقا وكان نظر الشيخ قد أخذ يضعف بتقدم السن وبشكل ملحوظ فلم يميز ما هو هذا الذى يجعل الحذاء يبدو عجيبا مخالفا للمألوف ولكن الشيء المؤكد الذى لا يحتاج إلى تدقيق النظر لنتبين عجبه، هو سلوك هذا الغريب، لقد كان نشطا خفيف الروح والحركة وكأنما رجلاه كانتا ترتفعان عن الأرض من تلقاء نفسيهما، أو كأنما كان يبذل مجهودا فى أن يجعل قدميه تستقران على الأرض.

وقال فليمون: «كنت فى شبابى خفيف الحركة أحس أن قدمى خفيفتان جدا ولكنى كنت دائما أحس بأنهما تثقلان عند المساء».

فأجابه الغريب: « ليس هناك مثل العصا الجيدة تساعد الإنسان على خفة السير، ولقد شاء حظى أن أملك عصا ممتازة كما ترى»

وكانت هذه العصا من أعجب ما رأى فليمون من عصى فى حياته كلها، كانت مصنوعة من خشب الزيتون، وكان يزين رأسها شيء يشبه الجناحين، وعلى الخشب حفرت صورة حيتين متشابكتين ملتويتين على العصا، وكانت الحيتان محفورتين بحذق وبراعة حتى أنه خيل إلى فليمون ، وكان بصره قد أخذ يريه بتقدم السن كما

أسلفنا، أن الحياة تدب فيهما، وأنه يراهما تتحركان فعلا فى التواء وانثناء وتشابك وفكاك فيما بينهما حول العصا.

وقال فليمون: «إنها لقطعة فنية عجيبة حقا، عصا لها جناحان! إنها عصا ممتازة بالنسبة لطفل يريد أن يركبها لتحمله مسافات بعيدة».

وإلى هنا كان فليمون وضيفاه قد وصلا إلى باب الكوخ فقال لهما:

«يا صديقى اجلسا هنا على هذا المقعد واستريحا، إن زوجى الطيبة قد ذهبت تبحث لكما عما يمكن أن نقدمه إليكما من عشاء، إننا قوم فقراء ولكنا نرحب بكما وكل ما عندنا تحت أمركما»

وارتمى المسافر الأصغر سنا على المقعد فى لامبالاة، تاركا عصاه تسقط على الأرض، وهنا حدث شيء مدهش حقا وإن يكن بسيطا فى ظاهره، ذلك أن العصا وقفت على الأرض وحدها وقد شرعت جناحيها، ثم أخذت تنط أو تطير نوعا ما حتى انتصبت مستندة إلى جدار الكوخ، وهنالك وقفت ساكنة من كل حركة إلا حركة التواء الحيتين حولها، ولكنى، فيما أرى أنا شخصيا أظن أن بصر فليمون أخذ يخيل إليه ما لم يحدث ليسخر منه مرة أخرى.

وقبل أن يجرؤ على سؤال آخر كان المسافر الأكبر سنا قد استحوذ على انتباهه بأن وجه إليه القول سائلا فى لهجة عميقة بشكل يلفت النظر:

«ألم تكن هناك فى قديم الزمان بحيرة تغطى الأرض التى تقوم عليها تلك القرية الآن؟».

وأجاب فليمون:

«كلا يا صديقى لا شيء من هذا كان فى أيامى، وأنا شيخ كبير السن كما ترى... لقد كانت هناك دائما أبدا هذه المراعى، والغيطان التى هى هناك الآن، وهذا الشجر العتيق وهذا الجدول الصغير الذى يترقرق فى قلب الوادى، إن أبى وجدى فيما أعرف لم يعرفا المنطقة إلا على ما هى عليه الآن، ولا شك أنها ستظل كذلك عندما يرحل عنها فليمون الكهل وتنسى ذكراه».

فقال الغريب، وشيء من الجهامة يسرى فى نبرات صوته العميق:

«إن هذا القول أبعد مما يمكن أن يتنبأ به أحد» ..وهز رأسه فى الوقت نفسه بحيث اهتزت أيضا خصيلات شعره الغزير الأسود مع حركة الرأس... ثم أضاف:

«ما دام سكان تلك القرية قد نسوا الرحمة والعطف الخليقين بالطبيعة الإنسانية، فإن من الأفضل أن يترقرق ماء البحيرة فوق أطلال منازلهم كما كان يترقرق قبل أن يعمروا الوادى».

وتجهم وجه الرجل حتى أحس فليمون بشيء من الرهبة والخوف، وقد زاد من هذا الإحساس لديه إنه بمجرد أن قطب الغريب جبينه غمرت الغسق ظلمة معتمة أشد مما كانت، ولما هز رأسه دوى الرعد دويا عنيفا فى جنبات الوادى.

وإن هى إلا برهة قصيرة، حتى عاد وجه الغريب ينم عن التواضع والرحمة والدعة، حتى أن فليمون الشيخ نسى ذعره، وكأن لم يكن، ولكن بالرغم من هذا لم يستطع إلا أن يشعر أن هذا المسافر الكبير ليس شخصية عادية بحال من الأحوال، وإن يكن بسيط اللباس

يجوب الأرض على قدميه.

ولم يخيل إلى فليمون أنه أمير متنكر أو أنه أية شخصية من هذا النوع، ولكن خيل إليه أنه رجل حكيم حكمة فائقة ، يجوب الأرض فى هذا الزى الفقير المتواضع، محتقرا المال وعرض الدنيا، ساعيا فى كل سفرة أو رحلة أن يضيف ولو ذرة بسيطة من الحكمة إلى حكمته الوافرة، والظاهر أن هذا الفرض الثانى كان يبدو أكثر احتمالا لأن فليمون عندما رفع بصره لينظر إلى وجه الغريب خيل إليه أن كل ما يمكن أن يصل إليه بفكره من حكمة طوال عمر كامل، إنما قد ركز له كله فى هذه النظرة الواحدة.

وبينما كانت بوسيس تعد العشاء كان المسافران يتحدثان فى ألفة، ووداد مع فليمون، وكان أصغرهما دون شك أزلق لسانا وقد أبدى ملاحظات ذكية ماكرة مرحة أثارت الشيخ، فانفجر ضاحكا أكثر من مرة، ورأى أن الغريب أبهج إنسان لاقاه منذ زمن بعيد وأكثرهم مرحا.

وقال فليمون وقد زالت بينهم الكلفة: « قل لى يا صديقى، بأى اسم أدعوك؟»

فأجابه المسافر: «إنى نشط كثير الحركة سريعها كما ترانى، فإذا سميتنى الزئبقى فإن الاسم يكون على مسمى».

ونظر فليمون إلى وجه الغريب وهو يكرر الاسم «الزئبقى... الزئبقى» وكأنما يريد أن يتبين هل يسخر منه المسافر أم لا ثم قال: «ولكنه اسم شاذ عجيب، ورفيقك هذا هل له هو أيضا اسم عجيب كاسمك هذا؟».

وأجاب الزئبقى وقد رسم على وجهه تعبيرا غامضا : «لا بد أن تسأل الرعد عن اسمه ، فليس هناك صوت يعلو علوا كافيا لينطق لك الاسم كما يجب أن ينطق».

وكان هذا القول، سواء أقيل جادا أم مازحا، كفيلا بأن يشعر فليمون بالخشية العظيمة نحو المسافر الأكبر، لولا أنه رفع بصره إليه فإذا وجهه كأنه وقد غمرته طيبة وأريحية تفوقان كل وصف، وبالرغم من هذا فقد شعر فليمون دون ريب أن هناك رجلا عظيما جدا يجلس على باب كوخ حقير كما لم يجلس عظيم فى مكان حقير من قبل، وعندما كان يشعر أنه مدفوع دفعا لا قبل له بمقاومته إلى أن يبوح له بمكنون قلبه وأسرار نفسه، إن هذا هو الشعور الذى ينتابنا جميعا عندما نقابل إنسانا حكيما بلغ من حكمته أنه يستطيع أن يفهمنا فهما سليما، يفهم فى دقة خيرنا وشرنا وعيوبنا وفضائلنا ولا يحتقر أيا منها مهما صغر شأنه.

ولكن فليمون البسيط الطيب القلب لم يكن عنده من الأسرار ما يبوح به، ومع ذلك فلقد تحدث فى شىء من الثرثرة عن أحداث حياته الماضية التى لم يغادر خلالها كلها، على طولها، هذا المكان إلى أبعد من بضعة أميال منه... لقد عاش هو وزوجته بوسيس منذ شبابهما فى هذا الكوخ، وكسبا رزقهما بالجهد الدائب الطيب، وكانا دائما فقيرين، ولكنهما كانا أبدا قانعين بما عندهما، لقد تحدث عن الزبد والجبن اللذين تتقن صنعهما بوسيس، وعن الخضروات الطيبة التى يزرعها فى الحقل بنفسه ..ولقد قال أيضا إن كلا منهما يحب صاحبه حبا جما، إلى حد أنهما لا يتمنيان شيئا قدر ما يتمنيان أن

يموتا معا كما عاشا معا، حتى لا يعانى أحدهما آلام فراق صاحبه.

وبينما كان الغريب ينصت إلى فليمون أشرقت ابتسامة فأنارت وجهه وكسته تعبيرا عجيبا هو مزيج من الحلاوة والجلال. ثم قال:

«إنك يا فليمون لرجل طيب، ولقد رزقت امرأة طيبة لتكون رفيقة حياتك وإنه لمن حقك، أن تتحقق لك هذه الأمنية المتواضعة»

وخيل إلى فليمون فى هذه اللحظة نفسها أن سحب الغروب قد أطلقت من الأفق البعيد قبسا من النور أشعلت به السماء بنور مفاجئ وهاج.

وكانت بوسيس قد انتهت من إعداد العشاء وظهرت بالباب وهى تعتذر عن هذا الطعام الضئيل الذى اضطرتها الظروف أن يكون هو كل ما تقدمه لضيوفها قائلة:

«لو علمنا ، أنا وزوجى الطيب، بمقدمكما لكنا فضلنا أن نجوع ولا نطعم شيئا فى سبيل ألا تحرما من عشاء أفضل... ولكنى أخذت أكبر جزء من لبن اليوم لأصنعه جبنا، وآخر رغيف عندنا لم يتبق منه إلا نصفه، يا لشقائى! إنى لا أحس الأسى من الفقر إلا عندما يطرق بابنا مسافر متعب».

وأجاب المسافر الأكبر فى رقة وأدب:

«لا تقلقى يا سيدتى الطيبة، إن كل شىء سيكون على ما يرام... إن الترحيب المخلص الصادر عن القلب يصنع العجب فى نفس الغريب بالنسبة لما يقدم له من طعام، وإنه لقادر أن يحيل أخشن الطعام إلى عسل الجنان ورحيق الفردوس».

وقالت بوسيس بحماسة:

«وبالترحيب المخلص ستظفران ، ومعه شيء من عسل قد بقى لدينا وقطف من عنب أحمر لذيذ»

وصاح الزئبقى ضاحكا:

« يا أمنا بوسيس إنها لوليمة، وليمة بلا جدال، وسترين كم ذا سأصول وأجول فيها ، أنى لم أحس الجوع فى حياتى كما أحسه الآن»

«وهمست بوسيس لزوجها:

«يرحمك الله يا زوجى إذا كان الرجل حقا جائعا إلى هذا الحد فإنه لن يجد ما يشبعه نصف شبع».

ودخلوا جميعا الكوخ:

والآن، يا مستمعى الصغار، سأقص عليكم أمرا يجعلكم تحملقون فى بعيون مفتوحة دهشين، وإنه لمن أطرف ما فى القصة من حوادث ، إنكم تتذكرون كيف أن عصا الزئبقى قد أسندت نفسها إلى جدار الكوخ، والآن عندما دخل صاحبها باب الكوخ تاركا هذه العصا المدهشة خلفه ترى ماذا كان أمامها أن تفعل سوى أن تشرع جناحيها الصغيرين وتقفز وتطير قليلا فوق الأرض لتصعد درجات المدخل، ثم تطرق أرض المطبخ بصوت منتظم من خطواتها ولم يهدأ لها بال حتى أسندت نفسها بكل وقار وفخامة إلى جانب كرسى الزئبقى واقفة على قدم واحدة، وكان الشيخ فليمون وزوجه منهمكين فى إكرام ضيفهما إلى حد أنهما لم يلتفتا إلى ما كانت تقوم به العصا.

وكما قالت بوسيس لم يكن هناك بالفعل إلا كمية ضئيلة من الطعام بالنسبة لمسافرين جائعين ، ففى وسط المائدة كانت بقايا

رغيف أسمر وإلى جانبه قطعة من الجبن وإلى جانبه الآخر طبق فيه قرص من العسل، وكان هناك قطف كبير من العنب للضيفين، وعلى حافة المائدة كانت جرة متوسطة الحجم من الفخار مملوءة تقريبا باللبن، وعندما ملأت بوسيس مكانها كوبين ووضعتهما أمام الغريبين لم يبق فى الجرة إلا القليل من اللبن فى قعرها، إنه لموقف مؤلم حقا عندما يحس القلب الكريم أنه مغلول بظروف سيئة تقيد من كرمه وتعتصر فيه السخاء فلا يجد ما يمكن أن يجود به، مسكينة بوسيس كم كانت تود أن تجوع أسبوعا كاملا لو كانت بعملها هذا تستطيع أن تقدم للجائعين عشاء أوفى من هذا وأقدر على سد الرمق.

ولما كان العشاء متواضعا إلى هذا الحد فإنها لم تملك إلا أن تتمنى أن تكون شهيتها أقل مما كان عليه فعلا، ولكن المسافرين بمجرد أن جلسا عبا اللبن عبا فإذا كوب كل منهما فارغ.

وقال الزئبقى:

«هل لى فى مزيد من اللبن يا أمنا الطيبة بوسيس.. لقد كان اليوم حارا وإنى لعطش».

وأجابت بوسيس فى ارتباك شديد:

« يا ضيوفى الأعزاء .. كم أنا آسفة وكم أنا خجلة، ولكن والحق يقال لم يبق فى الجرة قطرة من اللبن ، يا زوجى يا زوجى لماذا لم نحجم عن العشاء الليلة».

وقال الزئبقى .. وقد نهض وأمسك بالجرة:

«ولكن الأمر فيما يلوح لى ليس بهذا السوء وأنا واثق من هذا، إن بالجرة مزيدا من اللبن ما فى ذلك شك».

وفى أثناء قوله، وقد أثار عمله دهشة بوسيس إلى حد عظيم أخذ يملأ كوبه ثم كوب زميله أيضا من الجرة التى كانت فارغة تقريبا، ولم تستطع المرأة الطيبة أن تصدق عينيها، لقد صبت اللبن كله تقريبا بنفسها، بل إنها قد أطلت من فتحة الجرة ورأت قاعها شبه فارغ قبل أن تعيدها إلى المائدة.

وقالت بوسيس لنفسها: «إنى عجوز معرضة لأن أنسى بسرعة وأكبر الظن أنى أخطأت ، وعلى كل حال فإن الجرة لابد أن تكون قد فرغت الآن بعد أن ملأت الكوبين مرتين».

وقال الزئبقى بعد أن عب الكوب الثانى من اللبن: «ما أشهاه من لبن! عن إذنك يا مضيفتى العزيزة ، ولكنى أرانى مضطرا إلى أن أطلب المزيد من هذا اللبن اللذيذ».

ولكن بوسيس قد رأت ، بأوضح ما يمكن أن تكون رؤية، أن الزئبقى أفرغ الجرة إفراغا تاما، وقد قلبها ليصب منها آخر قطرة فى الكوب الأخير الذى ملأه، وعلى ذلك فإنه من المؤكد أنه لم تبق هناك قطرة لبن فى الجرة، ولكن لكى تجعله يدرك حقيقة الحال فعلا رفعت الجرة وحركته كأنما هى تريد أن تصب كل ما فيها فى كوب الزئبقى دون أن تكون لديها أية فكرة أنه من الممكن أن ينساب اللبن منها بحال من الأحوال، وكم ذا كانت دهشتها عندما تدفق اللبن فى وفرة كالشلال الفائر فملأ الكوب إلى حافته وفاض على المائدة، وشرعت الحيتان الملتويتان على عصا الزئبقى رأسيهما وأخذتا تلعقان اللبن المراق، ولكن بوسيس وزوجها استغرقتهما الدهشة فلم يريا فعلة الحيتين.

كم كانت عبقة رائحة هذا اللبن! لكأنما بقرة فليمون الوحيدة قد رعت أغنى المراعى وأشهاها طوال هذا اليوم ، لكم أتمنى، يا صغارى الأعزاء، أن يظفر كل منكم بكوب من هذا اللبن اللذيذ فى عشائه الليلة.

وقال الزئبقى: « والآن علينا بشريحة من خبزك الأسمر وملعقة من عسلك هذا، يا أمنا بوسيس»

وقطعت له بوسيس شريحة خبز كما طلب، وكان الرغيف ساعة تعشت بجزء منه هى وزوجها ناشفا أجف من أن يبلع بسهولة، فإذا به يصبح طريا خفيفا وكأنما له بضع ساعات ليس غير منذ أخرج ساخنا من الفرن، ومدت يدها إلى الفتات الذى كان على المائدة وذاقته فإذا هو ألذ وأطيب من أى خبز ذاقته قبل اليوم، حتى أصبحت لا تصدق أنها هى التى عجنته وخبزته، ولكن بأى رغيف آخر يمكن أن يكون قد استبدل؟.

والعسل! ولقد يحسن أن أترك العسل وشأنه دون أن أحاول أن أضيف عبق رائحته أو جمال منظره أو صفاء لونه، لقد كان لونه فى لون أخلص أنواع الذهب وأصفاها، وأما رائحته فقد كانت رائحة آلاف الأزهار مركزة، أزهار لا تنبت فى حديقة أرضية ولا بد أن النحل قد صعد فى طيرانه فوق السحب ليصل إلى رحيق مثل هذه الورود والأزهار ، والعجيب حقا أن هذا النحل بعد أن يكون قد وقف بحوض من أحواض مثل هذه الورود بعبيرها السحرى ونضرتها الأبدية رضى لنفسه أن ينزل ليعود إلى خليته فى حديقة فليمون، لم يوجد مثل هذا العسل فى أية بقعة من الأرض، ولم يذق مثله أو يشم

عبيره أحد من قبل، إن عبيره انتشر فى المطبخ فجعل جوه جميلا ساحرا بحيث إنك لو أغمضت عينيك لنسيت فى الحال السقف الواطئ والجدران الملوثة بالدخان ولحسبت نفسك فى بستان يغمره الفل والياسمين.

ومع أن الأم الطيبة بوسيس كانت عجوزا بسيطة محدودة القدرة على التفكير فإنها لم تملك إلا أن ترتاب فى كل هذا الذى يدور من حولها، فلقد بدا لها أنه قطعا ليس عاديا، ولذلك فإنها بمجرد أن قدمت للضيفين الخبز والعسل ووضعت قطفا من العنب فى صحن كل منهما جلست إلى جوار فليمون وأخذت تقص عليه هذا الذى رأته كله وفى همس سألته:

«وهل سمعت بمثل هذا من قبل؟»

فأجابها فليمون باسما: «كلا لم أسمع، وأنى لأرجح يا زوجى العجوز العزيزة أنك إنما كنت تمرين بحلم من الأحلام، ولو أنى الذى صببت اللبن لكشف الأمر فى الحال ، لقد كان فى الجرة من اللبن أكثر مما قدرت وهذا هو كل ما حدث ولا شىء أكثر من ذلك».

وقال بوسيس: «قل ما شئت يا زوجى، إن هؤلاء لقوم غير عاديين، دون شك».

فأجابها فليمون وهو لا يزال يبتسم: «حسنا فليكن الأمر كذلك، إنهما ولا شك يبدوان وكأنما الدهر قد أحنى عليهما بعد أن كانا فى نعيم، وأنى لسعيد جدا أن أراهما يتعشيان عشاء طيبا على كل حال».

وكان كل زائر من الزائرين قد أخهذ قطفا من العنب فى صحنه،

وكان من رأى بوسيس التى فركت عينيها لتحسن الرؤية أن عنقود العنب نما وكبر وكثرت حباته، وأن كل حبة من العنب بدت وكأنها ستنفجر من كثرة ما أفعمت به من العصير الناضج، وبدا لها الأمر محيرا غامضا ، كيف يمكن لمثل هذه الحبات أن تكون قد نمت على الكرمة الضامرة التى تتسلق جدار الكوخ.

وقال الزئبقى وهو يبلع حبات العنب حبة وراء حبة دون أن ينقص شيء من العنقود: « عنب ممتاز حقا، قل لى يا مضيفى العزيز من أين قطفت هذا العنب».

فأجابه فليمون: « من كرمتى، وتستطيع أن ترى فرعا من فروعها منثنيا عبر النافذة هناك، ولكنى وزوجتى لم نكن أبدا نظن أنها من النوع الممتاز».

فقال الضيف: «لم أذق أشهى من هذا فى حياتى، ناولنى كوبا آخر من هذا اللبن وبذلك أكون قد تعشيت عشاء أفضل من عشاء الأمراء».

وفى هذه المرة كلف فليمون نفسه مشقة القيام، وأمسك من نفسه بالجرة لأنه كان متشوقا إلى أن يعرف هل هناك ظل من الحقيقة فى كل هذا الذى قصته بوسيس عليه من عجائب أثناء كانت تهمس فى أذنه، وكان متأكدا أن زوجه الطيبة لا يمكن أن تكذب وأنها قلما تخطئ فيما تظن أنه هو الحق، ولكن هذه الحال كانت أمرا شاذا فريدا وهو يريد أن يرى بعينيه وأن يفحص الموضوع بنفسه، ولما رفع الجرة تطلع إلى داخلها خلسة واقتنع كل الاقتناع أنها لا تحوى قطرة واحدة من اللبن، وفجأة رأى نافورة صغيرة بيضاء تتدفق من

قاع الجرة وتملؤها في سرعة إلى حافتها باللبن المزبد العبق اللذيذ.. ومن حسن الحظ أن فليمون في دهشته لم يسقط الجرة المسحورة من بين يديه.

وصاح وقد تملكته دهشة تفوق الدهشة التي تملكت زوجه: «ومن تكونان أيها الغريبان اللذان يقومان بكل هذه العجائب!» وأجاب المسافر الأكبر سنا: «ضيوفك ، يا فليمون وأصدقاؤك» وكانت في صوته العميق رنة هادئة تجمع بين الحلاوة والجلال الذي يوحي بالخشية منه ثم أضاف : «صب لي أنا أيضا كوبا من اللبن ولتترع جرتك أبدا باللبن ولتكن دائما مملوءة لك أنت ولبوسيس الطيبة كما هي مملوءة للمسافر المضني المسكين».

ولما انتهى العشاء طلب الغريبان أن يأويا إلى فراش، لكم ود العجوزان أن يتحدثا إليهما حديثا أطول ليعربا عن العجب الذي تملكهما وعن البهجة التي ملأت نفسيهما عندما وجدا أن العشاء الفقير قد أصبح لأمر ما، أفضل مما قدرا وأسخى مما كان يؤملان أن يكون، ولكن المسافر الأكبر كان قد ملأ قلبيهما بالاحترام والاجلال بحيث إنهما لم يستطيعا أن يسألا أي سؤال، ولما انتحى فليمون بالزئبقي قليلا ليسأله كيف دخلت هذه النافورة من اللبن إلى قعر الجرة الفخارية العتيقة أشار الزئبقي إلى عصاه وقال:

«هنا يكمن السر الأكبر لهذه الأعجوبة، فإذا استطعت أن تفسر لي الأمر فإني أكون مدينا لك بالشكر، لست أدري ماذا أفعل في أمر هذه العصا، إنها دائما تقوم بمثل هذه الألاعيب العجيبة، فأحيانا تهيئ لي عشاء ، وكثيرا ما تعود لتسرق مني ما هيأت لي من عشاء،

وإنى فى الحقيقة لو كنت ممن يصدقون ما يقوله الناس عن السحر لآمنت فعلا أن هناك شيئا اسمه السحر».

ولم يزد على قوله هذا حرفا، ولكنه نظر فى مكر إلى وجه فليمون وزوجه إلى حد أنهما أحسا أنه إنما يسخر منهما، وبينما كان الزئبقى يغادر الغرفة كانت العصا السحرية تقفز وراءه خارجة معه، ولما ترك الزوجان وحدهما أمضيا بعضا من الوقت فى الحديث عن أحداث المساء، ثم استلقيا على أرض الغرفة وراحا فى نوم عميق، لقد تنازلا عن غرفة نومهما للضيفين ولم يعد لهما من فراش يأويان إليه سوى ألواح الخشب الأرضية التى أرجو أن تكون قد لانت لجنبيهما كما لان قلباهما للغريبين.

ولما بزغ الصباح كان العجوزان يتململان فى صحوتهما ، بينما صحا الضيفان وأعدا حالهما للرحيل.

وحاول فليمون فى كرم أن يؤخرهما قليلا عن السفر حتى تستطيع بوسيس أن تحلب البقرة وتخبز فطيرة وربما وجدت لهما بعض بيضات لإفطارهما ، ولكن كانت للضيفين وجهة نظر أخرى هى أن يبكرا بالرحيل لأنهما يريدان أن يقطعا أكبر قدر من المسافة فى سفرهما قبل أن تشتد حرارة النهار، ولذلك أصرا على الرحيل، ولكنهما طلبا إلى فليمون وبوسيس أن يخرجا معهما قليلا حتى يبينا لهما الطريق الذى يجب أن يتخذاه للسفر.

وعلى ذلك خرج أربعتهم من الكوخ وهم يتحدثون معا وكأنما هم أصدقاء من زمان بعيد، وكان مما يلفت النظر حقا أن العجوزين رفعا كل كلفة بينهما وبين المسافر الأكبر وانسجما معه وقد ذابت

نفسهما البسيطة المفطورة على الخير فى نفسه كما تذوب قطرتان من الماء فى محيط لا نهائى.

أما بالنسبة للزئبقى فإنه ببديهته المرحة النفاذة الذكية، كان يكتشف كل فكرة صغيرة تخطر ببالهما قبل أن يدركا كنهها أو يتصوراها على حقيقتها ، بل إنهما كانا يودان أحيانا لو أنه لم يكن فطنا ذكيا حاضر البديهة إلى هذا الحد، كما كانا يودان أيضا لو أنه تخلى عن عصاه وألقى بها بعيدا لأنها كانت تبدو مسحورة شريرة بفضل الحيتين اللتين كانتا تتلويان عليها، ومع ذلك فقد بدا لهما أن الزئبقى شخصية مرحة لطيفة من تصرفاته إلى حد أنهما كانا يطربان لو استطاعا أن يبقياه معهما فى الكوخ أياما أخرى يمضى معهما كل يوم منها بطوله فلا يملانه أبدا.

ولما ساروا مسافة بعيدة من باب الكوخ صاح فليمون:« يا لجمال هذه الصحبة فى هذا الصباح، لو أن جيراننا عرفوا أية نعمة مباركة يحسها الإنسان إذا أكرم غريبا كانوا يقيدون كلابهم ولا يسمحون لأبنائهم أبدا أن يقذفوا أحدا بالحجارة».

فأضافت بوسيس فى حماسة ظاهرة: « أنها لخطيئة كبرى، بل إنه لعار أكبر أن يسلكوا هذا السلوك، وأنا مصممة على أن أذهب إليهم فى نفس هذا اليوم لأقول لهم بنفسى كم هم أشرار».

فعقب الزئبقى على كلامها وهو يبتسم فى خبث:

«ولكنى أخشى أنك لن تجدى أحدا منهم فى بيته».

وفى هذه اللحظة تجهم وجه المسافر الأكبر، وعلت وجهه مسحة من العظمة الوقور الحازمة، ولكنها كانت صافية هادئة، وأحس

فليمون وبوسيس أنهما لا يستطيعان أن يقولا كلمة فحملقا فى وجهه وكأنما هما يحملقان فى السماء، وقال المسافر فى صوت عميق شجى وكأنما صوته أنغام أرغول مليئة دافئة:

«عندما لا يحس قوم بالإخوة نحو مسافر غريب رقيق الحال فإنهم لا يستحقون أن يعيشوا على هذه الأرض، تلك الأرض الطيبة التى ما خلقت إلا لتكون مستقرا للإخوة الإنسانية بجلالها وعظمتها».

وصاح الزئبقى وفى عينيه بريق المرح والمكر:

«ومع كل هذا يا عزيزى العجوزين أين هى هذه القرية التى تتحدثان عنها، على أى جانب منا تقع يا ترى... فإنى فيما يبدو لا أرى شيئا منها الآن».

ونظر فليمون وزوجه نحو الوادى حيث كانا يريان حتى أمس فى مغرب الشمس المراعى والبيوت والحدائق ومجموعات الشجر والطريق الواسع العريض المحفوف بالخضرة على جانبيه والأطفال يلعبون فيه، إن كل علائم الحياة والرخاء والمرح كانت تتجلى فى هذا الطريق الكبير، كم ذا كانت دهشتهما ! لم يعد هناك أى أثر لقرية أو لغيرها ، حتى هذا الوادى الخصب الذى كانت تقع القرية فى قاعه لم يعد له هو أيضا أى وجود، وبدلا من كل هذا لاح لأعينهما وجه بحيرة واسع أزرق يملأ قاع الوادى من الحافة إلى الحافة، وصورة التلال المجاورة تنعكس على صفحة هذا الوجه العريضة الزرقاء فى هدوء وسكون وكأنما البحيرة كانت هناك حيث هى الآن منذ خلقت السماء والأرض، وظلت صفحة البحيرة هادئة هدوءا تاما فترة ثم مرت عليها ريح رقيقة فأرقصت مياهها وجعلتها تتلألأ فى شعاع

الصباح المبكر ثم بدفعت بها فى خرير مطرب هادئ لترتطم فى هدوء بحواف شاطئها.

وبدا منظر البحيرة للعجوزين مألوفا بشكل ارتبك له تفكيرهما حتى أنهما ظنا لأول وهلة أنهما إنما كانا يحلمان بهذه القرية التى كانت هناك ، ولكنهما بعد برهة تذكرا المبانى التى تلاشت ، وتذكرا وجوه السكان وسلوكهم، وصفات كل منهم، بحيث إنهما شكا فى أن يكون الأمر كله حلما كما بدا لهما لأول وهلة، إن القرية كانت هناك حتى أمس، والآن ها هى ذى قد تلاشت!

وقال العجوزان الطيبان: «واحسرتاه ماذا أصاب جيراننا البؤساء!»

وقال المسافر الأكبر فى صوته الوقور العميق بينما رددت كلماته ـ وكأنما هى الصدى ـ موجة من الرعد أخذت تسمع عن بعد:

«أن جيرانكم لم يعودوا رجالا ونساء، كما كانوا، إن حياتهم لا فائدة منها ولا جمال فيها، إنهم لم يقوموا بأى مجهود نحو إسعاد الغير أو تخفيف البلاء عنه، ولم يشعروا أبدا بالعواطف الطيبة التى يمكن أن تتبادل بين إنسان وإنسان، هذه العواطف التى تجعل عبء الحياة خفيفا، ولذلك فإن البحيرة العتيقة التى كانت هناك من زمان قد مددت نفسها ووسعت مساحتها لتستطيع مرة أخرى أن تعكس صورة السماء على الأرض».

وقال الزئبقى فى ابتسامته الماكرة:

«أما هؤلاء الأغبياء البله فقد استحالوا جميعا إلى سمك... وهذا التحول لم يكن عسيرا فقد كانوا من أبرد ما خلق الله دما.. ومن

أكثر المخلوقات الدنيئة حراشيف وأشواكا، وعلى ذلك فإذا اشتقت أنت أيتها الأم الطيبة بوسيس واشتاق زوجك معك إلى أكلة من السمك المشوى فإن زوجك يستطيع أن يرمى بشبكته فى البحيرة ليخرج عشرة من جيرانكم القدامى».

فصاحت بوسيس مرتعدة: « كلا .. كلا لا أستطيع أن أضع أيا منهم على المشواة بأى حال أبدا!»

وأضاف فليمون بوجه عابس: « كلا إننا لن نستطيع أن نذوق شيئا منهم»

ولكن المسافر الأكبر أضاف إلى كلامه دون أن يعير قولهما انتباها:

«أما بالنسبة إليك يا فليمون الخير، وأنت يا بوسيس الطيبة فإنكما بالرغم من مواردكما الضئيلة قد مزجتما الترحيب القلبى بحسن ضيافة الغريب الذى لا مأوى له إلى حد أن أصبح لبنكما ينبوعا لا يجف من رحيق الجنة، وخبزكما الأسمر وعسلكما أصبحا وكأنهما طعام الآلهة، لقد طعم الآلهة على مائدتكما من نفس ما يقدم إليها فى حفلات الأولب... لقد أحسنتما عملا يا صديقى العجوزين وعلى ذلك اطلبا أفضل ما يشتهيه القلب وستجدان ما تتمنيان محققا».

ونظر كل من فليمون وبوسيس إلى صاحبه، ولكن لا أدرى على وجه التحديد أيهما هو الذى تكلم، ولكن من تكلم عبر عن هذا الذى يتمناه كل منهما من صميم القلب:

«اجعلنا نعش معا مادمنا نعيش، فإذا متنا فاجعلنا نرحل عن

هذا العالم معا وفى لحظة واحدة، لقد عشنا حياتنا متحابين أبدا».

فأجاب الغريب وفى قوله حنان جليل:

«فليكن لكما ما شئتما ، والآن انظرا إلى كوخكما».

ونظرا كما أمرهما ، وكم كانت الدهشة عندما بدا لهما، مكان مسكنهما المتواضع الذى كان إلى لحظة قريبة، قصراً فخماً من الرخام الأبيض وقد فتحت بوابته الضخمة على مصراعيها.

وقال الغريب وهو يبتسم فى رضا عنهما معا:

«هذا هو بيتكما، فلتمارسا الكرم الذى جبلتما عليه فى هذا القصر بنفس السماحة، التى كنتما تمارسانه بها فى كوخكما المتواضع الذى استضفتمانى فيه أنا وصاحبى مساء أمس».

وركعت العجوز على ركبتيها هى وزوجها ليشكراه.. ولكن يا للدهشة! إن الغريب والزئبقى قد تلاشيا ولم يعد لهما وجود.

وسكن فليمون وبوسيس فى القصر المنيف... وقضيا عمرهما فيما يملأ النفس رضى وبهجة فى عرفهما، قضيا العمر فى إسعاد الغريب المسافر والعمل على راحته كلما مر بهما، أما الجرة المسحورة فإنه يجب ألا أنسى أن أذكر لكم أنها استمرت محتفظة بميزتها العجيبة، ميزة أنها لا تفرغ أبدا، إنها كانت مملوءة لبنا دائما كلما طلب إليها أن تجود بلبن، وكلما شرب منها زائر طيب القلب مرح أمين وجد لبنها دائما أشهى لبن وأحلاه، بل وجده أفضل سائل يدخل جوفه ليملأه حيوية ونشاطا، ولكن إذا شرب منها زائر خبيث لئيم سيىء الطوية، فإنه من المؤكد أنه كان يلوى شفتيه ويعقد وجهه عقدة متجهمة لينعت لبن الجرة بأنه لبن حامض.

وهكذا عاش الزوجان فى قصرهما زمانا طويلا جدا... وازدادا كبرا، حتي بلغا من العمر عتيا. وجاء يوم لم يظهر فيه فليمون ولا بوسيس فى مطلع الصبح كعادتهما ولم يظهر وجههما الطيب السمح الذى يعلوه ابتسامة كريمة مرحبة ليدعوا ضيوف الأمس إلى طعام الإفطار... وصحا الضيوف وبحثوا عنهما فى كل مكان من القصر الفسيح صاعدين نازلين دون جدوى، وبعد فترة طويلة من الحيرة والقلق أبصروا أمام مدخل القصر شجرتين جليلتين فى وقار وجمال، فأثار دهشتهما أن أحدا منهم لم يذكر أنه رأى هاتين الشجرتين فى اليوم السابق بحال من الأحوال، ومع ذلك فإن الشجرتين كانتا قائمتين هناك بجذورهما المتماسكة فى عنف وعمق بالأرض وبفروعهما الباسقة التى نشرت الظل عريضا واسعا على مدخل القصر كله، كانت شجرة منهما شجرة بلوط والأخرى شجرة زيزفونة، وكان من أبهج ما يمتع العين فى أمرهما تشابك فروعهما وكأنما هى تتعانق فى حنان وحب، وكأنما كل منهما تعيش علي صدر الأخرى أكثر مما تعيش على جذعها هى.

وبينما كان الضيوف يتأملون فى دهشة كيف أمكن للشجرتين أن تصلا إلى هذا الطول والجلال فى ليلة واحدة، وكانتا تحتاجان إلى قرن بأكمله لتصلا إلى ما وصلتا إليه، مر النسيم الرقيق فأثار فروعهما المتشابكة فى حركة لطيفة خفيفة... وإذا بهمهمة عنيفة تنتشر فى الجو كله وكأنما الشجرتان السحريتان تتناجيان.

وتمتمت البلوطة: «أنا فليمون الكهل»

وتمتمت الزيزفونة «وأنا بوسيس العجوز»

ولما عنف النسيم فى حركته... تمتمت الشجرتان معا : «فليمون بوسيس .. بوسيس فليمون» فكأنهما شجرة واحدة وكانت مناجاتهما تنبع من أعماق قلب واحد مشترك بينهما، وكان من الواضح أن العجوزين قد استعادا شبابيهما وأنه أصبح أمامهما الآن مائة سنة طويلة يعيشانها في سعادة، فليمون فى صورة بلوطة، وبوسيس فى صورة زيزفونة، ولكم كان ظلهما كريما رحيما منتشرا على بقعة واسعة حولهما، وعندما كان يأوى إلى ظلهما مسافر غريب متعب كان يسمع حفيف الأوراق فى الفروع المتشابكة من فوق رأسه وكان يعجب كل العجب كيف كان حفيف الورق الهامس يكاد ينطق فى وضوح:

«مرحبا «مرحبا بك أيها المسافر العزيز... مرحبا بك».

وفى يوم جاء رجل طيب عرف لأمر ما أحب شيء يمكن أن يفرح قلب فليمون وبوسيس فصنع مقعدا دائريا حول جذع الشجرتين حيث كان يجلس تحتهما لزمان طويل كل متعب فيستريح وكل عطشان فيروى وكل جائع فيطعم لبنا ثرا غزيرا من نافورة الجرة المسحورة. ولكم كنت أتمنى لكم جميعا لو أن الجرة المسحورة كانت معنا الآن لتشربوا منها.

جانب التل
(ما بعد قصة الجرة المسحورة)

وسأل الخنشار «وكم ذا كانت تسع الجرة المسحورة؟» فأجابه الطالب: «لم تكن تسع لترين.. ولكنك كنت تستطيع أن تصب منها اللبن وتظل تصب حتى تملأ برميلا كبيرا إذا شئت . فالحقيقة أن اللبن كان يمكن أن يسيل منها إلى الأبد ولا تجف أبدا حتى إبان الصيف الحار، وهذا فى الواقع أكثر مما يمكن أن توصف به هذه القناة الصاخبة التى تملأ سفح التل صخبا».

وسأل الصبى مرة أخرى: «وماذا حدث لهذه الجرة المسحورة بعد ذلك؟»

فأجاب ابن العم يوستيس: «آسف أن أقرر أنها كسرت منذ حوالى خمسة وعشرين قرنا، ولقد حاول الناس أن يصلحوا من أمرها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا فأصبحت تسع اللبن دون صعوبة ولكنها لم تعد تستطيع أن تملأ نفسها كما كانت تفعل من قبل،

وبذلك أصبحت لا تفضل ، بأية حال، أية جرة فخارية أخرى مشدوخة».

وصاح الصبية فى صوت واحد: ««يا خسارة!»

وكان الكلب الوقور «بن » قد صحب الجماعة كما فعل الجرو الصغير الذى كان يسمى «بروين» لأنه كان أسود من الدب الأسود، ولما كان بن هو الأكبر ، ولما كانت له خصال واضحة فى الحرص والحذر، فقد كلفه ابن العم «يوستيس» أن يتخلف عنهم مع الصغار الأربعة ليحول دون أن يرتكبوا ما لا تحمد عقباه، وأما بروين الأسود ، الذى لم يكن فى الواقع إلا طفلا غريرا، فلقد قرر الطالب أنه من الأفضل أن يسير معهم هم الكبار مخافة أنه لو ترك مع الصغار فقد يدفعهم فى اللعب إلى أن يتعثروا فيسقطوا متدحرجين علي سفح التل إلى القاع، ولما نبه الطالب على زهرة الفتنة، والخنشار، والهندباء البرى، وزهرة الليمون، أن يهدأوا ويظلوا فى المكان الذى تركهم فيه بدأ يصعد التل مع زهرة الربيع والكبار من إخوتها حتى اختفوا بعد قليل عن الأنظار وتواروا فى الأشجار البعيدة.

القمة الجرداء
(مقدمة قصة شيميرا الوحش)

واستمر يوستيس برايت يصعد التل الكثيف الغابات مع رفاقه الصغار، ولم تكن الأشجار مورقة بكل أوراقها ولكن أوراقها كانت قد بزغت فيها بحيث تكفى لأن تلقى ظلا ظليلا كلما ملأت الشمس الأشجار بنور أخضر، وفى الطريق كانت صخور نمت عليها الطحالب غارقة فى الأوراق البنية القديمة المتساقطة على الأرض.

وكانت هناك جذوع بالية ملقاة بكل طولها على الأرض حيث سقطت منذ زمان بعيد، وكانت هناك جذوع متآكلة عصفت بها رياح الشتاء العاتية فتناثرت هنا وهناك وفى كل مكان، ومع أن منظر هذه كلها كان يوحى بالقدم والبلى فإن منظر الغابة كان يوحى بالحياة الجديدة فى فجرها، ذلك أنك كيفما أدرت النظر أبصرت شيئا يبزغ جديدا أخضر مفعما بالحياة وكأنما هو يستعد لاستقبال الصيف.

وأخيرا وصلت الطائفة الفتية إلى أعلى أطراف الغابة ووجدوا

أنفسهم تقريبا على قمة التل، ولم تكن القمة ضيقة عالية ولم تكن مكورة كالكرة وإنما القمة كانت كالوادى الواسع، أى أنها كانت أرضا مستوية يلوح عليها وعلى مسافة منها بيت ومخزن، وكان البيت بيت أسرة منعزلة وكثيرا ما كانت السحب الثقيلة بالأمطار ، التى كانت تنزل منها أحيانا عواصف ثلجية، تلوح من هذا البيت المنعزل الكئيب وكأنها معلقة إلى الأسفل.

وفى أعلى نقطة من التل كانت كومة من الصخور قد رشق فى وسطها عمود طويل فى طرفه علم صغير يرفرف فى الهواء، وقاد يوستيس الصغار إلى العلم وطلب إليهم أن يجيلوا البصر حولهم ليتسنى لهم رؤية جزء كبير من الدنيا الجميلة فى نظرة واحدة، ولكم اتسعت عيونهم وهم ينظرون إلى هذا الذى كان من حولهم.

وكان جبل «مونمونت» لا يزال يتوسط المنظر وهو يلوح فى الاتجاه الجنوبى، ولكنه بدا وكأنما هو قد غرق أو هبط قليلا حتى بدا وكأنما هو عضو لا شأن له فى أسرة كبيرة من التلال الضخمة، ومن ورائه بدت سلسلة جبال «التاكونيك» أعلى وأضخم مما بدت من قبل، وبدت البحيرة الجميلة بكل ما فيها من خلجان ومسارب.

ولم تكن وحدها وإنما كانت هناك بحيرتان أو ثلاث أخريات تفتح عيونها الزرقاء نحو الشمس، وكانت بضع قرى صغيرة ، لكل منها برج كنيستها ، تبدو على بعد مبعثرة هنا وهناك، وبدت أيضا مجموعة كبيرة من المنازل الريفية وحولها فدادين من الغابات والمراعى والغيطان والأرض المحروثة، بحيث أحس الصغار أنهم يفسحون فى عقولهم بمشقة محلا كافيا لاستيعاب كلما رأت عيونهم

من مـختلف المناظر، وبدت هناك «تانجلوود» أيضا التى كانوا يظنون إلى اليوم أنـها مكـان خطـير هام فى هـذا العالم ولكنـها الآن شـغلت جزءا صـغيرا جدا، بحيث امتد بصرهـم بعيدا عنها وعلى كل نـاحية شمـالا وجنـوبا شـرقا وغربا ليبـحثوا عنـها بكل مـا لديـهم من قوة الإبصار وبعد فترة ليست بالوجيزة اكتشفوا أخيرا موقعها بالتقريب.

وتعلقت بـالجو سـحب بيضـاء منفوشة وألقت بظـلها بقعـا سوداء هـنـا وهنـاك على المـنظر ولكن الشـمس بـعد قليل كانت تطـارد الظل فيفر منها إلى بقعة أخرى وهكذا.

وعلى بعد إلى ناحية الغرب كانت سلسلة من الجبال الزرقاء التى ذكر يوستيس برايت للصـغار أن اسمـها «كاتسكلز» وفى هذه التلال الـغارقة فى الغمام كانت هناك منطقـة فيمـا ذكر يوسـتيس يلعب فيها بعض أهل الدنمارك لعبة أزليـة بالدبابيس، وهناك أيضا كما قال كان هـذا الذى يدعى «رب فـان وينكل» وهـو إنسـان كسـول بـلغ من كسله أنه نـام عشـرين عـامـا دفعـة واحـدة، وتـوسـل الـصـغـار ليـوسـتيس أن يقص عليـهم تفصيلات كل هـذه الأخبـار الـغريبـة والأمـور العـجيبـة، ولكن الطـالب أجابهم بـأن القصـة سبق أنهـا رويت لـهم، بل إنـها رويت فى أسلوب لا يمكن أن يعاد ويـحتفظ برونقه وبـجماله الذى كان له أول مـرة، وليس من حق أحـد أن يغير مـن ألفاظ هذه القصـة إلى أن تصـبـح عتيـقـة قـديمـة قدم قـصـة رأس الـوحـش أو التـفـاحـات الثـلاث الذهبية وأمثالها من الأسـاطير العجيبة.

وقالت زهرة الفجر: « إنك تستطيع على الأقل أن تقص علينا قصة أخرى من قصصك بينما نستريح هنا ونستمتع بمنظر الطبيعة من حولنا».

وصاحت زهرة الربيع: « حقا يا ابن العم يوستيس إنى لأنصحك أن تقص علينا قصة هنا، خذ موضوعا جليلا عن هذا أو ذاك وستجد أن خيالك سيسعفك دون ريب، فقد يستطيع هواء الجبل أن يجعل أسلوبك شعريا ولو مرة فى حياتك، أما.ونحن الآن فى السحاب فعلا فإننا مستعدون أن نصدقك فى كل ما تقول مهما تكن القصة غريبة أو مدهشة».

وسأل يوستيس:

«هل يمكن لكم أن تصدقوا أنه كان هناك يوما حصان مجنح؟»

وقالت زهرة الربيع بأسلوبها اللاذع دائما:

«طبعا نصدق، ولكنى أخشى أنك لن تستطيع اللحاق به. فقاطعها الطالب قائلا: « أما من هذه الناحية فإنى قد أستطيع أن ألحق بالحصان «بيجاسس» وأمسكه وامتطى صهوته أيضا كما يستطيع كذلك طائفة من الشباب أعرفهم، وعلى كل حال هاكم قصة عنه، ولو اخترت من الأرض مكانا لقص هذه القصة ما وجدت مكانا أنسب لها من قمة الجبل هذه».

وبناء على ذلك جلس يوستيس على كومة الصخور، بينما تجمع الصغار حوله عند قاعدة الكومة التى اعتلاها، وسدد يوستيس بصره نحو سحابة بيضاء، كانت تسبح أمامه فى الفضاء وبدأ قصته على النحو التالى.

شيميرا الوحش

فى ذات يوم من زمان بعيد، بعيد جدا، فكل هذه الأحداث العجيبة التى أقصها عليكم حدثت فى زمان أبعد من أن يتذكره أحد، فى ذات يوم تدفقت عين ماء فى سفح تل فى أرض اليونان العجيبة، ولسبب لا أعرفه ظل ماء هذه العين يتدفق فى نفس هذا المكان إلى اليوم، وعلى كل حال كانت هذه العين العذبة تدفع بمائها يلمع فى نور الشمس الغاربة ليفيض على جنبات التل عندما جاء شاب جميل يدعى «بللروفون» فاقترب من حافتها وكان يمسك فى يده بلجام قد رصع بالجواهر وزينت جوانبه بالذهب ، ورأى كهلا مسنا ورجلا فى منتصف العمر وصبيا صغيرا وكانوا يقفون إلى جانب النافورة ثم رأى صبية كانت تملأ جرتها من ماء العين، ولما رأى كل هؤلاء توقف وطلب إليهم أن يطفئ عطشه بشربة ماء من العين.

ولما غسل جرة الصبية وملأها ثانية بالماء بعد أن شرب منها قال

لها: « إنه لماء عذب حقا فهل تتكرمين بأن تخبريني إذا كان لهذه العين اسم معين».

فقالت الصبية: «نعم إنها عين بيرين» ، ثم أضافت : «إن جدتي قالت لي يوما إن هذه العين كانت يوما ما امرأة جميلة. ولما قتل ولدها بسهام الصائدة «ديانا» ذابت نفسها حسرات وتحولت هي كلها إلى دموع، وعلى ذلك فإن هذا الماء الذي وجدته عذبا باردا إن هو إلا نفثات قلب هذه الأم الثكلى».

فقال الشاب الغريب: « ما كان يمكن أن يخطر لي ببال أن مثل هذه العين بمائها المتدفق في مرح وكأنما هو يرقص فرحا بين الظل والشمس ويغني بصوته الطروب يمكن أن يحوي مقدار دمعة واحدة في ذراته، هذه هي إذن «بيرين» إني أشكرك أيتها الصبية الجميلة على ما أعلمتني به من اسمها، فلقد جئت من بلاد بعيدة باحثا عن هذه العين نفسها».

وجاء رجل في منتصف العمر يقود بقرته لتشرب من هذه العين فحملق طويلا في الشاب وفي اللجام الذي يحمله بين يديه.

وقال الرجل «لا بد أن الماء قد غار كثيرا في بلادك يا صاحبي حتى تقطع كل هذه المسافات البعيدة لتصل إلى نبع «بيرين» ولكن قل لي بربك هل فقدت جوادك؟ إني لأراك تحمل لجاما في يدك، وإنه للجام جميل ما في ذلك ريب، فقد رصع بصفين من الأحجار الكريمة المتلألئة، فإذا كان جوادك في جمال لجامه فإني لأرثي لحالك على فقد مثل هذا الجواد».

فابتسم بللروفون وأجابه: «كلا إني لم أفقد جوادا، ولكني بسبيل

البحث عن جواد أصيل شهير، جواد كما أخبرنى الحكماء لا بد أن يوجد فى مكان قريب من هنا، إذا كان يوجد أصلا، فهل لك أن تخبرنى إذا كان الجواد المجنح «بيجاسس» لا يزال يحوم حول عين «بيرين» كما كان يفعل أيام أجدادنا».

عندئذ ضحك الفلاح..

وقد يكون منكم يا أصدقائى الصغار من سمع بهذا الجواد «بيجاسس» إنه كان أبيض فى بياض الثلج، وكان له جناحان فضيان جميلان، فكان لذلك يقضى معظم أوقاته فوق قمة جبل «هيلكون» لقد كان وحشيا سريعا فى طيرانه خفيفا فى صعوده طبقات الجو، وكان فى ذلك يفوق الصقور الممتازة التى تمرق فى السحب مصعدة نحو السماء، ولم يكن فى العالم كله شىء يشبه هذا الجواد، ولم تكن له أليفة من فصيلته، إنه جواد لم يمتطه أحد ولم يلجمه إنسان، ولقد عاش فى عزلته سنين طويلة وعاش حياة سعيدة.

ألا ما أبهج أن يكون المخلوق جوادا مجنحا، ينام فى الليل على قمم الجبال العالية كما كان يفعل ويقضى معظم النهار سابحا فى الهواء، فلقد كان «بيجاسس» لا يكاد يحسب فى عداد المخلوقات الأرضية، إنه عندما كان يرى سابحا فى الهواء عاليا فوق رءوس الناس، والشمس تنعكس على جناحيه الفضيين، كان يبدو وكأنه من مخلوقات السماء، وإنه إنما يهبط قليلا من ارتفاعه لأنه ضل طريقه إلى عين وسط الغمام والسحاب والضباب وأنه عائد إلى سمائه مرة أخرى، لكم كان منظرا بهجا أن تراه وهو يغطس فى صدر سحابة بيضاء ناعمة لامعة ليضيع فى ثناياها برهة أو برهتين ثم يمرق من

الجانب الآخر ليتجلى بكل جماله، وأحيانا إبان عاصفة ممطرة كثيفة عندما تكون السماء كلها مكسوة بغطاء كثيف من السحب الكثيفة، وإذا بنور السموات العلى يرى خلفه من الفجوة التى خطها فى السحب، وأحيانا كان «پيجاسس» لا يبدو أبدا لا هو ولا هذا الضوء النورانى الذى كان يتبعه ، ولكن كل من كان يرى هذا المنظر البهيج كان يسر له اليوم بأكمله، بل كان يسر طوال مدة العاصفة حتى لو استمرت أكثر من يوم كامل.

وفى الصيف عندما يكون الجو صافيا جميلا كثيرا ما كان «پيجاسس» ينزل على الأرض الصلدة ويطوى جناحيه الفضيين ليقفز ويمرح بين السهول والتلال فى سرعة الريح ليتسلى ويقضى أوقاتا سعيدة، ولقد رآه الناس إلى جوار نبع «پيرين» أكثر مما رأوه فى أى مكان آخر، يشرب من مائه العذب ويتمرغ على العشب الناعم الذى يكسو حافة النبع، وأحيانا أخرى كان يأكل بعض زهرات البرسيم التى تبدو عذبة حلوة، ولكنه كان نزر الطعام وإذا طعم لا يطعم إلا أفضل أنواعه.

لذلك اعتاد الأجداد وأجداد الأجداد أن يذهبوا فى شبابهم إلى عين «پيرين» مادام شبابهم يسعفهم بالإيمان بوجود الجياد المجنحة علهم يحظون بنظرة أو لمحة من الجواد «پيجاسس» ولكن الجواد لم ير إلا نادرا جدا فى هذه الأزمنة الأخيرة، نعم لقد كان كثير من الشبان الفلاحين الذين يعيشون على بعد مسيرة نصف ساعة من النبع لم يلمحوا «پيجاسس» ولا مرة فى حياتهم حتى أنهم آمنوا أنه ليس هناك مخلوق بمثل هذه الصفات التى تروى عنه، وكان الفلاح

الذى يخاطب «بللروفون» واحدا من هؤلاء الذين لم يؤمنوا بوجود شىء اسمه «پيجاسس».

وهذا هو السبب الذى أضحكه، وصاح الفلاح وقد رفع من أنفه الأفطس بقدر ما يمكن لأنف أفطس أن يرتفع: «پيجاسس»!حقا «پيجاسس»! وجواد مجنح! وربك! بالله، يا صديق، هل أنت فى كامل قواك العقلية؟ وما فائدة جناحين بالنسبة لجواد، أكان جوادك هذا يستطيع أن يجر المحراث؟ لا شك أن مثل هذا الجواد كان يوفر لصاحبه كثيرا من الحداوى، ولكن كيف يكون شعور الإنسان إذا ما رأى جواده يطير منه من نافذة الحظيرة. أو عندما يطير به الجواد إلى السحب ولم يكن قد امتطاه إلا ليوصله إلى حيث الطاحونة، لا ... لا ، أنا لا أؤمن بوجود «پيجاسس» ليس هناك شىء مضحك مثل هذا الحصان الطائر الذى تتحدث عنه».

وقال بللروفون فى هدوء: «ولكن لدى من الأسباب ما يجعلنى أؤمن بغير هذا».

ثم التفت إلى رجل كهل أشيب كان يستند إلى عصاه وهو يتتبع حديثهما فى انتباه وكان الكهل قد مد رأسه نحوهما ورفع يدا حول أذنه لتعاونه على السمع، فقد كان سمعه قد أخذ يثقل فى هذه السنوات العشرين الأخيرة.

وسأله «بللروفون» : « وما قولك أنت يا سيدى الوقور؟ إنك فيما يخيل إلى قد رأيت فى شبابك الجواد المجنح مرارا وتكرارا».

وقال الكهل: «يا أيها الشباب ، إن ذاكرتى لضعيفة جدا، ولكنى أذكر جيدا أنه عندما كنت شابا كنت أؤمن بوجود مثل هذا الجواد،

وهكذا كان يؤمن كل من كان حولى، ولكنى فى أيامنا تلك، قلما أتبين شيئا ولا أعرف ماذا أؤمن به فى هذا الأمر، وماذا لا أؤمن به، بل إننى قلما أفكر أصلا فإنما أكون رأيته من زمان بعيد، بعيد جدا... ولكى أصدقك القول فإنى أشك فى أنى رأيته يومًا ما ، ولكنى لما كنت شابا أذكر أنه من المؤكد أنى رأيت بعض آثار حوافر حصان حول حافة النبع، ولكنها قد تكون آثار حوافر «پيجاسس» وقد تكون آثار حوافر أى حصان آخر... لا أدرى»

وسأل بللروفون الصبية التى كانت واقفة تنصت إلى هذا الحديث وهى حاملة جرتها فوق رأسها: «وهل رأيته أنت أيتها الصبية الجميلة، لا شك أنك بعينيك البراقتين هاتين تستطيعين إذا كان هناك من يستطيع ، أن تريه».

فأجابت الصبية فى ابتسامة وقد علت وجهها حمرة الخجل: «لقد خيل إلى أننى رأيته مرة، إنه كان «پيجاسس» أو طائرا ضخما أبيض، لا أردى أيهما، وقد لاح لى عاليا جدا فى الفضاء هناك، وفى مرة أخرى كنت أسير نحو النبع ومعى جرتى فسمعت صهيلا ، وكان صهيلا حلو النغم مفعما بالحيوية لم أسمع مثله قط، لقد قفز قلبى فرحا للصوت ولكنى لأمر ما أحسست بالخوف ففررت إلى البيت حتى دون أن أملأ جرتى».

وقال بللروفون: «يا خسارة!» ثم التفت نحو الصبى ، الذى ذكرته أول الحديث وقد كان يحملق فيه كما يحملق الأطفال عادة فى الغرباء، وقد فغر فاه الوردى فى دهشة.

وقال له بللروفون عابثا وهو يشده من جديلة من جدائل شعره

الموج: « أنت ، يا صديقى الصغير، أظن أنك قد رأيت الجواد المجنح مرارا».

وبادر الصبى بالرد قائلا: « طبعا رأيته ، لقد رأيته أمس ورأيته مرات قبل أمس».

فقال له بللروفون وهو يدنيه إليه: « إنك لرجل عظيم هلم قص على قصتك كاملة».

فأجابه الصبى: « إنى آتى هنا كثيرا لأعوم مراكبى فى ماء النبع، ولأجمع الحصى الجميل من قاعه، وعندما أمعن النظر فى صفحة الماء فإنى ألمح صورة جواد مجنح ضمن صورة السماء المنعكسة على صفحة الماء، كم وددت أن ينزل إلى وأن يحملنى على ظهره لأصعد راكبا إلى القمر، ولكنى إذا ما تحركت، أدنى حركة، لأراه مباشرة سرعان ما يطير مختفيا عن النظر»

وآمن بللروفون بالصبى الذى رأى صورة «پيجاسس» معكوسة على صفحة الماء، كما آمن بالصبية التى سمعت صوت صهيله الشجى ولم يؤمن بالرجل المتوسط السن الذى لم يكمن يعرف إلا الخيل التى تجر العربات، كما لم يؤمن بالكهل الذى نسى الجمال الذى رآه فى شبابه.

ولهذا فلقد ظل يصطاد أياما طويلة وعديدة حول النبع وهو دائما على حذر وفى غاية التنبه ينظر متطلعا نحو السماء أو يحملق فى صفحة الماء مؤملا أبدا أن يرى إما الصورة المنعكسة للجواد المجنح أو الحقيقة الباهرة بعينها، وكان يحمل اللجام بأحجاره الكريمة البراقة وشكيمته الذهبية دائما أبدا فى يده.

وكان الفلاحون السذج الذين يعيشون فى المنطقة كثيرا ما يسخرون من بللروفون وهم يدفعون ماشيتهم لترتوى من ماء النبع، وكثيرا ما كانوا يلومونه أيضا لوما عنيفا على ما يضيع من وقته، كانوا يقولون له إن رجلا سليما قويا مثله كان يجب أن يشغل نفسه بعمل أجدى وأنفع من ضياع الوقت هكذا فى طلب المستحيل الذى لا جدوى منه، وكثيرا ما كانوا يعرضون عليه أن يبيعوه جوادا، إذا كان يريد جوادا، وعندما كان بللروفون يرفض العرض كانوا يحاولون أن يساوموه على هذا اللجام الجميل الذى يحمله..

وحتى صبية الفلاحين كانوا يرون أنه مغفل أو مجنون، وكانوا كثيرا ما يتخذونه مادة لسخريتهم وعبثهم، وبلغ من قلة أدبهم أنهم ما كانوا يهتمون أبدا أن يراهم بللروفون أو يسمعهم وهم يسخرون منه أو يستهزئون به، كان عفريت صغير منهم مثلا يمثل الجواد المجنح «پيجاسس» ويقفز قفزات شاذة لا تخطر لأحد على بال كأنما هو يطير بينما زميل له يدفعه ويجرى وراءه وهو يحمل حزمة من أعواد الحلفاء يريد أن يرمز بها إلى لجام بللروفون الموشى. ولكن الصبى الرقيق الذى رأى صورة «پيجاسس» على صفحة الماء كان يواسى الغريب الشاب ويدخل على قلبه من السكينة أضعاف ما كان يمكن لكل هؤلاء الأشقياء أن يدخلوا على قلبه من الضيق والعذاب، وكان الصبى اللطيف الحبيب يجلس إلى بللروفون فى ساعات لعبه دون أن يقول شيئا، وكان ينظر إلى السماء ثم إلى ماء النبع فى إيمان ساذج عميق بحيث إن بللروفون لم يكن يملك إلا أن يشجع ويثبت ويصمد.

والآن قد ترغبون يا صغارى فى أن تعرفوا لماذا أخذ بللروفون على عاتقه أن يظفر بالجواد المجنح، وليس لدينا من فرصة لنقص هذا كله أنسب من الفرصة التى بين أيدينا ، وبللروفون جالس ينتظر «پيجاسس» ليتراءى له.

وإذا كنت سأقص كل المغامرات التي مر بها بللروفون قبل أن يصل إلى النبع لقصصت قصة طويلة جدا، لذلك يكفى أن نقول إنه فى بلد ما من بلاد آسيا كان هناك وحش فظيع يسمى شيميرا، وقد ظهر هذا الوحش وأخذ يعيث فى الأرض فسادا، ولو حدثتكم عن مقدار هذا الفساد من الآن إلى مغرب الشمس ما وفيته عدا ولا وصفا، ولكن حسب أدق ما وصلنى عن هذا الوحش من أخبار فإنه كان تقريبا أو على الأرجح أو على وجه اليقين، أبشع مخلوق خرج من جوف الأرض إلى سطحها، كان مخلوقا يفوق المخلوقات جميعا فى مقدار ما يحمل من سم، ومقدار ما يستطيع أن يبذل من القوة والحركات العجيبة الشاذة فى القتال، أما الفرار منه فلقد كان أعسر العسر، وكان للوحش ذيل مثل ذيل أفظع الحيات، وجسم لا يمكن أن يشبه بشىء فى البشاعة، وكانت له ثلاثة رءوس منفصلة، الأول كرأس الأسد والثانى كرأس العنزة والثالث كرأس حية بشعة ضخمة، ومن كل فم من هذه الرءوس الثلاثة كان يخرج لهب لافح، ولما كان الوحش أرضيا فيما أذكر فإنى أرجح أنه لم تكن له أجنحة، ولكنه كان يعدو مثلما يعدو الأسد أو العنزة وكان يتلوى مثلما تتلوى الثعابين، وبهذا كان الملعون يستطيع أن يسرع سرعة هذه الحيوانات الثلاثة مجتمعة.

يا للفساد والفساد والفساد الذى كان ينشره هذا المخلوق اللعين!... فبنفسه اللافح كان يستطيع أن يشعل غابة بأكملها ، أو يحرق غيطا من القمح برمته، أو يدمر قرية بأسوارها وبيوتها كلها، وكان يستطيع أن يودى ببلد كامل بأسره ويأكل الناس والحيوانات حية كما هى ثم يشوى لحومها فى جوفه المتقد اتقاد الفرن ، اللهم ارحمنا فلا تجعلنا ، ولا تجعل صغارنا، يصادفون هذا الوحش أبدا.

ربينما كان هذا الوحش البغيض ـ إن جاز لنا أن نسميه وحشا ـ يقوم بكل هذا الفساد الرهيب، تصادف أن مر بللروفون بهذا المكان من الأرض فى زيارة لملك يدعى «أيوباتس» وكانت أرضه التى يحكمها تسمى «ليسيا» وكان بللروفون من أشجع شباب الأرض طرا، ولم يكن يرغب فى شىء قدر ما كان يرغب فى أن يقوم بعمل طيب شجاع باسل كريم يحبه الناس من أجله ويعجبون به بسببه، وفى هذه الأيام لم يكن هناك سبيل لأن يمتاز الشاب إلا فى الحروب، حروب ضد أعداء الأمة أو حروب ضد الحيوانات المتوحشة أو العمالقة الشريرة أو التنين المؤذى إذا لم يجد من هو أخطر من هؤلاء كلهم لينازله، ولما رأى الملك أيوباتس شجاعة زائره الشاب عرض عليه أن يذهب لمحاربة الوحش شيميرا الذى كان يخشاه الناس جميعا والذى يكاد يحول «ليسيا» كلها إلى صحراء جرداء إن لم يهب أحد لقتله، ولم يتردد بللروفون لحظة واحدة، وأكد الملك أنه إما أن يقتل الوحش أو يموت فى محاولة قتله.

ولكن لما كان الوحش سريعا سرعة نادرة فإن البطل قدر أنه لا

يمكن له أن ينتصر عليه إذا ظل ينازله وهو على قدميه، ولقد كان من الحكمة أن يدبر أمر جواد أسرع ما يمكن أن يجد على الأرض لأداء هذه المهمة، وهل كان هناك جواد في العالم بأسره أسرع من «پيجاسس» العجيب الذى كان له جناحان إلى جانب أرجله الأربع، والذى كان يسرع فى طبقات الجو أضعاف ما كان يستطيع أن يسرع علي سطح الأرض، حقا لقد أنكر الكثيرون وجود مثل هذا الجواد المجنح وقالوا إن الأحاديث حوله إن هى إلا خيالات شعراء أو خرافات مخرفين، ولكن العجيب حقا أن بللروفون آمن بوجود هذا الجواد وآمن بأنه موجود فعلاً إلى حد أنه طمع فى أن يسعده الحظ فيعثر عليه ويمتطى صهوته ويحارب الوحش وهو فى مركز أفضل على ظهر مثل هذا الجواد.

وبهذا الأمل سافر من «ليسيا» إلى «اليونان» ولهذا السبب أحضر معه هذا اللجام المزركش الذى كان يحمله فى يده، وكان اللجام ذا قوة سحرية بحيث إنه أن استطاع أن يضع الشكيمة الذهبية فى فم «پيجاسس» فإن الجواد المجنح يصبح طيعا خاضعا لسيده بللروفون، ويطير به حيثما أراد أن يوجهه بلجامه.

ومر الوقت على بللروفون طويلا مملا مشحونا بالقلق فى انتظار «پيجاسس» على أمل أن يأتى الجواد يوما ليشرب من عين «پيرين» ولكم خشى أن يظن الملك أيوباتس أنه قد فر من المعركة مع الوحش شيميرا، ولكم آلمه أيضا أن يذكر كم ذا من الفساد كان هذا الوحش يعيث فى الأرض بينما هو مضطر إلى أنت يمضى الوقت هنا فى لا عمل، منحنيا على ماء «پيرين» الصافى ينظر فيه وهو يتدفق من

خلال حبات الرمل اللامعة ، بدل أن يقضى هذا الوقت فى حرب الوحش، ولما كان «پيجاسس» يأتى نادرا جدا هذه الأيام فى هذا المكان حتى ليقدر البعض أنه إنما يأتى مرة واحدة فى مدى حياة الإنسان فإن بللروفون خشى أن يبلغ سن الشيخوخة ويفقد قوى الساعدين وشجاعة القلب قبل أن يلوح له الجواد المجنح أو يستطيع رؤيته ، ألا ما أبطأ ما يمضى الزمن بالشاب المغامر الشجاع وهو يتوق لأن يقوم بدوره فى الحياة وينال حظه من الشهرة والمجد، إنه لدرس صعب عسير أن يتعلم المرء كيف يصبر، إن الحياة قصيرة وما أكثر هذا الوقت الذى يقتطع منها، على قصرها ، وفى مجرد تعلم هذا الدرس وحده ـ درس الصبر.

وكان من حسن حظ بللروفون أن الصبى تعلق به إلى حد أنه لم يكن يمل صحبته، وفى كل صباح كان هذا الصبى يمنحه أملا جديدا بدل أمل الأمس الذى ذبل وذوى مع اليوم الذى غبر.

كان يصيح به وهو يتطلع إلى وجهه وقد أفعم صدره بالأمل: «يا عزيزى بللروفون أظن أننا سنرى پيجاسس اليوم».

وبعد زمن كان من الواضح أنه لولا هذا الصبى وإيمانه الذى لا يتزعزع لاستسلم بللروفون لليأس، ولقفل راجعا إلى «ليسيا» ولجهد ما استطاع أن ينازل الوحش شيميرا دون معونة الجواد المجنح أو مساعدته، وفى هذه الحالة كانت النتيجة الحتمية أن بللروفون المسكين تحرقه أنفاس المخلوق البشع المحرقة ثم يقتل أو يفترس، إن المرء مهما بلغ من الشجاعة لا يجب أن يقاتل وحشا من وحوش الأرض مثل شيميرا إلا إذا استطاع أن يمتطى صهوة جواد أثيرى مجنح.

وذات صباح تحدث الصبى مع بللروفون فى لهجة يملؤها الأمل أكثر من أى يوم مضى، ولقد صاح قائلا: «يا عزيزى العزيز بللروفون، لست أدرى السبب ولكننى واثق أننا اليوم سنلقى پيجاسس»

وظل طوال اليوم لا يخطو خطوة واحدة بعيدا عن بللروفون وهكذا طعما كسرة من الخبز معا وشربا من ماء النبع، وفى العصر كانا لا يزالان جالسين وقد طوق بللروفون بذراعه الصبى الذى وضع يده فى يد بللروفون، وغرق بللروفون فى أفكاره وهمومه يحملق شاردا فى جذوع الشجر الذى كان يظلل العين من أشعة الشمس وينظر حالما إلى كروم العنب التى كانت تتسلق جذوع الشجر العتيق وتصعد إلى فروعه العليا، ولكن الصبى الوديع كان محملقا فى صفحة الماء حول العين، لقد كان محزونا من أجل بللروفون، وكان يشفق عليه من ضياع أمل آخر مع مغرب الشمس كما ضاعت آمال كثيرة مع مغارب كثيرة من قبل - وتساقطت دمعتان أو ثلاث من عينيه وامتزجت دموعه بما كان يسمى دموع «پيرين» الغزيرة الثرة عندما بكت أبناءها القتلى.

ولما كان بللروفون أبعد من أن يفكر فى أى أمل إذا بيد الصبى الصغيرة تضغط علي يده، وإذا صوت هامس ناعم يكاد ينقطع نفسه يقول له: «انظر هناك يا بللروفون العزيز، انظر إنها صورة معكوسة على صفحة الماء».

ونظر الشاب إلى مرآة النبع الرقراقة فرأى صورة ظنها الطائر يطير على علو شاهق فى الفضاء وعلى جناحه كان بريق شعاع

الشمس يصبغهما ببياض فضى أو ثلجى.

وقال:« ما أعظم الطائر وما أجمله! لكم يبدو كبير الحجم وإن كان فى الواقع يبدو أنه يطير عاليا إلى ما فوق السحب».

وهمس الصبى:« إنى لأرتعد، إنى أخاف أن أرفع رأسى لأتطلع نحو السماء، إنه لجميل حقا ولكنى لا أجرؤ إلا على أن أنظر إلى صورته المنعكسة على صفحة الماء، عزيزى بللروفون ألست تدرك أنه ليس بطائر، إنه الجواد المجنح پيجاسس».

وخفق قلب بللروفون، ونظر فى ترقب ولهفة إلى عل، ولكنه لم يميز المخلوق المجنح ولم يميز أهو جواد أم هو طائر، ذلك أنه فى هذه اللحظة نفسها غرق فى أحضان سحابة صيف منفوشة فاختفى فى أعماقها، ولم تمض لحظة على كل حال إلا ظهر المخلوق العجيب منزلقا إلى أسفل السحابة وإن كان لا يزال بعيدا جدا عن الأرض، وحمل بللروفون الصبى بين ذراعيه ورجع معه إلى الوراء ليختفيا فى الأشجار الكثيفة التى كانت حول العين، ولم يفعل ذلك لأنه كان يخاف سوءا يصيبه أو خطرا يتعرض له ولكنه كان يخشى أن لمحه الجواد «پيجاسس» أن يطير بعيدا ولا ينزل إلا على قمة جبل عالية لا يمكن الوصول إليها، فلقد كان حقا هو بعينه الجواد المجنح، وها هو ذا بعد انتظار طويل جدا يأتى ليطفئ ظمأه من ماء «پيرين»

واقتربت الأعجوبة السماوية وهى تطير فى دوائر كبيرة مثلما تفعل الحمامة عندما تكون على وشك أن تنزل إلى الأرض، وأخذ «پيجاسس» يقترب من الأرض بهذه الدوائر الواسعة الانسيابية والدوائر تضيق ثم تضيق كلما اقترب من الأرض، وكلما اقترب

منظره من العين ازداد عظمة وجمالا وروعة وازداد جناحاه الفضيان انسيابا فى انزلاقهما نحو الأرض، وأخيرا نزل إلى الأرض فى خفة ورقة حتى أن الحشائش لم تكد تنثنى لوقع قدميه، والرمال حول حافة العين لم تنطبع عليها آثار حوافره، ومال برأسه الشارد الوحشى على الماء وأخذ يشرب، وكان يلتذ بالماء وهو يتنهد تنهدا مريحا وينتظر قليلا ليستريح وليتمتع بمذاقه، وأخذ يعب عبا مرة وراء مرة وراء أخرى ثم أخرى، ذلك أن «پيجاسس» لم يكن يحب ماء على الأرض ولا فى السحب أو فى السماء أكثر مما يحب ماء عين «پيرين» ولما أطفأ نار عطشه قضم الزهرات المعسولة من زهرات البرسيم وكأنما هو يتذوقها فى خفة غير حريص على أن يشبع أو يطعم وجبة كاملة، ذلك أن الحشائش التى كانت تنمو على سفح جبل هيلكون تحت السحاب مباشرة كانت تناسب ذوق «پيجاسس» وكان يجد لها طعما ألذ من هذه الحشائش العادية التى نمت حول العين.

ولما شرب كفايته، ولما أخذ على طريقته الظريفة الرقيقة هذا القليل من الطعام الذى يكفيه، بدأ الجواد المجنح يقفز ويرقص غاديا رائحا وكأنما هو يقطع الوقت باللهو واللعب، وليس على وجه الأرض ، ولا فى السماء ، مخلوق يميل إلى اللعب مثلما يميل «پيجاسس» هذا، وها هو ذا يمرح ويعبث على نحو يبعث فى البهجة والمرح كلما ذكرته وهو يصفق بأجنحته الفخمة العظيمة كأرق ما يمكن أن يفعل عصفور رقيق صغير، ويجرى فى سباق مع نفسه مسافات صغيرة على الأرض أو فى الهواء بخطوات لا أدرى أأسميها قفزات أم طيرانا ، وعندما يكون المخلوق قادرا كل القدرة على الطيران فإنه

كثيرا ما يختار أن يعدو على الأرض على سبيل اللهو والتسلية بعمل غير مألوف له، وهكذا كان يفعل «پيجاسس» وإن كان قد وجد صعوبة فى أن تظل حوافره دون أن ترتفع لاصقة بالأرض، وفى هذه الأثناء كان بللروفون وهو ممسك بيد الصبى، يختلس نظرة من بين فروع الشجر الكثيفة وهو يقول لنفسه إن منظرا بهذا الجمال كله لم يوجد من قبل، ولم تخلق بعد عيون فيها من الروح الوثابة والحيوية مثلها أفعمت به عينا «پيجاسس» ولهذا خطر بباله فى الحال أنه من الحرام أن يلجم مثل هذا الجواد أو أن يركب ظهره.

ووقف «پيجاسس» مرة أو مرتين لينشق الهواء وهو يرهف أذنيه وينصبهما ويطوح رأسه إلى الوراء ثم يديره هنا وهناك وفى كل مكان وكأنما كان يتوجس خيفة أن شرا لا يدرى ماذا هو، يتربص به، ولكنه لما لم يبصر شيئا، ولم يسمع شيئا ، فقد عاد مرة أخرى إلى ألاعيبه وحركاته.

وبعد حين ضم «پيجاسس» جناحيه ونام على الحشائش الخضراء لا لأنه أحس شيئا من التعب ولكن لأنه لم يكن لديه ما يعمله، كان ينعم بنعيم الفراغ والراحة من كل عمل، ولكن لما كان مفعما بحياة الأثير والهواء فإنه لم يستطع أن يظل ساكنا هكذا لفترة طويلة، وعلى ذلك فإنه سرعان ما أخذ يتدحرج منقلبا على ظهره وأرجله الأربع مشرعة إلى أعلى فى الهواء، وكان منظره وهو على هذه الحال بهجة للناظرين ، هذا المخلوق الفريد الوحيد الذى لم تخلق له أليفة بعد، بل الذى لم يكن يحتاج فى حياته إلى رفيق، لقد عاش قرونا عديدة طويلة وكانت سعادته بها تفوق هذه القرون طولا

وعدا، والعجيب أن روعته وسماويته كانتا تزدادان بمقدار ما كان يمعن فى هذه الحركات التى تقوم بها عادة الجياد الأرضية العادية الفانية، وأمسك كل من بللروفون والصبى أنفاسه من الانبهار والبهجة، ولكنهما فى الوقت نفسه كانا أشد حرصا على ألا يتحركا أو يهمسا بصوت مهما يكن خافتا ، مخافة أن يمرق الجواد كالسهم صاعدا إلى كبد زرقة السماء.

وأخيرا وقد شبع «پيجاسس» من التدحرج، استدار بحيث جعل بطنه إلى الأرض، وكما يفعل أى حصان عادى شرع قدميه الأماميتين فى تراخ ليتمكن من القيام من على الأرض، وفى هذه اللحظة ذاتها انطلق بللروفون، وكان قد قدر أن الجواد سيفعل ذلك، واندفع من بين الأشجار الكثيفة وقفز فارجا رجليه على ظهره.

لقد امتطى بللروفون صهوة الجواد المجنح!..

ولكن أية قفزة قفزها الجواد وقد شعر لأول مرة فى حياته ثقل آدمى فوق فخذيه، وإنها لقفزة حقا، وقبل أن يتمكن بللروفون من التقاط أنفاسه وجد نفسه مرتفعا خمسمائة قدم إلى أعلى وما زال يندفع عاليا، بينما كان الجواد المجنح يزمجر ويرتعش من الغضب والرعب، وارتفع ثم ارتفع إلى أن وجد نفسه غارقا فى أحضان سحابة ندية ـ سحابة كان بللروفون منذ حين يتطلع إليها متخيلا أنها لا شك بقعة هادئة جميلة، ومن قلب السحابة اندفع «پيجاسس» نازلا كالصاعقة ، وكأنما كان يريد أن يحطم نفسه وراكبه علي صخرة من صخور الأرض، ثم أخذ يظفر ويقفز آلاف القفزات الوحشية التى لم يقفزها بعد طائر أو حصان منذ خلقت الخليقة.

ولا أستطيع أن أصور لكم بكلامى هذا نصف الحركات التى قام بها، لقد انزلق فى كل اتجاه إلى أمام وإلى وراء وإلى الجانبين ، لقد انتصب واقفا ساندا قدميه الأماميتين على سحابة رقيقة وقدميه الخلفيتين على لا شىء على الإطلاق، لقد رفع قدميه الخلفيتين ووضع رأسه بين القدمين وقد انتصب جناحاه إلى أعلى، لقد ارتفع نحو ميلين فوق سطح الأرض ثم انقلب بحيث أصبح رأس بللروفون حيث كان يجب أن تكون قدماه، وإذا ينظر إلى السماء من فوق إلى تحت لا من تحت إلى فوق، لقد لوى رأسه ونظر إلى بللروفون وجها لوجه والشرر يندلع من عينيه وحاول فى وحشية أن يعضه وصفق بجناحيه فى عنف رهيب حتى أن ريشة من ريشه سقطت على الأرض فالتقطها الصبى واحتفظ بها طوال حياته ذكرى من بللروفون و«پيجاسس».

ولكن بللروفون ، كما هو واضح لكم، من أمهر من امتطى الجياد على وجه الأرض، كان ينتظر هذه اللحظة نفسها فما كاد الجواد يفتح فاه ليعضه حتى قذف بالجزء الذهبى من لجامه السحرى بين فكى الجواد المجنح، وما كاد بللروفون يفعل ذلك حتى أصبح «پيجاسس» أليفا طيعا حتى لكأنه لم يطعم طوال حياته إلا من يد بللروفون.

ولكن أقول لكم الحق لقد أحزننى نوعا ما منظر الجواد، وإنه ليثير نوعا من الأسى أن ترى هذا المتوحش الفائر الرائع يستحيل فى غمضة عين، وفجأة، إلى خضوع ذليل مستأنس، وكان «پيجاسس» فيما يبدو يحس نفس الإحساس.

فلقد التفت إلى بللروفون وفى عينيه الجميلتين يترقرق الدمع بدل الشرر الذى كان يتطاير منهما منذ حين، ولكن عندما ملس بللروفون على رأسه وحدثه ببضع كلمات آمرة، ولكنها طيبة مهدئة، تبدلت نظرة الجواد الحزين، لقد كان رغم كل شيء سعيدا فى قرارة نفسه أن يجد بعد الوحدة التى عاناها قرونا رفيقا له وصاحبا.

وهكذا هى الحال فى شأن الجياد المجنحة وما يماثلها من مخلوقات وحشية وحيدة، أنك إذا استطعت أن تظفر بها وتهزمها فإنك تكون قد وصلت إلى أقرب الطرق الموصلة إلى حبها لك.

لقد طار «پيجاسس» مسافة طويلة فى محاولته الباسلة أن يتخلص من بللروفون ويلقيه من على ظهره، وعندما استطاع أن يضع الشكيمة بين فكيه كانا قد وصلا إلى حيث يريان جبلا شامخا أمامهما، وكان بللروفون قد رأى هذا الجبل من قبل وعرف أنه جبل هيلكون الذى يسكن قمته الجواد المجنح، وإلى هذا المكان (بعدما نظر الجواد إلى وجه راكبه فى رقة وكأنما هو يستأذنه).. طار «پيجاسس» ونزل أمام مسكنه وانتظر فى صبر أن ينزل بللروفون عن ظهره، وقفز الشاب من علي ظهر الجواد ولكنه ظل ممسكا باللجام فى حزم وقوة بين يديه، ولكنه عندما التقت عيناه بعينى الجواد أسرته رقة منظر الجواد وسحره وجماله، وأثارته فكرة أنه قد عاش حرا منذ ولد إلى اليوم فلم يقو على أن يقيد حريته بالقوة ما دام الجواد راغبا حقا فى أن يستعيد حريته..

واستجابة لهذه النزعة الكريمة فى نفسه نزع اللجام من على الجواد وفك الشكيمة من فمه وقال له: «اتركنى يا پيجاسس، واختر

بين أمرين، أما أن تحبنى وأما أن تفارقنى».

وفى لمح البصر انطلق الجواد المجنح حتى اختفى عن الأنظار مصعدا إلى السماء من علياء جبل هيلكون، ولما كانت الشمس قد غربت منذ زمن طويل فلقد خيم الظلام على البلد كله، بالرغم أن الشفق كان يبدو من فوق الجبل حيث كان الغسق لا يزال متلكأ عند قمته، ولكن «پيجاسس» أمعن فى الارتفاع بحيث أنه جاوز حدود اليوم الغارب على الأرض وغرق فى شعاع الشمس الساطعة هناك في طبقات الجو العليا وارتفع وارتفع حتى أصبح وكأنما هو مجرد نقطة لامعة، ولكنه أخيرا لم يعد يرى على الإطلاق وقد غرق فى جوف السماء والعباب العلوى، وخاف بللروفون ألا يرى الجواد مرة أخرى أبدا، ولكن بينما كان يندب حظه ويلوم نفسه على غفلته، لاحت النقطة اللامعة وأخذت تقترب وتقترب حتى نزلت إلى ما تحت الشمس الساطعة، وإذا «پيجاسس» وقد عاد ! وبعد هذه التجربة لم يعد هناك مجال لأدنى خوف من فرار الجواد المجنح، لقد أصبح هو وبللروفون صديقين، ووثق كل منهما فى الآخر ثقة تقوم على الحب المتبادل بينهما..

وفى هذه الليلة ناما معا وقد طوق بللروفون عنق «پيجاسس» بذراعه، مدفوعا بحبه له لا حرصا عليه أو خوفا من فراره، وما كاد الفجر يلوح حتى استيقظا وحيا كل منهما بلغته صاحبه تحية الصباح..

وعلى هذا النحو قضى بللروفون والجواد المدهش أياما، وازداد كل منهما خلال هذه الأيام حبا لصاحبه وفهما له، لقد قاما معا

برحلات أثيرية طويلة وصعدا أحيانا إلى علو شاهق حتى أن الأرض كانت تبدو لهما وكأنها ليست أكبر من ... من ماذا ... من القمر مثلا.

زارا بلادا بعيدة وأدهشا سكانها الذين ظنوا أن الشاب الجميل الذى يمتطى الجواد المجنح إن هو إلا مخلوق سماوى نزل من السماء على ظهر الجواد، إن ألف ميل فى اليوم كان معدلا يسيرا سهلا فى حسابات سرعة طيران «بيجاسس» لكم فتنت هذه الحياة بللروفون وما كان أحب إلى قلبه أن يظل يعيش هكذا طوال حياته، وحيدا فى صفاء الجو الرائق، فلقد كانت الشمس مشرقة أبدا فى هذا العلاء مهما اكفهر الجو وأمطرت السماء فى الطبقات الدنيا على الأرض، ولكنه لم يستطع أن ينسى الوحش المروع شيميرا ولا وعده للملك أيوباتس أن يقتله، وبما أنه كان قد تعود مهارات قيادة الجياد فى الهواء، وبما أنه قد أصبح يتحكم فى حركات «بيجاسس» بأقل إشارة من يده، وقد علمه كيف يطيع أى أمر يصدر له بصوته، فلقد قرر بللروفون أن يحاول القيام بهذه المغامرة المهلكة.

وبناء على ذلك، ما كاد نور الصباح يبزغ ويفتح بللروفون عينيه حتى قرص أذن الجواد ليوقظه، وهب «بيجاسس» فى الحال من الأرض وعدا نحو ربع ميل دفعة واحدة، ودار دورة عظيمة حول قمة الجبل فى سبيل أن يبرهن أنه قد نشط كل النشاط وأنه مستعد لأية رحلة يريد له سيده أن يقوم بها، وطوال هذه الرحلة الطائرة القصيرة كان يصهل صهيلا عاليا مقطعا جميل النغم، ثم سقط فى رفق إلى جوار بللروفون كما يسقط العصفور الصغير إلى جوار غصن الشجرة..

وقال بللروفون وهو يملس على عنق الجواد فى حب ورقة: «أحسنت يا پيجاسس العزيز، أحسنت يا من تنزلق بى على السموات العلى، والآن يا صديقى الجميل البارع السريع لا بد لنا من أن نقطع حياتنا هذه ، لنفطر على حياة أخرى، فاليوم علينا أن نحارب الوحش المريع شيميرا».

وبمجرد أن انتهيا من إفطارهما وشربا ماء رقرقا براقا من نبع يسمى نبع «هيبوكرين» جاء «پيجاسس» إلى سيده ومد له رأسه من تلقاء نفسه لكى يلجمه، ثم أخذ الجواد يقفز لاهيا ويقوم بحركات أثيرية قافزا فى الفضاء ليقول لسيده إنه متحرق لأن يذهب معه وقد عيل صبره من الانتظار، ذلك أن بللروفون كان يمتشق حسامه ويتدرع بدرعه ليعد نفسه للحرب..

ولما أتم كل شىء امتطى الفارس جواده وكما يفعل فى كل مرة يريد أن يذهب بعيدا علا به فى الجو خمسة أميال أفقيا ليرى بوضوح إلى أين يتجه فى سيره، وما وصل إلى هذا الارتفاع حتى أدار رأس «پيجاسس» نحو الشرق ليبدأ رحلته نحو أرض ليسيا، وفى طيرانهما صادفا نسرا، واقتربا منه قبل أن يستطيع أن يتجنبهما إلى حد أن بللروفون كان يستطيع ، لو أراد ، أن يمسكه من رجله بغاية اليسر، ولكنهما أسرعا على هذا النحو قدما بحيث إنه لم يكن الظهر قد حان بعد عندما لمحا الجبال الشامخة، جبال ليسيا ووديانها الغائرة العميقة الشعثاء الكثيفة الشجر، وإذا كان بللروفون قد أصدقوه الخبر فإن الوحش البشع شيميرا كان قد اتخذ مسكنه فى واد من هذه الأودية المهجورة الموحشة.

ولما أصبحا إلى هذا الحد قريبين من نهاية الرحلة أخذ الجواد المجنح ينزل متدرجا براكبه نحو الأرض، وقد أفادا من بعض السحب المتلكأة على قمم الجبال فى إخفاء نفسيهما، وفى أثناء ركوبهما قمة سحابة أطل بللروفون من فوق حافتها ليرى هذا الجزء الجبلى الوعر من أرض ليسيا، بحيث أصبحت عنده صورة واضحة كاملة عن هذه الوديان المظلمة كلها، لقد كانت هذه الوديان تؤلف ممرا صخريا وحشيا موحشا بين التلال العالية الحادة فى انحدارها.

وفى الأمكنة المنبسطة نوعا ما من البلدة تراكمت بقايا بيوت محروقة، وبقايا هياكل عظمية لقطعان من الغنم متناثرة حول المراعى التى كانت ترعاها قبل أن تصبح رمما بالية، وقال بللروفون لنفسه «لا شك أن الوحش قد عاث فى هذه الأرض فسادا، ترى أن يكون قد اختبأ الآن؟»

وكما أسلفت لكم القول: لم يكن هناك لأول وهلة ما يلفت النظر فى هذه الوديان والوهاد والمضايق التى تقع بين الجبال العالية الشديدة الانحدار، لا شىء على الإطلاق فعلا، إلا ثلاث حلقات من الدخان الأسود صاعدة فى كآبة من شىء يشبه فوهة كهف، وهى تتسلق بعضها فوق البعض فى الفضاء، وقبل أن تصل إلى قمة الجبل اتحدت هذه الحلقات الثلاث فى واحدة، وكان الهدف فى هذه اللحظة يقع تحت الجواد المجنح وفارسه مباشرة على مسافة ألف قدم تقريبا، وتصاعد الدخان فى ثقل إلى أعلى وقد حمل رائحة كبريتية كريهة خانقة بحيث اضطر «بيجاسس» أن يزمجر وبللروفون

أن يعطس، وكان هذا الدخان مؤذيا للجواد المدهش الذى لم يكن معتادا أن يتنفس إلا أرق النسيم وأطيب الهواء، فاضطر أن يضرب بجناحيه فإذا هو على بعد نصف ميل تقريبا من حدود هذا الدخان الكريه المؤذى.

ولكن لما نظر بللروفون إلى خلف رأى شيئا ما اضطره إلى أن يشد اللجام أولا ثم إلى أن يدير «بيجاسس» إلى خلف ليعود به حيث كانا، وأشار إلى الجواد إشارة فهمها عنه فإذا هو ينزل به فى بطء غارقا فى الجو حتى أصبحت حوافره على مسافة أقل من طول الإنسان بالنسبة لقاع الوادى الصخرى، وإلى أمامهما، وعلى بعد مرمى الحصاة تقريبا، كانت فوهة الكهف وثلاث حلقات أخرى من الدخان تنز منها.

ترى ماذا رأى بللروفون غير ذلك..

لقد بدا له أن كومة ضخمة من المخلوقات العجيبة البشعة تتراكم متشابكة بعضها بالبعض فى داخل الكهف، وكانت هذه الأجساد تتلاحم بحيث كان من العسير على بللروفون أن يميز بينها، ولكن حسبما لاح من رءوسها استطاع أن يميز من بينها حية رقطاء ضخمة وأسدا متوحشا شرسا وعنزة بشعة كريهة. وكان الأسد والعنزة نائمين وأما الحية فقد كانت فى غاية اليقظة وهى تحملق فيما حولها بعينين ضخمتين يتطاير منهما الشرر ولكن، وهذا هو الأعجب فعلا فى هذا الموضوع، هذه الحلقات الثلاث من الدخان كانت تخرج من الواقع من أنوف هذه الرءوس البشعة الثلاثة، وكان المنظر عجيبا بحيث إن بللروفون وإن يكن متوقعا له طول الوقت لم

يستطع لأول وهلة أن يتبين أن هذا هو الرأس المثلث للوحش المروع شيميرا نفسه، لقد اكتشف كهف الوحش، والحية والأسد والعنزة ليست كما نظن حيوانات مختلفة وإنما هى ثلاثتها رأس واحد لوحش واحد..

يا للحيوان الشرير الكريه! لقد نام ثلثاه ومع ذلك فلقد كان لا يزال يمسك بمخالبه الفظيعة بقايا شاة تعسة، ومن يدرى لعل فريسته لم تكن إلا طفلا حبيبا صغيرا وإن كنت أكره مجرد تصور ذلك، لقد كانت أفواهه الثلاثة تقرض هذه الفريسة البائسة قبل أن ينام اثنان من أفواهه البشعة.

وفجأة فزع بللروفون وكأنما قد صحا من حلم ثقيل مزعج وقد أدرك أن هذا المخلوق إن هو إلا شيميرا ، والظاهر أن «پيجاسس» أدرك نفس الحقيقة فى نفس الوقت فأطلق صهلة دوت وكأنما هى نفير الحرب، وعلى هذا الصوت ارتفعت الرءوس الثلاثة منتصبة وأطلت فى الحال ومضات قوية وطائفة من الشرر الملتهب حولها وقبل أن يجد بللروفون من الوقت ما يسمح له بأن يقرر ماذا هو فاعل قفز الوحش من جوف الكهف ورمى بنفسه هاجما رأسا على بللروفون وقد شرع مخالبه البشعة الضخمة لاويا ذيله الأفعوانى من خلفه ليات مسمومة، ولو لم يكن «پيجاسس» سريعا سرعة الطير لهزم هو وفارسه هزيمة منكرة على أثر اندفاعة الوحش الرأسية نحوهما، ولكانت الحرب التى ما كادت تبدأ انتهت إلى هذه النتيجة المؤسفة، ولكن الجواد المجنح ما كان يمكن أن يظفر به عدوه على هذا النحو، لأنه فى غمضة عين ارتفع عموديا ارتفاعة بعيدة حتى

وصل إلى نصف المسافة بين الأرض والسحب، وهو يزمجر من شدة الغضب، وكان يرتعد في الوقت نفسه لا من الخوف وإنما من الاشمئزاز من هذا الشيء الكريه السام ذي الرءوس الثلاثة.

ومن ناحية أخرى فإن الوحش رفع نفسه عموديا بحيث وقف مرتكزا على طرف ذيله وقوادمه مشرعة في الهواء في وحشية مفترسة، ورءوسه الثلاثة تغمغم بالنار وتقذف باللهب في وجه «بيجاسس» وفارسه، ياالله! كم زأر الوحش وهاج وصفر ثائرا، وفي هذه الأثناء كان بللروفون يثبت الدرع على ذراعه ويمتشق سيفه.

وهمس في أذن «بيجاسس» قائلا: « والآن يا حبيبي بيجاسس لا بد لك من أن تساعدني على قتل هذا الوحش العاتي الذي لا يمكن أن يحتمل... وإلا فإنك ستضطر إلى أن تطير وحدك إلى قمة جبلك المنفرد دون صاحبك بللروفون ، فإما أن الشيميرا يموت وإما أن تقضم الرءوس الثلاثة رأسي هذا الذي نام في هدوء وأمان على عنقك».

وحمحم «بيجاسس» وأدار وجهه نحو فارسه وحك أنفه في حنان وحب على خد صاحبه، لقد كانت هذه طريقته في أن يعبر لصاحبه عما يدور في خلده، أراد أن يقول إنه وإن يكن أثيريا خالدا لا يعرف الموت سبيله إليه ولكنه يفضل أن يموت (لو كان من الممكن للكائنات الخالدة أن تموت) على أن يذهب وحده ويترك بللروفون متخلفا من بعده.

وأجابه بللروفون وقد فهم عنه:

«إنى أشكرك يا پيجاسس، والآن هلم نهجم هجمة مباغتة قوية على الوحش اللعين».

وهز بللروفون اللجام وهو ينطق بهذه الكلمات فاندفع «پيجاسس» منحدرا فى ميل ليسدد هجمته نحو الرءوس الثلاثة فى سرعة السهم المنطلق، وفى هذه الأثناء كان الوحش يرفع نفسه مخترقا الجو إلى أعلى بمقدار ما يستطيع أن يرتفع ، ولما اقترب بللروفون بحيث أصبح على بعد ذراع واحدة من الوحش ضرب بسيفه ضربة قاطعة، ولكن الجواد حمله بسرعة بعيدا قبل أن يتحقق من الضربة هل كانت صائبة أم لا ، واستمر «پيجاسس» فى طيرانه ولكنه عاد فنزل محلقا فى دوائر تتضاءل حتى أصبح على نفس القرب الأول من الوحش، ومن هذا القرب القريب استطاع بللروفون أن يتحقق من أنه قطع رأس العنزة بحيث أنه يتدلى على جسدها معلقا بالجلد ، ليس إلا، إلى مكانه، لقد بدأ الرأس ميتا تقريبا.

ولكن ليعوض الوحش عن فقد رأس العنزة فإن رأس الحية ورأس الأسد اقتسما نصيب الرأس الميت من الشراسة وامتصاه لنفسيهما، فإذا الرأسان يقذفان اللهب ويعلو فحيحهما وتشتد زمجرتهما بغضب هو أضعاف أضعاف غضبهما الأول.

وصاح بللروفون : « لا تلق إلى هذا الأمر بالا يا پيجاسس فإنه بضربة أخرى ستخرس أما الفحيح وأما الزمجرة إلى الأبد».

وهز بللروفون اللجام ثانية ومرق الجواد المجنح مرة أخرى منحدرا فى ميل نحو الشيميرا مثل السهم المنطلق، وضرب بللروفون ضربة أخرى صائبة مسددة نحو رأس من الرأسين الباقيين، وهو

يطير على جواده بالقرب منهما، ولكن فى هذه المرة لم ينج من الشر، لا هو ولا جواده كالمرة السابقة، فلقد خدش الوحش بمخلب من مخالبه كتف بللروفون خدشا عميقا وأصاب الجناح الأيسر فى الجواد المجنح بالمخلب الآخر فأفسده نوعا ما ، ولكن بللروفون من جانبه كان قد ضرب رأس الأسد من رءوس الوحش ضربة قاضية بحيث إنه تدلى هو الآخر إلى أسفل وقد كادت النار فيه تخمد وهو يلفظ شهقات من الدخان الأسود الكثيف، أما رأس الحية ، وهو الرأس الوحيد الباقى، فقد تضاعفت فيه الشراسة والوحشية السامة عما كانت عليه فى أى وقت مضى، وقذف الوحش بشظايا من نار طولها خمسمائة ياردة وأطلق من الفحيح العالى والصفير المزعج الذى يضم الآذان ما جعل الملك أيوباتس يسمعه على بعد خمسين ميلا، فارتعد المسكين وارتجف من الخوف حتى اهتز العرش من تحته، وظن الملك المسكين أن الوحش آت ليفترسه دون ريب.

وفى الوقت نفسه كان «بيجاسس» قد توقف مرة أخرى فى الفضاء، وقد صهل غاضبا وشعت عيونه بشرر براق بلورى نقى، لكم ذا يختلف هذا الشرر عن نار الوحش المكفهرة الكالحة، وثارت نفس الجواد المجنح مثلما استثيرت نفس صاحبه.

وصاح بللروفون وهو لا يعبأ بجراحه بقدر ما يأسى لآلام هذا المخلوق الرائع ، الذى ما كان له أبدا أن يذوق طعم الألم لفرط سماويته وروعته: « أتنزف دما يا جوادى الخالد! إن الوحش المقيت الملعون شيميرا سيدفع ثمن فعلته الشنعاء برأسه الأخير هذا!».

ثم هز اللجام وصاح فى عنف وقاد «بيجاسس» لا مائلا كما فعل

فى المرتين السابقتين وإنما عموديا ومباشرة نحو جبهة الوحش البشعة، وكان الهجوم سريعا بحيث أصبح بللروفون فى غمضة عين ممسكا بعدوه، وعدوه ممسكا به، فى مصارعة متلاحمة قوية.

وما كاد الوحش يصل إلى هذه المرحلة من القتال بعد أن فقد رأسين من رءوسه الثلاثة حتى كان يغلى من الغل ويفور من الألم، وكان يقفز تارة فى الجو وطورا على الأرض بحيث أصبح من العسير أن نحدد على أى منهما كان يرتكز، أعلى الأرض أم على الفضاء، ثم فغر فكيه فغرة عريضة مروعة حتى لأكاد أقول إن «پيجاسس» كان يمكن أن يندفع طائرا إلى جوف الوحش من حلقه، هو وجناحاه المشرعان وراكبه وكل ما يحمل، وما كاد الجواد وصاحبه يقتربان من الوحش حتى أطلق الوحش نفسا حارا وكأنما هو لفحة ملتهبة من الرياح الحارقة، وطوت اللفحة بللروفون وجوادة فى طياتها المحرقة فإذا هما فى جو من اللهب يكوى جناحى «پيجاسس» بناره ويحرق ناحية بأكملها من شعر رأس الشاب بخصلاته الجميلة الذهبية المجعدة، لقد غرق كلاهما فى جحيم حار لا يحتمل من رأسهما إلى أخمص قدميهما.

ولكن هذا كله يبدو لا شىء بالنسبة لما حدث بعد ذلك.

لقد قربت الاندفاعة فى الهواء الجواد المجنح من الوحش بحيث أصبح على بعد مائة ياردة منه، وهنا قفز الوحش قفزة عالية وألقى بجثته الغليظة السامة الكريهة كلها على ظهر «پيجاسس» المسكين مباشرة وتعلق به بكل ما يملك من قوة وبأس، وقد عقد ذيله الأفعوانى عقدة وراءه، وطار الجواد الأثيرى إلى أعلى، وارتفع

وارتفع فوق قمم الجبال وفوق السحب حتى أصبح لا يكاد يرى من أى مكان من على الأرض الصلبة، ومع ذلك ظل الوحش الأرضى قابضا قبضته وهو محمول إلى أعلى مع المخلوق الأثيرى الخفيف اللامع، وفى الوقت نفسه التفت بللروفون فإذا هو وجها لوجه مع البشاعة المتجهمة الكالحة المتجلية في وجه الوحش، ولم يستطع أن يتجنب أن يخنق أو ينفلق نصفين إلا أن رفع درعه فى هذا الوجه الكريه، ومن فوق حافة الدرع العليا كان ينظر متجهما فى عيون الوحش الشرسة.

ولكن الألم دفع بالوحش إلى الشراسة المجنونة ، فلم يدافع عن نفسها ويحمها كما كان يمكن له أن يفعل لو لم يجن جنونه بما لقى، وبالرغم من كل شىء فلعل أفضل الطرق لقتال مثل هذا الوحش هى أن تكون أقرب ما يكون إليه، ففى جهوده الجبارة لكى ينشب أظفاره الحديدية البشعة فى عدوه عرض صدره فأصبح مكشوفا كله أمام بللروفون ، الذى ما كاد يراه حتى دفع بسيفه حتى المقبض ليخترق قلب الحيوان القاسى، وفى الحال حل الذيل الأفعوانى عقدته، وأرخى الوحش قبضته من على«بيجاسس» ووقع من هذا العلو الشاهق إلى تحت، بينما النار المندلعة فى صدره أخذت فى الاشتعال القوى بدل أن تخمد، وارتفع لهيبها إلى ما لم ترتفع إليه من قبل وهو يحرق فى سرعة الجثة الهامدة، وهكذا وقعت الجثة من السماء وهى عبارة عن شعلة متقدة، ولما كان الوقت مساء فلقد حسبها الناس نجما محترقا أو شهابا ساقطا أو كوكبا هاويا، ولكن بعض الفلاحين عندما بكروا للذهاب إلى عملهم فى صباح اليوم التالى لاحظوا أن بضعة من

الأفدنة كانت كلها مغطاة برماد أسود، وفى وسط حقل من الحقول لمحوا كومة من العظام المبيضة تعلو حتى ترتفع إلى أعلى من أكداس البرسيم الجاف، ولم يلمح أحد أى شىء من آثار الوحش اللعين شيميرا بعد ذلك أبدا.

ولما انتصر بللروفون انحنى إلى أمام وقبل الجواد «پيجاسس» بينما ترقرقت الدموع فى عينيه... وقال: « والآن يا جوادى الحبيب عد إلى نبعك... عد إلى عين پيرين!»

ومرق «پيجاسس» فى الجو بأسرع مما مرق فى أية مرة قبل اليوم، ووصل إلى العين فى وقت قصير جدا، وهناك وجد الشيخ هو يستند إلى عصاه، والفلاح وهو يسقى بقرته، والشابة الحلوة وهى تملأ من العين جرتها.

وقال الشيخ: «نعم إنى لأذكر الآن، لقد رأيت هذا الجواد المجنح مرة قبل اليوم عندما كنت شابا يافعا، ولكنه كان فى هذه الأيام أجمل مما هو الآن عشر مرات على الأقل»

وقال الفلاح: « إنى أملك حصانا يجر العربات يساوى ثلاثة أمثال ثمن هذا الحصان، ولو كان هذا الحصان الصغير أو المهر مهرى فإن أول ما كنت أفعله له هو أن أنتف له ريش جناحيه هذين»

أما الشابة المسكينة فإنها لم تقل شيئا، ذلك أنها كانت لسوء حظها، تخاف دائما فى الوقت الذى يجب ألا تخاف فيه، وعلى ذلك فإنها فرت هاربة عائدة تاركة وراءها جرتها التى عثرت بها فى عجلتها فانزلقت وتهشمت كلها.

وسأل بللروفون: «وأين الصبى الرقيق الذى كان يرافقنى ولم

يفقد حرارة إيمانه أبدا، إنه لم يكن يكل ولا يمل من النظر فى عين الماء؟»

فقال الصبى فى هدوء عذب: « هأنذا يا عزيزى بللروفون»

ذلك أن الصبى قضى أيامه، يوما بعد الآخر، وهو على حافة العين «پيرين» ينتظر عودة صديقه يوما، ولكنه لما أبصر بللروفون نازلا من السماء مخترقا السحب ممتطيا صهوة الجواد المجنح انسحب واختفى وراء الشجيرات الكثيفة، إنه صبى رقيق مرهف الحس وقد خشى أن يراه الفلاح والشيخ وهو يغالب الدموع المتفجرة من عينيه.

وقال فى مرح وهو يعدو حتى وصل إلى ركبة بللروفون الذى كان لا يزال على ظهر پيجاسس: «لقد ظفرت بالنصر وكنت واثقا من أنك ستنتصر مهما حدث».

فأجابه بللروفون وهو ينزل من على ظهر الجواد المجنح: «نعم يا بنى العزيز ولكن لولا أن إيمانك ساعدنى ما كنت استطعت أن أنتظر «پيجاسس» طول هذه المدة، وما كنت استطعت أن أصعد فوق السحاب، وماكنت انتصرت على الوحش المروع شيميرا إنه هو أنت يا صديقى الحبيب الصغير الذى فعلت كل ذلك، والآن هل نمنح پيجاسس حريته»

وهكذا سحب اللجام السحرى من على رأس الجواد المدهش وصاح وفى صوته رنة حزن: « فلتكن حرا إلى الأبد يا پيجاسس» وليكن لك من الحرية بمقدار ما لك من الخفة والسرعة».

ولكن «پيجاسس» ألقى رأسه على كتف بللروفون ولم يخضع لأى

إغراء له بأن يطير ويتركه، فقال بللروفون وهو يملس على الجواد الأثيرى فى حنان وحب:

«وإذن فلتبق معى ما شئت أن تبقى، وسنذهب الآن معا إلى الملك أيوباتس لنخبره أن الوحش شيميرا قد انتهى أجله».

وطوق بللروفون الصبى الرقيق بذراعيه ووعده بأن يعود إليه مرة أخرى، ثم رحل عنه، ولكن الأيام التالية شهدت هذا الصبى وهو يعلو فى رحلاته الطائرة على الجواد الأثيرى إلى ارتفاعات لم يصل إليها بللروفون، بل إن الأيام التالية شهدت هذا الصبى يقوم بأفعال مجيدة أمجد من انتصار صاحبه على الوحش اللعين، ذلك أنه لفرط رقته ورهافة حسه أصبح في يوم من الأيام شاعرا عظيما..

القمة الجرداء
(ما بعد قصة شيميرا الوحش)

لقد قص يوستيس برايت أسطورة بللروفون فى حمية وحماسة وكأنما كان هو الذى يقفز فعلا على ظهر الجواد المجنح، وفى الختام شعر بالرضا والقناعة عندما لمح فى وجوه سامعيه المتألقة كم ذا كانوا مهتمين بقصته ملتذين بها، كانت عيونهم كلها ترقص فى رءوسهم فيما عدا عينى زهرة الربيع، ففى عينيها كانت دموع واضحة لا تحتمل الشك فى أمرها، فلقد أدركت أمرا فى الأسطورة لم يكن من المستطاع للآخرين أن يدركوه بعد لصغر سنهم، إنها قصة أطفال دون شك، ولكن الطالب قد توصل بواسطتها إلى أن يعبر عن كل حماسة الشباب الفائر وأحلامه السخية وروحه الخيالية المغامرة.

وقال الطالب: «إنى لأغفر لك، يا زهرة الربيع، الآن كل ما سخرت به منى ومن قصصى، إن دمعة واحدة تمحو آلام ضحكات ساخرة كثيرة».

وأجابته زهرة الربيع وهى تمسح دمعها وتبتسم له ابتسامة من ابتساماتها الماكرة المعروفة:

«حسنا يا سيد برايت! إنه ولا شك لما يرفع من مستوى أفكارك أن يكون رأسك فوق السحب كما هو الآن، وإنى لأنصحك ألا تقص قصة أبدا إلا إذا كنت، كما أنت الآن ، على قمة جبل عالية».

فأضاف يوستيس ضاحكا: « أو إذا كنت على ظهر الجواد پيجاسس، ألا تظنين أنى أفلحت فى موضوع القبض على هذا المهر الرائع؟»

وصاحت زهرة الربيع وهى تصفق بيديها، ولقد كانت هذه واحدة من نوادرك المازحة الهوجاء، وإنى لأكاد أراك الآن على ظهره وقد ارتفعتما ميلين فى الفضاء ورأسك إلى أسفل، وإنه لمن حسن حظك حقا أنك لا تجد الفرصة سانحة حقا لتجرب مهارتك فى ركوب الجياد على جواد أشرس من جوادك الهادئ «داڤى» أو الجواد «ذو المائة العجوز».

فقال الطالب: « أما من جهتى أنا فلكم كنت أود أن يكون پيجاسس هنا الآن، فإنى كنت أركبه فى الحال وأقفز رامحا فى البلدة فى دائرة قطرها بضعة أميال لأقف بإخوانى المؤلفين والكتاب فى زيارات أدبية خاطفة، فهناك الدكتور «ديوى» سيكون قريبا منى عند قدمى الجبل «تاكونيك» وفى«ستوكبردج» هناك أجد السيد «چيمس» مرتفعا ليراه العالم كله فوق كومة من كتبه فى التاريخ والقصص الخيالية، ولكن « لونجفلو» فيما أظن لم يصل بعد إلى نقطة التقاء فرعى النهر وإلا لكان الجواد المجنح يصهل لمجرد رؤيته

من بعيد، أما هنا فى «لينوكس» فإنى كنت سأجد هناك، أصدق مؤلفى القصص عندنا، لقد جعلت من مناظر «بركشير» ومن الحياة فيها صورة فريدة خاصة بها دالة عليها، وعلى الجانب الآخر من «بتسفيدل» يجلس «هرمان ملفل» محاولا أن يخرج تصوره الجبار للحوت الأبيض إلى شكل مفهوم أو صورة متماسكة، بينما شكل «جريلوك» الجبار يلوح له فى مكتبه من خلف نافذة الغرفة، وقفزة أخرى من جوادى الطائر ستلقى بى أمام باب الشاعر «هولمز» الذى أذكره آخر القائمة لأن پيجاسس بمجرد أن يراه سيلقى بى أرضا من على ظهره ويطالب فى الحال بأن يكون راكبه هو الشاعر هولمز».

حقيقى وسألت زهرة الربيع: « أليس جارنا القريب منا كاتبا هو الآخر أو مؤلفا، هذا الرجل الصامت الذى يعيش فى البيت العتيق الأحمر بالقرب من شارع تانجلوود، والذى نصادفه أحيانا مع طفليه إلى جانبه فى الغابات أو عند البحيرة، أظن أنى سمعت أنه ألف قصيدة أو قصة خيالية أو كتاب حساب أو كتاب تاريخ مدرسى أو كتابا ما فى موضوع ما».

وقال يوستيس فى همسة مثيرة متعجبة وقد وضع أصبعه على شفتيه: « هش! اصمتى يا زهرة الربيع ولا تتفوهى بكلمة واحدة عن هذا الرجل ، ولا حتى على قمة التل، ذلك أنه لو أن لغونا وصل إلى أذنيه أو تصادف أن هذا اللغو لم يرق له فإنه بسهولة يستطيع أن يقذف بملزمة أو ملزمتين من الورق فى الفرن فإذا بنا جميعا نتحول إلى دخان، أنت يا زهرة الربيع، وأنا، وزهرة الفجر والخنشار الحلو،

وزهرة الليمون، والسنبل، وزهرة التوت، والبرسيم، وزهرة الفتنة، وشجرة الموز، والزهرة اللبنية، والهندباء البرى، وشقائق النعمان، بل والسيد الحكيم پرنجل بكل ما عنده من نقد لاذع ساخر لأساطيرى ، بل المسكينة السيدة پرنجل أيضا، كلنا، كلنا نتحول إلى دخان ينحشر فى المدخنة مصعدا فيها، إن جارنا فى البيت الأحمر رجل لا ضرر منه ولا ضير فيما أعرف بالنسبة للناس أجمعين، ولكن هاتفا يهتف بى هامسا يؤكد لى أن لهذا الجار سلطانا جبارا فظيعا علينا نحن، سلطانا يمتد إلى حد القدرة على إبادتنا ومحو آثارنا محوا، على أقل تقدير».

وسألت زهرة الفجر وقد روعت لهذا التهديد المدمر:

«وهل ستتحول تانجلوود هى أيضا إلى دخان؟ ترى وما مصير الكلبين بن وبرون؟»

فأجاب الطالب: «أمنا تانجلوود فإنها ستبقى كما هى الآن ولكن ستعمرها أسرة أخرى تختلف عنا كل الاختلاف، وسيظل بن وبرون على قيد الحياة وسيجدان الحياة طيبة حلوة بفضل العظام التى ستلقى إليهما من مائدة العشاء ولن يتذكرا أبدا الأيام الحلوة التى قصيناها معهما هنا».

وصاحت زهرة الربيع: « ما هذا الهراء الذى تتحدث به؟» بهذا الحديث الهين اللاهى كانت الجماعة قد أخذت تنزل قمة الجبل ، وقد وصلت الآن إلى ظلال الغابة، وجمعت زهرة الربيع بعض زهور الغار من على الجبل، وكانت أوراقه خضراء وإن تكن من نبت العام الماضى، لقد ظلت الأوراق محتفظة بخضرتها وحيويتها وكأنما

الصقيع والثلج لم يجرب كل منهما أثر الآخر قوته ليسلبا نسيجها نضرته ، ومن أغصان هذه الزهور زهور الغار، نسجت أكليلا ورفعت قبعة الطالب من على رأسه لتكلله بهذا الإكليل البديع.

وقالت زهرة الربيع طويلة اللسان: « ليس هناك من يمكن أن يرغب فى أن يكللك بتاج ما على قصصك، فإليك هذا التاج منى».

فأجابه يوستيس وعلى وجهه مسحة الشاعر الشاب وإكليل الغار يزين خصلات شعره الناعمة اللامعة.

«يجمل بك ألا تتأكدى من أننى لن أتوج بأكاليل أخرى من أجل هذه القصص الرائعة، فإني قد عزمت على أن أقضى ما بقى من إجازتى وكل فتروة الصيف فى الكلية فى إعداد هذه القصص للمطبعة، إن السيد ج . ت فيلدز (الذى تعرفت عليه لما كان فى «بركشير» فى الصيف الماضى وهو شاعر إلى جانب كونه ناشرا) سيلمح ولا شك ، وبمجرد النظرة الأولى، قيمة هذه القصص النادرة، إنه سيخرجها مصورة بريشة السيد «بللنجز» فيما أرجو ويخرجها للعالم كله فى أفخر إخراج بفضل مطابع «نيكشر» وشركاه الشهيرة الممتازة، وفى مدى خمسة أشهر من هذه اللحظة التى نحن فيها لا أشك مطلقا أنى سأكون نجما لامعا من نجوم التأليف فى هذا العصر الذى نعيش فيه.

وقالت زهرة الربيع وقد أدارت وجهها جانبا نوعا ما:

«يا للفتى المسكين أية خيبة أمل تنتظره!»

وعندما أمعنوا فى الانحدار من الجبل أخذ الكلب «برون» ينبح ورد عليه «بن» الوقور بنباح أهدأ وأكثر وقارا، وسرعان ما لمحوا

الكلب الطيب المسن وهو يحرس فى عناية ويقظة الهندباء البرى ، والخنشار الحلو، وزهرة الفتنة، وزهرة الليمون، وكانت هذه المجموعة من الصغار قد تغلبت على التعب وأخذت تشغل وقت الانتظار بقطف ثمار التوت المختلفة وقد جاءت الآن بجلبتها اللطيفة لتقابل رفقاءها فى الرحلة واللعب، وهكذا، وقد اجتمع شملهم، ساروا منحدرين عابرين حديقة السيد «لوثر بتلر» مستمتعين بالطريق فى العودة إلى بيتهم حتى وصلوا إلى تانجلوود».

المحتوى

- تصدير .... د. ماهر شفيق فريد 5
- تقديم .... د. سهير القلماوى 19
- مقدمة 25
- **عتبة تانجلوود « مقدمة قصة رأس الوحش » 27**
- رأس الـوحش 35
- عتبة تانجلوود « ما بعد قصة رأس الوحش» 67
- **الجدول الظليل «مقدمة قصة اللمسة الذهبية» 71**
- اللمسة الذهبية 75
- الجدول الظليل «ما بعد قصة اللمسة الذهبية» 99
- **غرفة اللعب فى تانجلوود «مقدمة قصة جنة الأطفال».... 103**
- جنة الأطفال 109
- غرفة اللعب فى تانجلوود «ما بعد قصة جنة الأطفال» ... 131
- **المدفأة فى تانجلوود «مقدمة قصة التفاحات الذهبية الثلاث» 133**
- التفاحات الذهبية الثلاث 141
- المدفأة فى تانجلوود «ما بعد قصة التفاحات الذهبية» ... 171
- **جانب التل «مقدمة قصة الجرة المسحورة» 175**
- الجرة المسحورة 179
- جانب التل «ما بعد قصة الجرة المسحورة» 207
- **القمة الجرداء «مقدمة قصة شيميرا الوحش» 209**
- شيميرا الوحش 213
- القمة الجرداء « ما بعد قصة شيميرا الوحش» 247

للنشر في السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

صدر مؤخراً في سلسلة
آفاق عالمية

87- أبناء الشمس الخامسة

ترجمة وتقديم : فاطمة ناعوت

تصدير : د. ماهر شفيق فريد

88- حكايات الجن الدنماركية

تأليف : هانز كريستيان أندرسن

ترجمة وتقديم : د. توفيق على منصور

89- افتــح الأبواب كلـهــا وقصائد أخرى

ترجمة : محمد أبو العطا

90- مختارات من كُتـّـاب نوبل

ترجمة : حسين عيد

91- علــى و نينـــو

تأليف : قربان سعيد

ترجمة : عبد المقصود عبد الكريم

92- العاشق المسافر

ترجمة و تقديم د / أحمد الشيمى

93- الحذاء ذو الرقبة الطويلة

ترجمة و تقديم / د. أحمد هلال يس

94- لســـــان أنـــًا

تأليف : برنار نويل

ترجمة : بشير السباعي

سلسلة

آفاق عالمية

استطاع الكاتب الأمريكى الكبير ناثانيل هوثورن (1804-1864)، أبو القصة الأمريكية كما يلقب، أن يشيع فى هذه الأساطير اليونانية القديمة حيوية وحياة نابضة بالقيم الإنسانية الخالدة على مر العصور: وأسلوبه -وقد كان يعكف شهورا طويلة فى عزلة تامة ليجوده- يوحى بأنه منحوت من صخر، ولكن فيه جلال الصخر وجماله، وبه استطاع -فعلا- أن يدفع جو هذه الأساطير كله بقدرة سحرية على التأثر بالجمال والاستمتاع به.





www.gocp.gov.eg
www.althaqafahalgadidah.com.eg
www.odabaaelaqaleem.com.eg
www.qatrelnada.com.eg

السعر: ٥,٢٥ جنيهاً